ISSN: 3027-0057

الحضارة

مجلة علمية حولية

تصدر عن
مركز الحضارة وحوار الأديان، جامعة بايرو، كنو - نيجيريا

العدد الأول - الرقم (1) المحرم، 1445هـ / جمادى الثاني 2023م

m

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف النبيين والمرسلين،

هيئة التحرير

رئيس هيئة التحرير
الأستاذ المشارك محمد الثاني عمر

المحرر
الأستاذ المشارك توفيق أبوبكر حسين

أعضاء هيئة التحرير

(1) أ.د. علي عثمان دوسنما
(2) د/إبراهيم عبد الله ثاني
(3) د/شعيب مختار شعيب
(4) د/نجيب أول أبوبكر
(5) د/كبير هارون عيسى
(6) د/ محمد سليمان فغي
(7) عبد الواسع عبد اللطيف صلاح الدين

الهيئة الاستشارية

(1) **الأستاذ الدكتور محمد ثاني زهر الدين** جامعة بايرو، كنو – نيجيريا
(2) **أ. د محمد. أحمد لوح** كلية الاستقامة السنغال
(3) **أ. د. ثالث شيحو** جامعة الاستقامة كنو
(4) **أ.د. إبراهيم محمد** قرية اللغة العربية الجامعية
(5) **أ. د. أبوبكر ميغا** جامعة مالي، بماكو
(6) **أ.د. علي محمد الأحمر** جامعة ميدغري
(7) **د. سعيد سيلا محمد** مدير جامعة الساحل جمهورية مالي
(8) **أ.د. سعادة ليمن** جامعة نصراوا، كيفي

EDITORIAL POLICY

Editor-in-chief

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

مجلة الحضارة الإسلامية
مركز الحضارة الإسلامية وحوار الأديان
جامعة بايرو كنو، نيجيريا

أود أن أقدم للقارئ الكريم **مجلة الحضارة الإسلامية** من مركز الحضارة الإسلامية وحوار الأديان لجامعة بايرو كنو، نيجيريا. فهي مجلة تصدر عن المركز سنويا.وستخضع الأوراق المقدمة إليها للتحكيم الأكاديمي من المتخصصين في مجال الحضارة والثقافة الإسلامية. مبدئيا سوف تُصدّر المجلة في العام مرة واحدة، و إذا ما تطلب الأمر إلى إصدارين فسوف نقوم به.. فهيئة التحرير للمجلة تود أن تعلن إستقبال الأوراق والمقالات الأكاديمية في فنون الحضارة والتاريخ الإسلامي والأفريقي والدراسات الشرعية. وكل ما له صلة بالحضارة الإسلامية. كالآتي:

1. الدراسات الشرعية
2. تحقيق مخطوط
3. التاريخ والحضارة الإسلامية
4. تراجم علماء جنوب الصحراء
5. تاريخ الإسلام في إفريقيا

يمكن تقديم الأوراق باللغة العربية أو الإنكليزية أو لغة الهوسا

1. يجب تقديم الأوراق بالصبغة الأكاديمية و الابتعاد عن الأسلوب الإنشائي
2. تقديم الورقة بإحدى اللغات العربية أو الإنكليزية أو الهوسا بأسلوب سلس ممتع
3. لا يجوز تقديم ورقة التي تم نشرها مسبقا في مجلة أخرى
4. سوف تخضع كل الأوراق للنقد الأكاديمي عن علماء أكفاء وسوف تقبل الورقة هيئة التحرير فقط إذا وافق عليها المحرر وبعد تفعيل كل الملحوظات المشار إليها.
5. وإذا ما أشار المحرر عدم موافقته بالورقة وبأنها خالية من المادة الأكاديمية سوف تعمل بذلك هيئة التحرير وتقوم بإلغاء الورقة تماما.
6. يجب إرفاق كل ورقة بمبلغ خمسة آلاف نيرة نيجيرية N5000ترسل على حساب المركز كالتالي:
GTB 0165879870 .Taufiq Abubakar Hussaini

7. وترسل مبلغ عشرون ألف نيرة N25،000 لنشر الورقة التي تم تحريرها والموافقة على نشرها. كما يبعث بالمستند المؤيد لذلك إلى رئيس التحرير
8. تبقى كل الآراء والأقوال المنشورة في المجلة آراء فردية لأصحابها ولا تعبر بأي حال من الأحوال عن رأي المجلة
9. تبعث بنسخة الأوراق إلى رئيس التحرير على العنوان التالي: alhadarahbuk@buk.edu.ng

طريقة توثيق المصادر/المراجع:

1. تقدم الأوراق كلها مطبوعة بصيغة الوورد MS Word على مسافة 1.5
2. يكون مساحة الحواشي من جانبي الورقة على بعد 1.2 من الجانب الأيمن والأيسر. ومسافة 1.5 من أعلى وأسفل الورقة.
3. تكون نوعية الخط traditional Arabic وبحجم 18 في النص و12 في الهوامش.
4. ينسخ الآيات القرآنية من المصحف المدني المرقم حيث يأتي ذكر اسم السورة ورقمها بعد الآيات مباشرة
5. يقدم ملخص البحث فيما لا يقل عن 200 كلمة حيث يذكر فيها ما لا يقل عن أربعة كلمات مفتاحية
6. ينبغي ألا يتجاوز عدد صفحات البحث أكثر من 20 صفحة وألا تقل عن 15 صفحة
7. يجب توثيق كل المصادر المذكورة في البحث عن طريق الهامش كالآتي:

(أ) ذكر الكنية أو اللقب ثم ذكر بقية أسماء المؤلف

(ب) يجعل الخط تحت اسم المصدر

(ج) ذكر مدينة النشر

(د) ذكر سنة النشر

(هـ) نحو: إبن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت. دار المعرفة، 1379 هـ ج2 ص 34

(و) وعند ذكر المرجع للمرات القادمة يشار إليه ب إبن حجر: المصدر السابق ج4 ص 67

8. يذكر في آخر البحث كل المصادر المذكورة في البحث مع كامل بياناتها. الهوسا.

فهرس المحتويات

هيئة التحرير والهيئة الاستشارية ..... ج
تقديم ..... د
فهرس المحتويات ..... و

(1) إسهامات الأستاذ **محمد** فتح الله كولن في مجال التربية للأجيال الناشئة: وقفات من كتاب "من البذرة إلى الثمرة" [**د/ مصطفى محمد قاسم**] 1

(2) قاعدة "مراعاة الخلاف" في المذهب المالكي وعلاقتها بالدعوة إلى الله **[أمين شيخ أبو بكر]** 16

(3) المباحث العقدية الواردة في قصة نبي الله صالح عليه السلام في القرآن الكريم: جمعا ودراسة **[عبد الله عثمان عمر]** 32

(4) القرآن الكريم والحضارة الاقتصادية **[د. عمر إبراهيم إنداباوا]** 48

(5) الحوار في المنظور الإسلامي وآثاره في تعزيز التعايش السلمي بين الشعوب [**عبدالواسع عبداللطيف صلاح الدين**] 60

(6) الانتخابات العامة في نيجيريا بين الفقه والواقع [**نوح عبدالله عثمان**] 74

(7) أساليب حوار الأديان من خلال بعض من الآيات القرآنية والسنة النبوية [**دكتور أمين علي غيا**] و [**الدكتور عبد الرؤوف ثاني عيسى**] 86

(8) أثر الحسبة في وقاية المجتمع من الانحراف الفكري ومواجهته **[د/ علي يونس محمد]** 99

(9) آثار الأفلام الهوساوية على المجتمع الهوساوي المسلم **[صفية أبا سافانا]** 112

(10) الحسبة وأثرها في تحقيق الأمن النفسي والاجتماعي [**د/ محمد مسلم إبراهيم**] 126

(11) فقه الأولويات عند السلف: دروس وعبر [**د/ خديجة تكر باتغراوا**] 138

(12) الحسبة في الحضارة الإسلامية [**الدكتور إبراهيم عبد الله ثاني**] 152

(13) أسس الاحتساب على الانحراف الفكري وتطبيقاته المعاصرة [**د/ نجيب أول أبوبكر**] 171

(14) مملكة غانا الإسلاميّة: بدايةٌ ونهايةٌ [**د/ محمّد الثّاني عُمر مُوسى**] 183

(15) عناصر فهرسة المخطوطات العربية ومناهجها [**عمر شيتو حسن**] 187

(16) صالحية الشريعة لكل زمان ومكان [**د. جميل يوسف زريوا**] 198

(17) العلامة علي ابن بطال وعنايته بالجامع الصحيح للإمام البخاري [**أنس عباس إبراهيم**] 208

إسهامات الأستاذ محمد فتح الله كولن في مجال التربية للأجيال الناشئة: وقفات من كتاب "من البذرة إلى الثمرة"

By
Dr. Mustapha Muhammad Qasim
Department of Islamic studies and Shari'a
Bayero University Kano
E-mail: kagarko7@gmail.com ; Phone: 08064892450 & 08056357773

المقدمة:

إن تربية الأولاد تربية إسلامية صحيحة من أجلِّ الأعمال التي تقرب العبد بربه وتسبب له رضي الله تبارك وتعالى. ولقد كانت عناية العلماء بهذا الجانب – على مر الزمان- بالغة جداً، حيث لا يخلو عصر من العصور إلا وجد فيه من يكتب عن تربية الأولاد، فالهمم مصروفة إليها، والعزائم مُصمِّمة عليها والشوق مُصوّب نحوها. وإن مما ينبهر منه الدارس ويتذوق منه الباحث أن الأستاذ العلامة محمد فتح الله كولن ألّف كتاباً قيماً وسماه "من البذرة إلى الثمرة" وهو من الكتب المعاصرة الذي وجداً قبولاً، وانتشاراً، وتأثراً في العالم الإسلامي عامة، وفي القطر النيجيري خاصة، مع اختلاف أمتهم في المشرب وفي بعض المسائل الفقهية، وذلك أن الكتاب قد تناول إجمالاً معظم المسائل المتعلقة بتربية الأولاد وأدرج فيه بعض الأفكار القيمة في إطار الآيات والأحاديث النبوية الشريفة مما لفت أنظار الناس إليه، والاستفادة منه.

وقد قسّم الباحث هذه الورقة إلى ثلاثة مباحث، وهي:

- **المبحث الأول:** ترجمة الأستاذ محمد فتح الله كولن
- **المبحث الثاني:** دراسة كتاب "من البذرة إلى الثمرة" وبيان جهود الأستاذ محمد فتح الله في تأليفه
- **المبحث الثالث:** انتشار كتاب "من البذرة إلى الثمرة" في القطر النيجيري وتأثيره لدى الشعب

المبحث الأول: ترجمة الأستاذ محمد فتح الله كولن

أسرته: انحدر الأستاذ محمد فتح الله كولن من أسرة اشتهرت بالعلم والتدين والسيرة المحمودة، حظيت هذه الأسرة ببيوت علمية توارثها أفرادها العلم ابناً عن أبٍ، عن جدٍّ، أجيالاً تتبعها أجيال تحمل هذا النور، ملئت بها كتب التاريخ، ومما يسجله التاريخ الإسلامي بعزٍ وفخرٍ أن نهاية القرن التاسع عشر إلى القرن الواحد والعشرين الميلادي ظهر علماء ربانيون من هذه الأسرة الطيبة، يأتي في مقدمتهم الشيخ رامز أفندي، وقد كان شخصاً مشهوداً له بالعلم والأدب والدين، وكان من العلماء الصالحين ذوي المكانة العلمية العالية التي جعلت طلبة العلم يقصدونه وينهلون العلم من

معينه الصافي، ثم يأتي تالياً جمانة العقد وواسطته، ابنه المصلح العلامة الأستاذ محمد فتح الله كولن، حفظه الله وأدام ظله[1].

ولادته:

بشرت العائلة الكولانية بولادة سليلها النجيب: الأستاذ محمد فتح الله كولن، في 11 من شهر نوفمبر عام 1938م، في قرية كروجك (Korucuk) بمحافظة أضروم (Erzurum) شمال شرق هضبة الأناضول التركية. وقد استقبله أبوه بكفالته منذ ولادته وأحاطه بعناية خاصة حتى نشأ[2].

نشأته وطلبه للعلم:

تلقى الأستاذ محمد فتح الله كولن دروسه الأولى في حفظ القرآن الكريم وتعليم القراءة والكتابة، على يد مجموعة من العلماء وعلى رأسهم والدته الكريمة السيدة رفيعة هانم - رحمة الله عليها- فحفظ القرآن الكريم ورتَّله، فأتم حفظه وهو صغير جداً، ولما يتجاوز بعد الرابعة من عمره، ثم حفظ مجموعة من المتون العلمية، واستمع إلى أحاديث العلماء والصالحين في أضروم، الذين اتخذوا بيت أبيه محطهم، فتفتحت وعيه واتسعت مداركه وزادت معارفه في وقت مبكر في حياته. ابتدأ في طلب العلم عند والده حيث قام بتعليمه مبادئ العلوم الإسلامية واللغة العربية والفارسية، ثم التحق بالمدرسة الدينية وتعلم فيها العلوم الإسلامية والعربية، كما اهتم به عدد من علماء منطقته عناية ورعاية، لما رأوا من وقَادَةِ ذهنه وجِدِّه وحرصه على هضم العلم ونقده، وبخاصة الشيخ عثمان بكتاش، الذي كان من أبرز فقهاء عهده، حيث درس عليه النحو والبلاغة والفقه وأصوله والتوحيد. ولم يهمل أيضا دراسة العلوم الوضعية والفلسفة والكيمياء وعلم الفلك وعلم الأحياء والفيزياء وغيرها[3].

وفي أثناء دراسته تعرف على رسائل النور، وتأثر بها كثيراً، لذلك يُعد الأستاذ محمد فتح الله كولن من مريدي بديع الزمان الشيخ سعيد النورسي، كما تجد أفكار بديع الزمان مطبقة في تصرفات الأستاذ كولن ونشاطاته الدينية، وبخاصة فيما يتعلق بإيجاد مجتمع إسلامي ملتزم، وممارسة الحوار ونبذ العنف في التعامل مع الغير ولو كان غير مسلم. وقد اقتدى بالنورسي كذلك في العبادة والزهد، حتى أصبحا مضرباً للمثل في كونهما مثل قطاع متميز من أهل الله، عاشوا كينونتهم في صيام وقيام، إذ قدَّروا أن لا وقت لديهم ينفقونه في غير ما يحقق معنى الكمال الإنساني الذي به تتحقق الاستخلافية، استخلافية الإنسان في الأرض[4].

وفي أيام دراسته الأولى أيضا كان يتردد كثيراً إلى "التكية[5]" تلقى فيها التربية الروحية إلى جانب العلوم الدينية التي تلقاها من علماء معروفين بالدين والصلاح في تلك الفترة. تعلم في هذه التكية الزهد أو زاد تعمقه في علم الزهد والتصوف، وما زال حتى الآن يطبق هذا العلم على أرض الواقع.

عوامل نبوغ الأستاذ محمد فتح الله كولن:

لقد عملت عوامل شتى في دفع عجلة نبوغه في العلم والتأليف، فيمكن إبراز ما اكتشفها هذا البحث في الآتي:

(أ) الموهبة الإلهية: فقد وهب الله تبارك وتعالى الأستاذ محمد فتح الله كولن ذكاءً فائقاً، وعقلاً جباراً، وذهناً صحيحاً عجيباً في الحفظ والاستحضار، ولساناً طليقاً، وقال عنه مدير مركز البحوث والدراسات القرآنية، الأستاذ الدكتور إبراهيم محمد: " كثير الاطلاع نادرة عصره، بقية السلف، وعمدة الخلف، وقد بلغت عدة مصنفاته أكثر من سبعين، وهو في درجة المجتهدين في العلم والعمل[6]" ومما يدل على عبقريته وذكائه، أنه يحضر لقاءاته ومحاضراته بعض المثقفين وأصحاب التيارات الفكرية الحداثية واللبرالية والقومية فيسألونه أسئلة حائرة تجول في أذهان الناس والشباب خاصة، وتوقعهم في الإلحاد، فكانت أجوبته لها بلسماً شافياً لعقول وقلوب هؤلاء الشباب والناس مما جعلهم يلتفون حوله ويطلبون إرشاداته[7]. ومما يدل أيضاً على قوة ذكائه وتأثير دعوته قول الداعية السعودي له الشيخ الدكتور سلمان بن فهد العودة، حيث يقول: ويعد محمد فتح الله كولن من العلماء المسلمين الأتراك الذين ذاع صيت أفكارهم ونشاطاتهم في العالم أجمع. وهو مفكر كبير ترجمت كتبه إلى العديد من اللغات العالمية، وهو إلى جانب هذا خطيب ومربٍّ مؤثر، وأحد من العلماء الأجلاء الذين تصدوا لموجات الإلحاد، ونجح بدروسه وشروحه أن يقاومها.[8]

(ب)البيئة الأسرية: فقد كانت عائلته عائلة علمية، كان أبوه عالماً جليلاً، له جمع كبير من التلاميذ، يطمح من فلذة كبده أن يوَرّثه من علمه، فقام بتربيته وتعليمه، وأوصى به إلى علماء عصره، وتولى بعضهم أمر الوصية عليه، ومنهم عثمان بكتاش، أحد كبار فقهاء عصره[9]. لكن شاءت قدرة الله أن يكون علم الأستاذ فتح الله أضعافا من علم أبيه، ولولا ولده لما عرفه ملايين من الناس.

(ج)الأساتذة الجهابذة: عاش الأستاذ محمد فتح الله كولن في عصر كثر فيه العلماء الأعلام الذين نبغوا في علوم الدين على تعدد ميادينها، وتوفروا على علوم اللغة بمختلف فروعها، وأسهموا في ميدان الإبداع الأدبي، اعتنوا به عناية فائقة، فأخذوا بيده وأناروا له سبيله، وعمقوا ثقافته الإسلامية بمختلف العلوم وأطلعوه على تيارات عصره، فاكتسب منهم ملكة علمية وروحاً إصلاحية ومراساً في التفقه والتدريس والتأليف، وأعمل فكره فيما حصله وتوسع في ذلك وحلله، وقد كان أكثر هؤلاء الشيوخ تأثيرا عليه: الشيخ عثمان بكتاش، والعلامة سعيد النورسي، وكانا عمدة شيوخه، وقد لازم الشيخ عثمان بكتاش أعواماً كثيرة، وأخذ منه أغلب علمه، ومن شيوخه الذين أثروا في تكوين شخصيته العلمية " أمه الحنونة السيدة رفيعة

هانم " التي أخذ عنها القرآن الكريم، و"أبوه الشيخ رامز أفندي " الذي أخذ عنه العلوم الكثيرة، وصحبه إلى أن توفي، رحمة الله عليه[10].

(د) الهمة العالية: وكان للأستاذ كولن همة عالية في المطالعة والمراجعة والمذاكرة والتدريس. كان هماماً في طلب العلم، وقد امتاز بهمة طماحة إلى المعالي وجدٍّ في العمل لا يمسه كلل، ولعزمه وجده على طلب العلم الديني ونشره سافر إلى جميع مناطق تركيا والتقى بعلمائها واستفاد من نور علمهم، ونشر ما عنده من العلم والإصلاح، للعام والخاص، ثم بلدان المجاورة ثم العالم كله[11].

تصوفه وزهده:

نشأ الأستاذ محمد فتح الله كولن في بيئة لم تعرف طريقاً سوى طرق أهل الله من السادات الصوفية ومنهجهم، ومن العلوم التي أخذها عن شيوخه علم التصوف، وبخاصة أيام تردده للتكية، وكان تصوفه سنياً، لا يقبل الشطحات والخرافات الباطلة، وكان يُعْرض كل أمر على الكتاب والسنة، فما وافق أخذ وما خالف ترك، ولا يقبل لتلميذ له أو مريد ينتمي إليه أن يُحيد عن لبِّ الشريعة إلا أدّبه، لأن فهمه لغاية التصوف الإسلامي هو التمسك بالكتاب والسنة، والزهد عن الدنيا وما فيها إلا لقدر حاجة، وما دعته إليه الضرورة. هناك عدة أحداث تَحْكِي لنا زهد الشيخ للدنيا وما فيها، ومنها، أنه كان يبيت في المسجد ولا يخرج منه إلا عند الحاجة الماسة، فعاش في رياضة نفسية وزهد من الدنيا. ومن زهده للدنيا أنه لا يزور بيت السلطات إلا للضرورة أو لمصلحة دينية، كإنشاء مشروع ديني، مما أكسبه عزة وهيبة عند العام والخاص.

نشاطاته العلمية والدينية:

توزعت أعمال الأستاذ محمد فتح الله كولن في ثلاث نواحي، وهي التدريس، والوعظ، والتأليف:

- **الأولى: التدريس:** بدأ الأستاذ كولن تدريس القرآن الكريم بإجازة بعض شيوخه وله ما لا يجاوز خمسة عشر عاماً، في مدرسة تحفيظ القرآن الكريم التابعة للجامع " كستانه بازاري ". ودَرَّسَ أيضاً بعض العلوم الإسلامية والعربية للمجموعات من الناس وكذلك الأفراد، وفي هذه المرحلة حُبِّب إليه الاشتغال بالتدريس أكثر من كل أعماله ونشاطاته، وكان دروسه التي اشتهر بها تمتاز بالعمق في تحقيقاته الرائعة، واجتهاداته الشخصية إلى مناقشة آراء العلماء، وابتكار الأنظار، وقوة التحليل، وبراعة النقد. ولمَّا بلغ عشرين عاماً عُيّن إماماً في جامع (أُوجْ شرفلي) في مدينة أدرنة التركية، حيث قضى فيها مدة سنتين ونصف سنة في جو من الزهد ورياضة النفس. وكان يلقي في الجامع الدروس الدينية والوعظ والإرشاد إضافة إلى إمامته للصلاة[12].
- **الثانية: الدعوة أو الوعظ والارشاد:** كان الأستاذ محمد فتح الله كولن يحب الاشتغال بالعلم والتدريس أكثر من غيره من خلال العقدين الأولين من عمره كما سبق، أما في العقد الثالث

احتل الوعظ والإرشاد المرتبة الأولى من نشاطاته العلمية والدينية، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب، منها: رسوخه في العلم والتحقيق في النظر والسمو والاتساع في التفكير، وإلمامه بشتى فنون المعرفة. ومنها أيضاً أنه أدرك أن بعض الشباب كانوا يقعون في مهالك الشبهة والإلحاد ويهربون عن التعاليم الإسلامية السمحة. ومن الأسباب كذلك أنه أدرك أن المجتمع التركي، ومجتمعات العالم الإسلامي عامة تعاني من ثلاث علل كبرى هي: الجهل والفقر والتفرق، فنذر نفسه للدعوة إلى القضاء على هذه المشكلات[13].

بدأ الوعظ والإرشاد بمنطقته وكان يخاطب عقول الناس وقلوبهم، ويذكرهم بالماضي المجيد، والحاضر البئيس، ويرسم لهم المستقبل المشرق، ويبعث فيهم الأمل، ويغرس في قلوبهم الإيمان بالله، ويحبّب إليهم طاعة الرسول ρ، ويحثّهم على التأسّي بالصحابة τ، ويدعوهم إلى العمل المجتمعي التربوي. وواظب على أداء رسالته بصبر وجدية ثم خرج إلى بقية مناطق تركيا كلها داعياً إلى الله تبارك وتعالى، وأينما نزل الأستاذ يجتمع الناس حوله ويستمعون إلى خطبه ومحاضراته، فطار اسمه واشتهر أمره فأحبه العام والخاص، ونتيجة لذلك قام هؤلاء الذين استفادوا من أفكاره بإنشاء العديد من المدارس التي تهتم بجانبي الدين والدنيا كما قال الحق تبارك وتعالى:﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا ﴾(القصص: ٧٧). ثم أخرج الأستاذ طريقاً آخر للدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وهو نشر الصحف والمجلات التي تعد وسيلة لنشر الوعي الديني بين الشباب خاصة والمسلمين عامة، كما اتخذها وسيلة لنشر أهداف ومناهج دعوته. وقد ساعدت كثيراً في الكشف عن نشاطات العلمانيين في إيقاء الشباب في مهالك الشبهة والإلحاد[14]. ولا أحد يعرف عدد محاضراته ودروسه العلمية والاجتماعية والفلسفية والفكرية في المنتديات العامة والخاصة ولكن تقدر بالآلاف[15]. ونختم هذه النقطة ببيان خروج دعوة الأستاذ محمد فتح الله كولن من بلده تركيا إلى الدول المجاورة لا سيما التي انفصلت من الاتحاد السوفيتي أولاً، ثم توسعت إلى جميع العالم، ومنها الدولة نيجيريا، وقد وجدت فيها ترحاباً جيداً وبخاصة في أوساط الأكاديميين ورجال الدين، وذلك لملائمتها مع العصر الحديث، حيث تشجع المسلمين على الجمع بين الدين وما صفى من الدنيا، وذلك لمستقبل جيد للدولة خاصة والعالم الإسلامي عامة، حتى تنافس غيرها أو تفوقها في العلم والاقتصاد والتكنولوجيا.

- **الثالثة: التأليف:** بدأ الأستاذ محمد فتح الله كولن التأليف مبكراً، وذلك من خلال العقد الثاني من عمره، ويرجع ذلك إلى أربعة أسباب: أولاها: رسوخه في العم والمعرفة. ثانيها: خبراته التي اكتسبها في حياته. وثالثها: مهارته وسرعته في الكتابة. ورابعها: توفيق الله سبحانه وتعالى، وهو فوق الأسباب جمعها التي هيأت له تأليف الكتب. ويمكن القول بأن ما أنجزه الأستاذ كولن من مؤلفات تعجز اليوم عن إنجازه مؤسسات ومراكز بحوث، رغم ما يتوافر لها عادة من مالٍ

ورجال وعلماء ومصادر معلومات من الكتب والمراجع والحواسيب ونحوها. ولولم يكن له من الكرامات إلا كثرة المؤلفات مع تحريرها وتدقيقها لكفى ذلك شاهداً لمن يؤمن بالقدرة.

فقد أُحصى كتبه حوالي سبعين مؤلفاً (70)[16]. في مختلف الفنون الإسلامية والعربية والاجتماعية والثقافية، وإنَّ دولة تركيا لم تعرف في عصره رجلاً عالماً مؤلفاً أوفر إنتاجاً وأغزر فائدة منه، وقد تنوعت إنتاجاته العلمية ما بين كتب مؤلفة أو مشرحة ورسائل وفتاوى، وكل إنتاجات الأستاذ محمد فتح الله كولن على تنوعها وكثرتها متميزة مادة وضعها وإعداد قصدها ومن أشهر مؤلفاته: "النور الخالد في سيرة النبي ρ" و "تعليم العربية بطريقة حديثة" و "نحن نبني حضارتنا" و "جيل الحداثة" و "التلال الزمردية" و "أسئلة العصر المحيّرة" و "البيان" و "من البذرة إلى الثمرة".

وقد ترجم كتبه إلى أربعين (40) لغة مختلفة، ومنها لغات العالم الحية، كالعربية والإنجليزية والفرنسية والهوسا والسواحيلي. وأصبحت هذه الكتب مرجعاً كبيراً في الجامعات والمعاهد العلمية، لربط القضايا أو النصوص الدينية مع الواقع المعاش. ومن مؤلفات الأستاذ التي وجدت قبولاً ورواجاً بين شعب نيجيريا عامة، وفي جامعاتها ومعاهدها خاصة، كتاب " النور الخالد" و " من البذرة إلى الثمرة" قلّما تجد أستاذاً جامعياً يدرّس مادتي السيرة النبوية والأحوال الشخصية إلا ويملك هذين الكتابين، ويرشد تلاميذه إليهما، ومما ساعد على نشرهما أنهما ترجمان إلى لغتي الإنجليزية والعربية، وهما لغتا الجامعات والمعاهد العلمية في نيجيريا.

المبحث الثاني: دراسة كتاب "من البذرة إلى الثمرة" وبيان جهود الأستاذ محمد فتح الله في تأليفه

سبب تأليف الكتاب: هناك جملة من الأسباب التي دفعت وحرضت الأستاذ محمد فتح الله كولن على تأليف كتابه المسمى "من البذرة إلى الثمرة" ولكن أهمها ثلاثة، وهي:

(1) فإن جماعة من العلماء وبخاصة الأتراك، سألوه أن يضع لهم كتاباً لطيفاً يشتمل على لبِّ المسائل التي تتعلق بتربية الأبناء وبيان حكم تقليد المسلمين الكفار في تربية أولادهم وعواقبها[17].

(2) فقد قصد بهذا التأليف أيضاً خدمةَ الأمة المحمدية والعمل فيما يرضي الله ورسوله ρ، كما ظهر ذلك جلياً في مواضيع الكتاب، وقال مُقَدِّمُ الكتاب البروفيسور إبراهيم جانان (Canan): وإذا ما نظرنا إلى هذا الكتاب على اعتبار أنه مؤلف لرجل حركي عملي يقوم بمشروعات بعيدة الأجل **لخدمة مصلحة الأمة ومستقبلها**[18]. وعند حديث الأستاذ كولن عن الغاية من الزواج مثلاً ذكر أنه يهدف إلى **تنشئة جيلٍ يرتضيه الله تعالى، ويسعد به الرسول ρ**[19].

(3) ومن أسباب التأليف كذلك الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وهذا معروف ومشهور أن الأستاذ وهب نفسه للدعوة إلى الله تبارك وتعالى منذ أن كان يافعاً إلى يومنا هذا، ولم يعرف شيئاً غيرها، إلا ما كان وسيلة إليها، وذلك تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾(النحل: ١٢٥) وقوله تعالى:﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الذاريات: ٥٥) وقول النبي ρ "الدين النصيحة"[20].

محتويات الكتاب:

يتكون هذا الكتاب من مدخل وسبعة فصول وخاتمة، تحدث في الفصل الأول عن الزواج، والثاني في الأسرة، والثالث عن الدقة في التربية، والرابع عن التربية الدينية للطفل، والخامس عن كيفية الشرح والتوضيح، والسادس عن أبعاد التربية، والسابع عن التربية القرآنية والتربية غير القرآنية.

وأما حجم الكتاب فيمكن وصفه بالمتوسط، تكّون في مجلد واحد، بلغ عدد صفحاته مئتين وثمانية صفحة (208).

منهج الأستاذ في تأليف الكتاب:

عُني العلماء – منذ عهد بعيد - ببيان مناهجهم بين كتبهم، إما على سبيل الإجمال أو التفصيل. ثم يتفاوتون في التزامهم بهذه المناهج المرسومة. ويبين قدر ذلك عند كلّ الدارسين والمحللين لكتبهم. والبروفيسور إبراهيم جانان (Canan): أجمل البيان في منهج الأستاذ في هذا الكتاب حيث قال: " قمت بقراءته من أوله إلى آخره، فأدركت أن الأمر ليس بالسهل اليسير، لأن موضوع التربية غزير المواد والمفردات، ولقد تناول الكتاب معظم المسائل المتعلقة به، وأدرجت بعض الأفكار القيمة في إطار الآيات والأحاديث"[21] ويعني بكلامه هذا أن منهج الأستاذ هو استنباط المعاني والفوائد من نصوص الكتاب والسنة ودمجها وصياغتها بأساليب مبتكرة تفيد الأمة الإسلامية.

وأما تفصيلها فتأتي في النقاط الآتية:

(1) يأتي بالعنوان أولاً، كأن يقول: الفصل السابع في مقارنة بين التربية القرآنية والتربية غير القرآنية، يكتبه بالخط العريض ويضعه أيضاً بين القوسين أو الدائرتين[22].

(2) التعريف بالمسألة، وبعد أن عنون لها يعرّفها لغة أو اصطلاحاً أو هما معاً. وهناك بعض المسائل أو العناوين الفرعية سلك البيان في حكمها من دون تعريف، وقد يعرفها أثناء بيان حكمها، كموضوع "تنظيم محيط الأسرة "، جاء تعريفه بعد أن أورد الحديث النبوي الذي تحدث عنه، ثم عرفه بأن كلمة الأب والأم هو أول ما يتلفّظ به الطفل، ولكن يجب أن تكون

أول كلمة تخرج من فمه بشكل إرادي هي لفظ الجلالة " الله " لأن الله هو أول شيء قبل كل شيء، ثم يأتي بعد ذلك بعض المصطلحات حوله بما يناسب مع عمر الطفل[23].

(3) جمع النصوص من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التي تناولت بيان مسألة التربية، وإيرادها قبل التعريف أو بعده مباشرة، كما يؤخرها أحيانا، ويقدم أقوال السلف عليها. ويوجد بعض المسائل التي حللها وبيّن مقصدها ولم يؤيدها بأية أو حديث، ولكنها نادرة جداً. مثل ما جاء في بيان "أهمية المنزل"، وقد خلى الموضوع من النصوص القرآنية أو الأحاديث النبوية[24].

(4) وإذا ذكر مسألة فقهية في الكتاب، يبين حكمها كما أوردها السلف في كتبهم، ولا يقتصر على ما ورد في المذهب الحنفي الذي تربى الأستاذ ونشأ فيه، بل يتطرق إلى المذاهب الفقهية الأخرى، وبخاصة أنه يدعو إلى نبذ التعصب بالمذاهب، لأنه يؤدى إلى تفرق وحدة المسلمين. وفي حديثه لشروط الزواج مال إلى ما ذهبت إليه الشافعية[25].

(5) يقوم الأستاذ بتحليل النصوص سواء كانت قرآنية أو حديثاً نبوياً أو أقوال العلماء ويضيفها بما شاهد من تربية الأطفال في بلاد المسلمين اليوم، وإذا وافقت الشريعة أيدها، وإذا خالفت قومها. ومن منهجه في هذا الكتاب أيضاً أنه يقترح بعض الطرق والوسائل الفعالية في تربية الأولاد على مختلف مراحلهم، وإن لم ترد في كتب السلف. وأخرى يتجنبها المسلم في تربية أولاده، مثل محاكاة أسلوب الغرب في تربية الأولاد[26].

مصادر الكتاب:

إن قيمة كل كتاب أُلِّف في فنّ ترجع إلى قيمة المصادر التي اعتمد عليها المؤلف وأصالة تلك المصادر، ولذا اعتمد الأستاذ محمد فتح الله كولن في تأليفه لهذا الكتاب على القرآن وأمهات كتب الحديث والفقه المعتمدة عليها عند سلف الأمة الإسلامية، واعتمد أيضاً على مصنفات أخرى في مختلف فنون الإسلامية والعربية، ذكر بعض هذه المصادر وسكت عن الأخرى، وأهمها فيما يلي:

(1) القرآن الكريم.

(2) أمهات كتب السنة: أورد أربعة وستين حديثاً نبوياً بعد جمعها من مختلف الكتب، أشهرها: الجامع الصحيح لمحمد بن إسماعيل البخاري الجعفي والجامع الصحيح للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيري النيسابوري، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، وشعب الإيمان للبيهقي، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي، و المعجم الكبير للإمام الطبراني، والسنن الكبرى للبيهقي.

(3) تفسير ابن كثير لابن

(4) الزهد والرقائق لعبد الله بن مبارك

(5) الشمائل المحمدية للترمذي
(6) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي
(7) النور الخالد للأستاذ محمد فتح الله كولن
(8) فيض القدير للمناوي
(9) المغني لابن قدامة
(10) الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي
(11) محي السنة للبغوي
(12) أبيات شعرية لسعيد الشرلزي، محمد عاكف أرضوي، وغالب محمد أسعد دَدَه.

هذه أهم المصادر التي اعتمد عليها المؤلف في هذا الكتاب. ينقل المادة العلمية منها نقلاً حرفياً، فينبّه على ذلك تارة، وينقل بالمعنى تارة أخرى.

قيمة الكتاب العلمية ومنزلته بين قرَّائه:

كل عملٍ من الأعمال تتضح قيمته بالنظر إلى من قام به، فالبناء مثلاً ترجع قيمته إلى المهندس الذي خططه، وكذلك التأليف يحظى بتقدير القراء باعتبار جهود مؤلفّه وامتيازاته في عالم التأليف. فهذا الكتاب من مؤلفات العلامة التركي ونادرة زمانه فتح الله كولن، كان ملماً بالعلوم التي يحتاج إليها المؤلف، فلا غرو أن يكون ذا قيمة علمية، ولا سيّما إذا نظرنا إلى ما أودع فيه من مختلف المعارف، فحوى كتابه القرآن والسنة وأقوال الصحابة والتابعين وتابع التابعين واستعان بثقافته وخبراته، ولم يغفل عن استعانة بأصول الفقه في بيان معنى المراد من النصوص.

أما منزلته بين القراء فإن هذا الكتاب كان ولا يزال يتمتع بتقدير فائق بين كثير من علماء نيجيريا على وجه الخصوص، وبين علماء العالم على وجه العموم، حتى بلغ من تقدير بعضهم له أنه أدُرج في ضمن الكتب المدروسة في بعض الدروس الرمضانية[27]، في مجالس العلم والمساجد، ويترجم معناه إلى لغة الهوسا لطلبة العلم والعوام.

ومما يدل على قيمته ومنزلته بين القراء أنه نشر آلاف النسخ منه، باللغات العالم الحية، ومنها الهوسا والإنجليزية.

المبحث الثالث:انتشاركتاب " من البذرة إلى الثمرة" في القطر النيجيري وتأثيره لدى شعبه

انتشاره: أول من أدخل هذا الكتاب في نيجيريا حسب تتبع الباحث هو رئيس شركة نصرت فرع نيجيريا، الدكتور بيدر حسين، ابتداء بالنسخة العربية وتبعها النسخة الإنجليزية. وأول من تعرّف عليه هم الأكاديميون، أساتذة الجامعة والمعاهد العلمية، فنال الكتاب إعجابهم، فجعلوه من ضمن المراجع المعتمدة عليها لبعض المواد وبخاصة الأحوال الشخصية (Islamic Family Law) ثم

تَعَرَّف على الكتاب أيضاً الطلاب عن طريق أساتذتهم لكثرة الاستشهاد به، وإيراده لهم في قائمة المراجع. وتبعهم على التعرف بالكتاب بعض كبار العلماء غير الأكاديميين، مثل أستاذ الأساتذة ومربي الأجيال الشيخ أحمد مقر بن سعيد زاريا، فنشره بين تلاميذه وبخاصة أئمة المساجد والدعاة منهم، فأوصاهم بتعليمه في مدارسهم وحلقاتهم العلمية، لا سيما في جانب الأمهات لكونهن مربيات للأولاد. وللشيخ مقري تعليقات شفهية على الكتاب، وذلك بعد أن قرأه كله، فقال معجباً به: " كأن الأستاذ محمد فتح الله كولن عاش في نيجيريا لمدة طويلة، ورأى أوضاعها التربوية فألّف هذا الكتاب، لأنه استطاع أن يستوعب أغلب مسائل تربوية يعاني منها المجتمع النيجيري، ويأتي بحل لأغلب منها بطريق ينسجم في كثير من فقراته مع ظروفنا الاجتماعية [28]".

أما انتشاره بشكل واسع فقد بدأ بعد ظهور طبعة مترجمة بلغة الهوسا، لأن معظم مسلمي نيجيريا يفهمونها ولو لم تكن لغتهم الأم، بخلاف العربية والإنجليزية تخصان الطبقة المتعلمة. ثم إن المترجم للكتاب قد أفاد وأجاد في نقل المعاني إلى اللغة الهوسا بعبارة جميلة وكلمات سهلة، لا تحتاج كثيرا إلى مزيد من البيان والتوضيح، كما حافظ على قواعد الكتابة في هذه اللغة. ومما يدل على انتشار الكتاب وقبوله أيضاً أنه أُطلق عليه الاسم بالهوسا، ويسمونه (Littafin Tarbiya) ويقصدون بهذه العبارة الكتاب الذي يرشد إلى تربية الأولاد تربية إسلامية صحيحة. وهناك مدرسة لتهذيب الأمهات خصصت خصة في كل أسبوع لدراسة هذا الكتاب ومذاكرته، وأسلوبهم هو أن يأمر الأستاذ إحدى الطالبات بقراءة بعض الفقرات أمام زملائها وهنَّ يتابعنها بنسختهم إما الأصلية وإما المصورة، فإذا انتهت القراءة يناقشن ما تضمنت الفقرات وطرق تطبيقها على أرض الواقع. ولذلك تجد من بين هذه الطالبات من إذا عرض عليها مشكلة ما تتعلق بالتربية فترجع إليه طلباً للحل[29].

ينبغي التنبيه على أن كل ما ذكر الباحث من انتشار الكتاب وقبوله وبخاصة الطبعة المترجمة إلى الهوسا، لم تعم جميع مجتمعات نيجيريا، مدنها وأريافها.

تأثيره على الشعب النيجيري:

كما وجد الكتاب قبولاً وانتشاراً سريعاً كذلك أثّر على معظم من قرأه وفهمه، وبخاصة بعض القضايا التي صحح الأستاذ مفاهيمه، وحدد أهدافها، يعرض الباحث هنا قضيتين منها على سبيل المثال لا الحصر، وهما:

أولاً: الزواج أو تعدد الزوجات: شاع في المجتمعات النيجيرية أن الزواج أو تعدد الزوجات سبباً للغنى، ويُوصى لمن يعاني من الفقر أن يتزوج، أو يعدد إن كان متزوجاً. وهناك من يتنافسون في التعدد، وإذا تزوج صديقه أو جاره بالثانية والثالثة أو الرابعة فيحاول هو أيضاً أن يدركه، وإن لم يكن لديه حاجة أو باءة في ذلك، ويحدث هذا غالباً في القرى والأرياف، ويقل في المدن. وهناك

مواقف كذلك يُستهزأ بالعازب، كأن يمنع من الإمامة في الصلاة أو الوقوف في الصف الأول أو قيادة أي مشروع اجتماعي، وإذا جاوز الثلاثين من العمر من دون شريكة الحياة يسمى تزورو (Tuzuru)، يلتحق بأنواع من الأذى وبخاصة في شهر رمضان المبارك، من قبل المراهقين والبالغين، حيث يذهبون إلى قريب من داره ويغنون عليه بألفاظ تدل على تحقيره وإهانته، من دون النظر إلى أسباب إعراضه عن الزواج، ولو كانت اقتصادياً أو صحياً، فيلتمس له العذر. وفي نظر هؤلاء أن المتعدد أفضل بكثير على المقتصر بزوجة واحدة، وثوابه أعظم عند الله، وحجتهم أن الله I بدأ بذكر التعدد قبل غيره وقال:﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ﴾(النساء: ٣).

ولأجل هذه العادات والمفاهيم الخاطئة أصبح تعدد الزوجات ظاهرة معروفة، يمارسه الشباب والمسنون، الأغنياء والفقراء، الراعي والرعية، سواء توفرت لهم الشروط أم لا، ومن أسوء هذه الظاهرة هو أن تجد فقيراً لا يملك مهنة أو حرفة يدوية يعتمد عليها فيجمع عدداً من الزوجات تحته، أو يملك حرفة لكنها صغيرة، بحيث لا يستطيع أن يتحمل بها تكاليف أسرته، فيعيش أفراد الأسرة في ضيق شديد. ولو اقتصر على زوجة واحدة، وعدد من الأولاد الذي يتناسب مع دخله الاقتصادي، لما أوقع نفسه وأسرته في هذه الورطة. ومن الأسف الشديد أن بعضاً منهم يظن أنه مثاب من الله تبارك وتعالى بفعله هذا.

لكنه بعد انتشار كتاب " من البذرة إلى الثمر " وبخاصة الطبعة المترجمة إلى الهوسا، غيّر لكثير من الشعب النيجيري مفاهيمه وصححه، لا سيما الذين قرأوا الكتاب وفهموه، لأن الأستاذ محمد فتح الله كولن ذكر شروط الزواج والغاية منه في الكتاب، نقلاً من أمهات الكتب الإسلامية، وشرحها بأسلوب جيد، حيث قرّب معناه إلى القارئ، ومضمونه أن كل زواج يفقد الغاية فهو ممحق البركة، شأنه كشأن الأعمال التي تخلو من النية الحسنة، فكثير ما ينتهي بعدم التوافق وصعوبة التعايش[30]. وهذا واقع ما يحدث لبعض المتزوجين في نيجيريا، من اضطهاد المرأة أو شجار دائم وعدم توافق يؤدي في النهاية إلى فراق، أو سوء التربية للأولاد، وذلك لعدم توفرهم الشروط للزواج أو تعدد الزوجات.

ثانياً: إنجاب الأولاد: يفهم كثير من مسلمي نيجيريا أن الزواج مصنع لتوليد الأطفال، وأن جميع أنواع تنظيم النسل وتحديده حرام شرعاً، ولذلك لا يسمح الرجل لزوجاته استعمال وسائل منع الحمل، سواء كانت عقاقير أو اللولب يوضع في رحم المرأة أو لبوس توضع في فرجها، لاعتقاده أنه ما من مولد إلا ويكتب رزقه قبل أن يولد، وأن الله يرزق من يشاء بغير حساب، ويقولون بالهوسا: (Bakin da Allah ya tsaga bai hanamai abinda zaici) بمعنى من شدق الأشداق تكفل الأرزاق. وهذا المفهوم مؤيد جداً لكثير من علماء القطر النيجيري قديماً وحديثاً، ويستدلون بقوله

تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا ﴾ (هود: ٦) وقول النبي ρ: " تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة [31]". فكل من خالف هذا فهو حادٍ عن لبِّ الشريعة الإسلامية.

ومن أجل هذا الفهم تجد فقيراً معدوماً لا يجد ما ينفق على نفسه فضلاً عن غيره ينجب أولاداً من غير حدٍ، ولا يستطيع أن يقوم بواجبات الأب تجاه أبنائه، من المأكل والمشرب والمسكن والصحة والتعليم وغير ذلك، ومنهم من يرسل أطفاله الصغار إلى الخلوة القرآنية (Almajiri school) عجزاً عن القيام بتكاليفهم، حيث يعيشون على التسول. أو يترك ابنه يخطط لنفسه مسيرة الحياة، ولا يعرف الأب مبيت ابنه ومهنته وأصدقائه، ومثل هؤلاء الأولاد هم الذين يقعون فريسة سهلة في صغرهم للمجرمين، كسحرة وممارسي الشذوذ الجنسي، والاغتصاب، وإذا بلغوا ارتكبوا أنواعاً من الجرائم كالسرقة وتعاطي المخدرات وقطع الطريق.

أما الأستاذ محمد فتح الله كولن يرى أن للزواج أهداف وغايات تسعى الشريعة لتحقيقها، ومن هذه الأهداف توليد الأطفال كما ذكر هؤلاء، وأما غاية هذا الهدف هو وجود نسلٍ يرضي عنه الله I، ونسلٍ يعيش الدين ويعايشه، ونسلٍ يتعطَّش لنيل رضا الله، ونسلٍ يفتخر به النبي ρ، لأنه يقول في حديث آخر: " تناكحوا تكثروا، فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة [32]" ومضمون هذا الحديث صريح لأنه يشير إلى مفهوم مخالف، وهو إن لم يستهدف المرء بالزواج تربية نسلٍ يفتخر به النبي ρ فلا معنى قط من الزواج أو التكاثر، وبدهيّ أن رسول الله ρ لن يفتخر بنسلٍ وحشيّ صدي الفؤاد لا تعرف جبهته إلى السجود سبيلاً، ينغمس في لهو ومجون، ويجترح أعمالاً إرهابية[33]. ولذلك ينبغي على المسلم أن ينجب الأولاد بشكلٍ يتناسب مع أصوله ومبادئه وبعبارة أخرى بشكل يتناسب مع دخله الاقتصادي وقدرته على القيام بالتربية الصحيحة، رغما الأفكار التي تحوم في بيئته لأن تكاثر النسل بشكل عشوائي سيخلّف عواقب غير مرضية[34].

والذين يقرءون كتاب "من البذرة إلى الثمرة" أدركوا أن فهم الأستاذ كولن هو الصواب، لما شاهدوا من تدهور وفساد تربية أبناءٍ، عَجَزَ أباءهم عن تحمل مسؤولياتهم، وأصبح الأبناء أعداء لهم، ويتسببون مشكلات كبيرة للمجتمع. والحل الوحيد للخروج من هذا المأزقِ هو تصحيح مفاهيم الخاطئة في الانجاب، والرجوع إلى ما يوافق فهم الصحيح للسنة النبوية الشريفة[35].

ويرى الباحث أنه إذا استمر انتشار هذا الكتاب على هذا الشكل السريع تقل المفاهيم الخاطئة حول توليد الأطفال تدريجياً، ويعلو مفاهيماً صحيحاً، وبخاصة إذا ترجم الكتاب إلى لغات كُبريات القبائل مثل لغة يوربا (Yoruba) الذين يحتلون جنوب غربي البلاد وجزء من وسطه، والمسلمين منهم يمثلون غالبية العظمى.

الخاتمة:

تلك لمحة عن شخصية الأستاذ محمد فتح الله كولن، وإسهاماته في إبراز التربية الأولاد على ضوء السنة النبوية المطهرة من خلال كتابه " من البذرة إلى الثمرة "، ومن الموضوعية بمكان أن يسجل الباحث أهم النتائج التي توصل إليها وهي:

(1) . توصل الباحث إلى أن دراسة التراث شاحذة لهمم الطلاب على التنقيب عن جهود العلماء المتقدمين والمعاصرين وباعثة للباحثين على الكتابة والتفكير، وأن العلامة محمد فتح الله كولن قدّم عملاً جليلاً خليقاً بالإشادة وجديراً بالدراسة وهو كتاب " من البذرة إلى الثمرة ".

(2) يُعد الأستاذ فتح الله من الرواد المعاصرين الذين اهتموا بتربية الأولاد تربية إسلامية صحيحة، وذلك بتتبع أراء المتقدمين من العلماء حول التربية، وتدقيقها، وتمحيصها، والترجيح بينها، ليختار ما وافق الدليل وأيدته مقاصد الشريعة، مما أولى كتابه " من البذرة إلى الثمرة " مكانة عالية عند العلماء والقراء.

(3) استطاع الأستاذ كولن في كتابه هذا أن يزاوج بين النقل والعقل، وبين النص وتنزيله في الواقع، وهذا يُعد من أفضل العلوم. كما أن الدراسة رصدت بالجملة من أن توجيهاته التربوية تنم عن سعة علمه، وتحرره من التعصب، ونبذه للتقلد، وقدرته على الاجتهاد.

(4) إن تأثير كتاب " من البذرة إلى الثمرة " على كل من قرأه وفهمه يدل على اخلاص المؤلف وحسن قصده.

قائمة المصادروالمراجع:

- الأستاذ محمد فتح الله كولن، **من البذرة إلى الثمرة، القاهرة**، دار النيل، 2015.
- ----------، **كلمات شاهدة**، القاهرة، دار النيل، 2015م.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث بن شداد، **سنن أبي داود**، بيروت، دار الفكر، (بدون تاريخ)
- الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرَه: **"سنن النسائي"**، بيروت، دار الفكر، (بدون تاريخ)
- مقابلة شخصية مع عدد من قرأوا كتاب "من البذرة إلى الثمرة" منهم الدكتوراه زهراء محمد عمر، ومالم أبوبكر سابو ساكنو، يوم 23 – 9- 2019. في بيوتهم.
- مقابلة شخصية مع أحد تلاميذ الشيخ مقري سعيد وإمام المسجد المركزي لمحلية كغركو، الأستاذ أبوبكر سمبو، يوم 15- 09 2019م في بيته بكغركو.
- مقابلة شخصية مع رئيس المدرسة، الأستاذ أبوبكر سمبو، يوم 15- 09 2019م في بيته بكغركو.
- مقابلة شخصية مع البروفيسور إبراهيم، مدير مركز الدراسات القرآنية، في مكتبه يوم 14- 5- 2019م.

- مقابلة شخصية مع الدكتور توفيق أبو بكر حسين، أحد كبار أعضاء الخدمة في نيجيريا، يوم الاثنين 2-9-2019م في مكتبه بجامعة بايرو كنو.

- موقع الشيخ سلمان العودة في تويتر: twitter: @salman_alodah

-http://data.bnf.fr/ark:/12148/cb14500316s

الهوامش:

(1) - http://data.bnf.fr/ark:/12148/cb14500316s

(2) - الأستاذ محمد فتح الله كولن، **كلمات شاهدة**، القاهرة، دار النيل، 2015م، ص: 13.

(3) - التراث العقدي وتوظيفاته عند علماء المغرب وعند علماء تركيا. نسخة محفوظة، ص: 106.

(4) - المرجع السابق نفسه، ص: 103.

(5) - التكيّة، هي الكلمة التركية المسايرة للخانقاه وللزاوية،" بالتركية تعني الاتكاء أو الاستناد إلى شيء للراحة والاسترخاء، ومن هنا تكون التكية بمعنى مكان الراحة والاعتكاف، وجمعها تكايا. أما في الاصطلاح، فهي من العمائر الدينية المهمة التي ترجع نشأتها إلى العصر العثماني، سواء في الأناضول أو في الولايات التابعة للدولة العثمانية، ومفردها، وانشأت خاصة لإقامة المنقطعين للعبادة من المتصوفة ومساعدة عابري السبيل، وتعتبر التكية من المنشآت الدينية التي حلَّت محل "الخنقاوات" المملوكية في العصر العثماني.

وفي العصر الحديث **التكية بمعنى المأوى**: هو المكان الذي يقيم فيه الفقراء أو المسافرون أو حتى لرعاية المحتضرين الذين ينتظرون وفاتهم وعادة ما يتم الإنفاق عليه من قبل جهات أو منظمات دينية.

(6) - مقابلة شخصية مع البروفيسور إبراهيم، مدير مركز الدراسات القرآنية، في مكتبه يوم 14- 5- 2019م.

(7) - http://data.bnf.fr/ark:/12148/cb14500316s

-7 موقع الشيخ سلمان العودة في تويتر: twitter: @salman_alodah

(9) - فريد الأنصاري، **عودة الفرسان**، القاهرة، دار النيل للطباعة والنشر، 2015م، ص: 54.

(10) - http://data.bnf.fr/ark:/12148/cb14500316s

(11) - http://data.bnf.fr/ark:/12148/cb14500316s

(12) - http://data.bnf.fr/ark:/12148/cb14500316s

(13) - الأستاذ محمد فتح الله كولن، مرجع سابق، ص: 12.

(14) - نفس المرجع السابق، 14.

(15) - نفس المرجع السابق، 13.

(16) - نفس المرجع السابق، 4.

(17) - مقابلة شخصية مع الدكتور توفيق أبو بكر حسين، أحد كبار أعضاء الخدمة في نيجيريا، يوم الاثنين 2-9-2019م في مكتبه بجامعة بايرو كنو.

(18) - المرجع السابق نفسه، ص: 10.

(19) - الأستاذ محمد فتح الله كولن، **من البذرة إلى الثمرة، القاهرة**، دار النيل، 2015، ص: 40.

(20) - رواه النسائي في سننه، باب النصيحة، ج:4، ص: 313، ورقم الحديث: 7820. وقال ابن حجر العسقلاني في التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير: (صحيح) ورقم الحديث 1192.

(21) - الأستاذ محمد فتح الله كولن، من البذرة إلى الثمرة: مرجع سابق، ص: 9.

(22) - نفس المرجع السابق، ص: 180

(23) - (23) - نفس المرجع السابق، ص: 91

(24) - نفس المرجع السابق، ص: 40

(25) - نفس المرجع السابق، ص: 42 – 43.

(26) - نفس المرجع السابق، ص: 24

(27) - مثل مسجد حارة غيم في مدينة هنكي عاصمة محلية كدن، ولاية كدونا. تدرّس هذا الكتاب بعد صلاة الصبح مباشرة.

(28) - مقابلة شخصية مع أحد تلاميذ الشيخ مقري سعيد وإمام المسجد المركزي لمحلية كغركو، الأستاذ أبوبكر سمبو، يوم 15- 09 2019م في بيته بكغركو.

(29) - مقابلة شخصية مع رئيس المدرسة، الأستاذ أبوبكر سمبو، يوم 15- 09 2019م في بيته بكغركو.

(30) - نفس المرجع السابق، ص: 41.

(31) - رواه النسائي في السنن الكبرى، ج:3، ص: 218. وقال ابن الملقن في البدر المنير في تخريج الأحاديث والأثار: صحيح، ج: 2، ص: 423.

(32) - رواه أبو داود في سننه، باب النكاح، ج: 4، ص: 24.

(33) - الأستاذ محمد فتح الله كولن، من البذرة إلى الثمرة: مرجع سابق، ص: 45.

(34) - مرجع سابق نفسه، ص: 46.

(35) - مقابلة شخصية مع عدد من قرأوا كتاب "من البذرة إلى الثمرة" منهم الدكتوراه زهراء محمد عمر، ومالم أبوبكر سابو ساكنو، يوم 23 – 9- 2019. في بيوتهم.

قاعدة "مراعاة الخلاف" في المذهب المالكي وعلاقتها بالدعوة إلى الله

أمين شيخ أبو بكر
قسم الدراسات الإسلامية، كلية التربية الفدرالية - كنو
(+234) 8060799108; bakane366@gmail.com

الملخص:

إن قاعدة "مراعاة الخلاف" تجلّ من تجليات سعة الأفق الفقهي والأصولي للفقه الإسلامي، وخاصة في المذهب المالكي، تتركز في بيان الوجه الآخر المشرق لحكمة الاختلاف، ويوجّه أذهان المجتهدين إلى مراعاة مقاصد الشارع ومآلات الأفعال في الحكم الشرعي، يتبلور ذلك من خلال بيان معناها وحالات اعتبارها وأدّلتها والحِكَم الشرعية المتضمة فيها، وضرب أمثلة واقعية من اجتهادات الفقهاء في التراث الفقهي المالكي لإبراز مدى المقاصد العملية لقاعدة مراعاة الخلاف في منظومة الفكر الاجتهادي المالكي. ويهدف هذا البحث إلى النظر في هذه القاعدة وموقعها في المدارس الفقهية وخاصة المدرسة المالكية نظريًّا وتطبيقًا، وبيان علاقتها بالاجتهاد المقاصدي المعاصر وكيفية توظيفها فيه. سيعتمد الباحث على المنهج الاستقرائي في جمع آراء الفقهاء في المسألة المطروحة، والمنهج التحليلي النقدي في تحليل الآراء المعروضة ومناقشتها، مبديًا ما يراه راجحًا حسب نصوص الشريعة ومقاصدها.

الكلمات المفتاحية: مراعاة الخلاف، المذهب المالكي، الخروج من الخلاف، العمل الدعوي.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، إن الاهتمام الكبير الذي أولاه علماء الفقه الإسلامي أدّى إلى نشوء مفاهيم أصولية وقواعد فقهية مؤصّلة من النصوص الشرعية، فضلاً عن ظهور توجّهات فقهية مختلفة، سمّيت بعد ذلك بالمذاهب الفقهية ونُسبت إلى أسماء مؤسسيها. وهذه المذاهب عبارة عن مناهج في فهم الشريعة وأساليب في تفسير نصوصها وطرق استنباط الأحكام من مصادرها، ومن فقه الصحابة وفقه التابعين وتابعيهم في المسائل الفرعية الفقهية.

وقد تميّز المذهب المالكي بوفرة المصادر الاجتهادية، إذ تفرّد ببعض الأصول تفرّدا كاملا بحيث لم يشاركه فيها غيره من المذاهب، وإنما اختص ببعض الأصول لكثرة اعتنائه بها وتفريعه على

مقتضاها مع مشاركة غيره من المذاهب في القول بها، حتى ظنّ بعض العلماء أن المذهب المالكي تفرّد بها دون غيره، ومن هذه الأصول: عمل أهل المدينة، والمصلحة المرسلة، وسدّ الذرائع، ومراعاة الخلاف.

وتعتبر قاعدة "مراعاة الخلاف" الأصولية التي اشتهرت بها المالكية من أعظم المبادئ المؤدية إلى تحقيق التيسير ورفع الحرج عن المكلفين، وتقليل الخلاف وتحقيق التقارب بين المذاهب الفقهية لو أمكن استثمار ذلك بشكل علمي وعملي، لأن ذلك يساهم في إرساء منهج علمي موضوعي رصين، بعيد عن اتباع الهوى والتعصب الذميم، مما يؤدي إلى تقليل شقة الخلاف بين الاجتهادات المتباينة والمذاهب الفقهية المتعددة، وتحصيل رفع المشقة والتيسير على الناس، وهي –لا شك- ثروة علمية جديرة بالاستثمار.

مفهوم "مراعاة الخلاف"

إن ضبط معاني هذه القاعدة المكوّنة من كلمتَين (مراعاة) و(الخلاف) في اللغة والاصطلاح هو الخطوة الأولى في طريق البحث فيها، وتمهيدًا للولوج في بيان حقيقتها وحالاتها وشروطها وموقعها في الفكر الأصولي، وأثرها في الاجتهاد الفقهي.

أولا: معناها في اللغة:

كلمة "مراعاة" مصدر راعى يراعي مراعاة، وهو فعل مزيد ثلاثي بألف، وأصله من "رعى" يَرعى رعيًا ورعاية ورِعاء. وتُطلق الكلمة في اللغة للدلالة على معان عدة، منها: المحافظة والمراقبة والمناظرة. جاء في الحديث [كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته][(1)] أي حافظ مؤتمن. ويقال: راعيتُ فلانًا إذا راقبته وتأملت فعله. ومراعاة الرجل للأمر: أي مراقبته إلى ما يصير وما ذا منه يكون.[(2)]

هذا المعنى اللغوي هو المعنى المراد بـ"المراعاة" عند الأصوليين، أي أن المجتهد يلاحظ ويحفظ رأيه واجتهاد مجتهد آخر ولا يهمله، بل يأخذه بعين الاعتبار، ويبني عليه الأحكام.[(3)]

وكلمة "خلاف" مصدر خالف يخالف خلافا ومخالفة، وترادفها "اختلاف". وترد الكلمة في اللغة لمعان عدّة، منها التغيّر، وخلاف القُدّام، وضد الاتفاق، وأن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه.[(4)] ولكن أقرب معاني "الخلاف" اللغوي لدى الأصوليين هو ما رجّحه أكثر الباحثين ممن تعرّض لهذا الموضوع[(5)] بأنه هو "ضد الاتفاق".[(6)] قال ابن منظور: "والخلاف: المضادة، وقد خالفه مخالفة وخلافا".[(7)]

أما المقصود بالخلاف في الاصطلاح هو: "الاختلاف الواقع بين المجتهدين في المسائل الاجتهادية التي يسوّغ فيها الاجتهاد والاختلاف".[(8)]

ثانيا: مدلول "مراعاة الخلاف" اصطلاحا:

بعد تركيب هذَين الاسمَين تركيبًا إضافيًّا "مراعاة الخلاف" صار هذا التركيب عند إطلاقه لقبًا وعَلمًا لمصطلح مخصوص عند أهل العلم، وأصلا من أصول الاجتهاد في الفكر الأصولي المالكي. وسمّاه بعض العلماء بـ"رعي الخلاف" و"الخروج من الخلاف".[(9)]

عرّفه المشاط وغيره بأنه: "عبارة عن إعمال المجتهد لدليل خصمه أي المجتهد المخالف له في لازم مدلوله الذي أعمل في نقيضه دليل آخر".[(10)]

أي أن يوظف المجتهد دليله ودليل مخالفه في حكم، فيعمل بدليله الذي هو الراجح عنده في مقدمة الحكم، ثم يعمل بدليل مخالفه الذي هو المرجوح عنده في لازم مدلوله، فيستثمر هذا الخلاف في تفادي المفسدة المتوقعة لو عمل بلازم مدلوله هو، فيصرف الحكم الذي تترتب عليه المفاسد ولو كان راجحا، ويطبّق عليها الحكم الذي تترتب عليه المصالح ولو كان مرجوحا.

مثال ذلك: إعمال الإمام مالك دليل خصمه القائل بعدم فسخ نكاح الشغار في لازم مدلوله، الذي هو الفسخ بالطلاق وثبوت الإرث إذا مات أحدهما، وهذا المدلول الذي هو عدم الفسخ أعمل مالك في نقيضه الذي هو الفسخ دليلا آخر يقتضي الفسخ عنده.[(11)]

قاعدة مراعاة الخلاف عند المالكية

هذه القاعدة جليلة، وأحد طرق الاستدلال في مذهب الإمام مالك، كما قال الشاطبي: " إن من جملة أنواع الاستحسان مراعاة خلاف العلماء، وهو أصل في مذهب مالك ينبني عليه مسائل كثيرة ".[(12)] وقال ابن رشد: "ومن الاستحسان مراعاة الخلاف، وهو أصل في المذهب".[(13)] وقد جعلها معظم أصوليي المذهب جزءًا من قاعدة مآلات الأفعال،[(14)] وفرعًا من فروع قاعدة الاستحسان؛ إذ المصلحة هي أساس الأخذ بأصل الاستحسان، والأمر نفسه بالنسبة لمراعاة الخلاف.[(15)]

وإن المتتبع للمدوّنات الفقهية والأصولية للمذهب المالكي يستقرّ في ذهنه بأن قاعدة مراعاة الخلاف كانت مثار اهتمام كبير من علماء المذهب، ما بين مثبت لحجيّتها، وقوة مدركها الشرعي، ومستنكر لها، ومستشكل لها في مفهومها، ومضمونها ومدركها والشروط المعتبرة في الأخذ بها، وبالتالي فلم يكن هذا الأصل محلّ اتفاق بين علماء المذهب، إلا أنه يمكن القول بأن جمهور المالكية يقولون بمشروعيتها وجواز الاستدلال بها.

وقد حكى عدد من العلماء نسبته إلى الإمام مالك رضي الله عنه، وأنه دليل معتبر عنده. قال ابن فرحون: "وأن مالكًا رحمه الله كان يراعي من الخلاف ما قوي دليله"،[(16)] قال الونشريسي: " إن مالكًا وأصحابه رحمهم الله يجري كثيرًا في فتاويهم ومسائلهم مراعاة الخلاف، ويبنون عليها فروعا حجة،[(17)] ويعلل به شيوخ المذهب الشارحون له أقوال من تقدّم من أهل مذهبهم من غير توقف حتى صارت عندهم وعند مدرّسي الفقهاء قاعدة مبنيًّا عليها وعمدة مرجوعًا إليها".[(18)]

حالات مراعاة الخلاف وأدلتها

قسّم الأصوليون مراعاة الخلاف في فعل النازلة المختلف فيه إلى حالتين: قبل وقوع النازلة، وبعد وقوعها.[(19)]

الحالة الأولى: مراعاة الخلاف قبل وقوعه:

مراعاة الخلاف قبل وقوعه هي أن يظهر للمجتهد بعد اجتهاده قوّة مأخذ مخالفه وصحة متمسّكه؛ بأن يكون مقتضاه آتيا على وفق الاحتياط، أو محققا لمصلحة شرعية ظاهرة في جهة الأخف؛ رغم اعتقاده بصحّة اجتهاده الشخصي الذي هو أقلّ مراعاة للاحتياط، أو أقل تحقيقا للمصلحة، فيمضي حينئذ على اجتهاد مخالفه؛ مرجّحا لمقتضاه ومقررًا لظهوره ابتداء.[(20)]

ومراعاة الخلاف في هذه الحالة مستحبّ عند جمهور الفقهاء، ووجه الاستحباب فيه هو الاحتياط والورع في براءة الذمة. ولكن القول باستحبابه يتمشّى مع أصل المسألة، وإلا فإن هناك حالات يخف فيها طلب مراعاة الخلاف أو يتأكد، وذلك راجع إلى نظر المجتهد وبصره بأسرار الشريعة ومآلات الأمور، فمتى ظهر للمجتهد قوة مدرك مخالفه وصحة مأخذه صار إلى اجتهاده، وامتثل لمقتضاه، فإنما هو مبني إما على الاحتياط أو على الأخذ بالأيسر.[(21)]

استدل الفقهاء على استحباب الاحتياط والورع في الدين بنصوص الكتاب والسنة، منها قوله تعالى:ُّخ لم لى لي □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ً. الحجرات: 12. ووجه الاستدلال بالآية أن الله تعالى أمر باجتناب ما لا بأس فيه مخافة الوقوع فيما فيه بأس، وهذا هو الاحتياط.

وقوله صلى الله عليه وسلم: [الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات لا يدري كثير من الناس أمن الحلال هي أم من الحرام فمن تركها استبرأ لدينه وعرضه فقد سلم ومن واقع شيئا منها يوشك أن يواقع الحرام كما أنه من يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه].[(22)] ووجه الاستدلال بالحديث أن النبي ﷺ أمر بترك المتشبهات احتياطا لئلا يؤدي التلبس بها إلى مواقعة الحرام.

وما ورد في قصة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنه لما صلّى خلف عثمان بن عفان رضي الله عنه بمنى مُتِمًّا رغم مخالفته له ومراجعته إيّاه في ذلك؛ ولما قيل له: عبت على عثمان ثم صليت أربعا؟ قال: " الخلاف شرّ ".[(23)]

ووجه الاستدلال بهذا الأثر حينما رأى عبد الله بن مسعود أن أمير المؤمنين عثمان مُصرٌّا على إتمام الصلاة ولم يلتفت لاعتراضه عليه كره مخالفة عثمان؛ لأن ذلك مظنّة وقوع التفرّق والخلاف وشق عصا طاعة ولي الأمر، فصلّى خلفه؛ احتياطا لمصالح أعظم من مجرّد تلك المصلحة الجزئية التي هي رخصة القصر.

الحالة الثانية: مراعاة الخلاف بعد وقوعه:

مراعاة الخلاف بعد وقوعه هي أن يرجح المجتهد في المسألة مثلا جانب الحظر والمنع ابتداء، بحيث يحكم عليه بالبطلان وعدم النفوذ الشرعي، فإذا ما وقع التصرف بخلافه، إما عن خطأ أو جهل أو استخفاف راعى دليل غيره المرجوح عنده رعاية لوجه يقتضي رجحان دليل ذلك الغير في تلك الحالة، وهي إما لدفع مفسدة محققة أو لجلب مصلحة محققة.[(24)]

وقد أصّل العلماء هذا النوع من مراعاة الخلاف بنصوص الشريعة وقواعدها، منها:

قول النبي صلى الله عليه وسلم: [أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل فنكاحها باطل فنكاحها باطل فإن دخل بها فلها المهر بما استحل من فرجها].[(25)]

وجه الاستدلال بهذا الحديث أن النبي ﷺ عقّب النكاح الباطل الذي تم بلا وليّ بما يقتضي تصحيحه بعد وقوعه، وهو ثبوت المهر للزوجة، وذكر السبب في اعتباره أنه عوض عن "ما ستحلّ من فرجها" بالاستمتاع بها، ولو لم يعتبر ذلك لأدّى العمل بمقتضاه قبل وقوع الزواج إلى منعها من المهر، لأنه زنا، ولا يخفى ما في ذلك من الإجحاف بحق الزوجة.

ومنها: حديث عائشة رضي الله عنها في اختلاف سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة في ابن وليدة زمعة، أخذه سعد يوم الفتح وقال: ابن أخي قد كان عهد إليّ فيه، فقام إليه عبد بن زمعة فقال: أخي وابن وليدة أبي، وُلد على فراشه؛ فتساوقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال سعد: يا رسول الله: ابن أخي قد كان عهد إلي فيه، وقال عبد بن زمعة: أخي وابن وليدة أبي على فراشه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [هو لك يا عبد بن زمعة، الولد للفراش وللعاهر الحجر] ثم قال لسودة بنت زمعة: [احتجبي منه] لما رأى من شبهه بعتبة بن أبي وقاص، قالت: فما رآها حتى لقي الله عز وجل.[(26)]

ووجه الاستدلال بالحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم راعى الحكمَين معًا، أي حكم الفراش قبل وقوع المسألة وحكم الشبه بعد وقوعها. أما مراعاته لحكم الفراش فلإلحاق الولد بصاحبه وهو زمعة، وهو إبقاء الحالة على ما كانت عليه. ومراعاته لحكم الشبه فلأمره صلى الله عليه وسلم زوجه سودة بالاحتجاب من الولد المُلحق به.

ومنها: أن مراعاة الخلاف بعد وقوعه إبقاء للحالة على ما وقعت عليه، وهذا أولى من إزالتها على وجه يؤدي إلى ضرر أشد عليه من مقتضى النهي، فيترك وما فعل من ذلك، أو نجيز له ما وقع من الفساد على وجه يليق بالعدل، فيرجع الأمر إلى أن النهي كان دليله أقوى قبل الوقوع، ودليل الجواز أقوى بعد الوقوع، لما اقترن من القرائن المرجحة. واستشهد الشاطبي على هذا الاستدلال بحديث ترك تأسيس البيت على قواعد إبراهيم،[(27)] وحديث ترك قتل المنافقين،[(28)] لما يترتب عليه من التنفير عن الدخول في الإسلام في كلتا الحالتين. وحديث الأعرابي الذي بال في المسجد، لما يترتب على ذلك من تنجيس ثيابه وأماكن أخرى في المسجد، واحتباس البول مما قد يتأذى منه.[(29)]

فيرجع جميع ذلك إلى أن ترك المأذون فيه جائز؛ لما سيترتب على تغييره من مفسدة توازي مفسدة النهي أو تزيد.

ومنها: إلحاق قاعدة "مراعاة الخلاف" بقاعدة "الاستحسان"؛ لأن الأول نوع من الأخير، إذ أن الاستحسان –كما قال الشاطبي- هو الأخذ بمصلحة جزئية في مقابلة دليل كلي. ومقتضاه الرجوع إلى تقديم الاستدلال المرسل –الاستحسان- على القياس، فإن من استحسن لم يرجع إلى مجرد ذوقه وتشهّيه، وإنما رجع إلى ما عُلم من قصد الشارع في الجملة.. كالمسائل التي يقتضي القياس فيها أمرًا إلا أن ذلك الأمر يؤدي إلى فوت مصلحة من جهة أخرى، أو جلب مفسدة كذلك.((30))

فكذلك المجتهد العامل بمراعاة الخلاف، لم يكن عن مجرد التشهّي والهوى، وإنما رعى قوة دليل المخالف ووجاهته، وما يترتب على مقتضى مدلولها من رفع الضرر والحرج، وما يتحقق من قصد الشارع، لأن مقتضى دليل مخالفه يحقق مصلحة أقوى مما يتحقق من مقتضى مدلوله، أو يدفع مفسدة أشد مما يندفع من لازم مدلوله، وذلك بعد النظر في المآل والعمل بقواعد الترجيح المقررة عند المجتهدين. وهذا المنهج الذي أصّله الشاطبي بقاعدة: " إن الأصل إذا أدى بحمله على عمومه إلى الحرج أو إلى ما لا يمكن عقلا أو شرعا، فهو غير جار على استقامة ولا اطّراد فلا يستمر الإطلاق ".((31))

وبعد بيان حالتي مراعاة الخلاف، فإن أغلب فقهاء المذهب المجوّزين لمراعاة الخلاف أخذوا بمطلق مراعاة الخلاف إذا كان صحيحًا قويَّ المأخذ، دون اقتصار على حالة دون أخرى،((32)) ولكن كونها بعد الوقوع هو المراد في المذهب عند الإطلاق، وهي التي قصدها المالكية بالتعريف والاستدلال، حتى أصبحت أصلا قائما بذاته، والقصد منها التيسير ورفع الحرج. أما مراعاة الخلاف قبل وقوعه قد راعوه كذلك، والقصد منه الاحتياط والورع،((33)) أو التوقي والاحتراز، وأحيانا يطلقون عليه لقب "الخروج من الخلاف".((34))

العلاقة بين قاعدة "مراعاة الخلاف" وبين قاعدة: "الخروج من الخلاف"

إن المراد بقاعدة "الخروج من الخلاف" هو: "إعمال المجتهد بدليل خصمه المجتهد المخالف له في لازم مدلوله. والمقصود به إتيان ما هو أحوط للدين في مسألة –اجتهادية- اختلف فيها أنظار الفقهاء واجتهاداتهم".((35)) أي أنه عند وجود الاختلاف في مسألة اجتهادية يُستحب أن يخرج المكلف من الخلاف بفعل ما هو أحوط لدينه؛ لأن ذلك أولى وأفضل. وهي قاعدة جليلة اعتبرها جمهور الفقهاء من جميع المذاهب الفقهية الأربعة،((36)) وغالبا ما يكون اعتبارها قبل وقوع الفعل، والقصد منها الاحتياط والاحتراز من الوقوع في محظور.

ذكر القرافي صورها، منها: إذا اختلف العلماء في فعل شيء: هل هو مباح أو حرام؟ فالورع الترك، أو هو مباح أو واجب؟ فالورع الفعل مع اعتقاد الوجوب حتى يجزي عن الواجب على

المذهب. وإن اختلفوا هل هو مندوب أو حرام؟ فالورع الترك، أو هو مكروه أو واجب؟ فالورع الفعل حذرًا من العقاب في ترك الواجب وفعل المكروه لا يضره. وإن اختلفوا هل هو مشروع أو غير مشروع؟ فالورع الفعل، لأن القائل بالمشروعية مثبت لأمر لم يطلع عليه النافي. وإن اختلفوا هل هو حرام أو واجب، فالعقاب متوقع على كل تقدير، فلا ورع إلا أن نقول: إن المحرم إذا عارضه الواجب قُدّم على الواجب، لأن رعاية درء المفاسد أولى من رعاية حصول المصالح.((37))

ومن أمثلتها اختلاف العلماء في مشروعية الفاتحة في صلاة الجنازة، فمالك يقول: ليست بمشروعة، والشافعي يقول: هي مشروعة وواجبة، فالورع الفعل لتيقّن الخلوص من إثم ترك الواجب على مذهبه. وبقراءة البسمة في الصلاة، قال مالك: هي في الصلاة مكروهة، وقال الشافعي: هي واجبة، فالورع الفعل للخروج من عهدة ترك الواجب.((38))

وكان الإمام مالك يفعل شيئا في خاصة نفسه أحيانا، دون أن يفتي به؛ لأن ذلك مخالف لاجتهاده، وإنما فعله مراعاة للخلاف. قال ابن وهب: صليت مع مالك في بيته فرأيته يرفع يديه في أول ركعة وكان إذا ركع وإذا رفع رأسه من الركوع رفع يديه حذو منكبيه، وكان يقول: " وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين". ولما سُئل عن ذلك قال: أكره أن أحمل الجاهل على ذلك فيقول إنه من فرض الصلاة.((39)) وهذا دليل على أن الإمام مالكًا ندب دعاء الاستفتاح، وراعاه خروجا من الخلاف.

كما أنه جاء في فتاوى علماء المالكية الذين راعوا الخلاف قبل الوقوع قولَهم: كُره للخلاف، أو جاز للخلاف، أو مراعاة للخلاف، وغيرها من الألفاظ التي تدلّ على مراعاة الخلاف قبل الوقوع.((40)) مثال ذلك قول ابن رشد في الإناء الذي ولغ فيه الكلب: "ولا ينبغي الوضوء به إذا وُجد غيره مراعاة للخلاف في النجاسة. وكذلك لا ينبغي أن يغسل الإناء به إذا وُجد غيره **مراعاة للخلاف**".((41)) وقال أيضا في قول ابن القاسم عن من حبس عن أولاده الذكور دون الإناث: " فرأى للمحبس ما لم يحز الحبس أن يبطل والحبس ويُدخل الإناث فيه ظاهر قوله وإن كره ذلك المحبّس عليهم **مراعاة لقول من يقول** إن الصدقات والهبات والأحباس لا تلزم ولا يجب الحكم بها حتى تُقبض".((42))

وفائدة "الخروج من الخلاف" كما قال القرافي هي: " الجمع بين أدلة المختلفين، والعمل بمقتضى كل دليل، فلا يبقى في النفس توهم أنه قد أهمل دليلا لعل مقتضاه هو الصحيح، فبالجمع ينتفي ذلك".((43))

وأما التفريق بين القاعدتين إنما أثاره العلماء المعاصرون عند محاولتهم توضيح موقع مذهب المالكية في اعتبار الخلاف قبل وقوع النازلة وبعده. فذهب بعضهم إلى أنه لا فرق بين القاعدتين، لا في الحدّ ولا في المعنى؛ لأن "الخروج من الخلاف فرع من مراعاة الخلاف، فكلتاهما لها صلة بمبدأ "النظر في المآل"، فتدخل ضمن "مراعاة الخلاف" حدًّا ومعنًى، غير أنه قبل الفعل يكون بداعي

الورع والاحتياط، وأما بعده فيكون بداعي التيسير ورفع الحرج،[(44)] وبعد وقوع الفعل يقصدون به "مراعاة الخلاف" مطلقا، وأما قبل الوقوع فأحيانا يقصدون به "الخروج من الخلاف"، كما هو عند الجمهور.

ضوابط اعتبار مراعاة الخلاف

إن العمل بمراعاة الخلاف ليس مطلقا دون اعتبارات أخرى، فلو كان كذلك لما كان للاجتهاد الصحيح حُرمة أو دور، ولهذا وضع أهل العلم ضوابط مُحكمة تميّز الخلاف المعتبر من غيره حتى يكون تطبيق هذه القاعدة على الوجه الشرعي الصحيح.

- **الأول:** أن يكون مأخذ المخالف الذي ذهب إليه قويًّا، ولم يكن هفوةً أو واهيًا أو شاذًّا،[(45)] وهذا الشرط هو عمدة الشروط ولبّها، ونصّ عليه عدد من العلماء، وإن اختلفت عباراتهم في التعبير عنه، لأن الدليل الضعيف فقدَ أهلية مراعاته، وأصبح بناء القول عليه معدودا من الهفوات، كأن يقرّر نقيض ما ثبت بأدلة شرعية دون أن يكون له مسند شرعي يصحّ الاستدلال به، أو يجيء على نحو مخالف لما اجتمعت عليه كلمة المجتهدين وتظاهرت عليه.
- مثال ذلك ما يُروى عن أبي حنيفة أنه ذهب إلى بطلان الصلاة برفع اليدين، لأن رفع اليدين حتى وإن لم يثبت فيه دليل صحيح فليس من جنس ما يبطل الصلاة من الحركات الخارجية، فكيف وقد ثبتت مشروعيته بأدلة صحيحة بلغت من الكثرة حدًّا لا يمكن إنكارها.[(46)] وكالصوم في السفر أفضل لمن قوي عليه، ولم يبال بقول داود الظاهري إنه لا يصح.[(47)]
- **الثاني:** ألا يفضي رعي الخلاف إلى خرق الإجماع، بأن يكون الحكم الذي روعي فيه الخلاف قد لفّق تلفيقا لا يقرّه أحد من أهل العلم؛ كمن تزوج بغير وليّ ولا شهود بأقل من ربع درهم، مقلّدا أبا حنيفة في عدم الولي، ومالكا في عدم الشهود، والشافعي في أقل من ربع درهم، فإن هذا النكاح إذا عرض على الحنفي لا يقول به، وكذلك الشافعي والمالكي وغيرهما، فيجب فسخه أبدا.[(48)] ومنها ما يُروى عن أبي العباس ابن سريج من أنه كان يغسل أذنيه مع الوجه في الوضوء ثلاثا، ويمسحهما مع الرأس، ويفردهما بالغسل ثلاثا، مراعاة لمن قال إنهما من الوجه، ولمن قال إنهما من الرأس، ولمن قال إنهما عضوان مستقلان.[(49)]
- **الثالث:** أن يكون الجمع بين المذاهب ممكنا، فإن لم يكن كذلك، فلا يترك الراجح عند معتقده لمراعاة المرجوح، لأنه يجب عليه إتباع ما غلب على ظنه، ويحرم عليه العدول عنه.[(50)] مثاله: ما يروى عن أبي حنيفة في اشتراط المصر لصحة انعقاد الجمعة، لا يمكن مراعاته عند من يقول أن أهل القرى إذا بلغت العدد الذي ينعقد به الجمعة لزمتهم، ولا يجزيهم الظهر، فلا يمكن الجمع بين القولين.[(51)] ومنها أن من تقدّم الإمام بقراءة الفاتحة

وجب عليه إعادتها عند الشافعية، فإن القائل بهذا الوجه، لا يمكن معه مراعاة القائل بأن تكرار الفاتحة مرتين مبطل، إلا أن يخصّ البطلان بغير العذر.[(52)]

- **الرابع:** أن لا يوقع الخروج من الخلاف في خلاف آخر، لأنه لا يحصل بذلك الخروج من الخلاف مطلقا،[(53)] ومثاله: أن الحنفية يرون أن صلاة الوتر ثلاث ركعات لا يفصل بينها بسلام، والجمهور على أن له أن يفصل، وذهب الشافعية إلى أن الفصل مكروه؛ مراعاة لخلاف الحنفية، فاستحبوا له أن يصل الركعات الثلاث. إلا أنه لو رُوعي هذا الخلاف لأوقع في خلاف آخر؛ وهو قول بعض الشافعية بعدم جواز الوصل، وليس الاحتياط بالخروج من خلاف أولئك بأولى من الخروج من خلاف هؤلاء.[(54)]
- **الخامس:** أن تكون مراعاة الخلاف تحقق مصلحة أو تدفع ضررا متوقعًا، وذلك إذا كانت المسألة بعد الوقوع، لأن في العمل بالقول الراجح ضررًا بالغًا واقعًا على المكلف فيجب إزالته، أو يفوّته مصلحة كبيرة فيجب تحقيقها، فيكون الأخذ بمراعاة الخلاف بعد الوقوع عملا بالقول الراجح، والعمل بالراجح مشروع، والعمل بغيره خروج عن مقتضى الشرع، وأينما تتحقق المصلحة فثَمّ حكم الله تعالى.[(55)]

توظيف مراعاة الخلاف في العمل الدعوي

إن رعي خلاف العلماء أداة لو أُحسن توظيفها ستضيق دائرة الخلاف وحسم أسباب الفرقة بين العلماء، وتقليل مسائل الخلاف بين الاجتهادات المتباينة والمذاهب الفقهية، والتقارب فيما بينها، وتأليف القلوب. قال الندوي حول هذه القاعدة: " هذه قاعدة مهمة ينبغي التمسك بها، لأن مآلها الاحتياط في الدين وجلب المحبة والتأليف بين القلوب عن طريق نبذ الخلاف في مسائل الخَطْب فيها يسير ".[(56)]

ولهذا ينبغي للداعي إلى الله تعالى والمفتي أن يلتزم الأمور التالية، لضمان وحدة العمل الإسلامي ونجاحه، وتحقيق ربط الأخوة بين أفراد الأمة الإسلامية:

- **أولا:** الاعتراف بالخلاف، فعلى الداعي والمفتي أن يعلم أن الخلاف سنة كونية وحكمة إلهية، فلا يزال الناس مختلفين إلى قيام الساعة، بل عليه أن ينصف في طلب الحق ولو على لسان خصمه، وألا يميل عن الحق إلى اتباع الهوى بدافع التعصب أو الرياء. وليستثمر الخلاف في تحقيق تكامل المسلمين ووحدة الأمة وأمنها واستقرارها، ما لم يكن اختلاف تضاد، أو مشوبا بالهوى والأنانية.
- **ثانيا:** مراعاة مذهب كل بلد تُقصد فيه الدعوة، فالبلد التي استقر فيها العمل بمذهب من مذاهب الفقهاء المعتبرين، أو بقول من الاجتهاد السائغ المعتبر؛ لا يصح أن يأتي برأي أو بفتوى يُشغل أهله وعلماءه، ويثير بينهم التفرق، ويشوّش على العوام، فكل بلد أدرى بأحوال أهله

وما يصلحهم. فكما كتب لبعض المذاهب الفقهية البقاء إلى يوم الناس هذا، كذلك قدّر التزام أهل كل بلد أو إقليم بمذهب إمام معيّن، والعمل باجتهاداته وآرائه في جميع معاملاتهم.

- **ثالثا:** الاعتراف بالآخر المخالف، وأن من حقه الوجود والاستمرار في الواقع، وإن محاولة تغيير هذا الواقع مدعاة للتفرق والفتن. وقد أعطى الإمام مالك مثلا رائعا يقتدى به فيه، وذلك لما أراد أبو جعفر المنصور أن يحمل الناس في جميع الأنصار على كتاب الموطأ رفض الإمام مالك هذه الفكرة، وردّ قائلا: يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وعملوا به ودانوا به من اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم، وإن ردّهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم.((57)) ما أراد الإمام مالك في هذه الحادثة القضاء على الاختلاف، ولكن أراد استثماره لتحقيق تكامل المسلمين، وإثراء الفقه الإسلامي.
- **رابعا:** أن يتحرز غاية التحرز في الخروج من الخلاف في المسائل الاجتهادية، وأن يسلك طريق الاحتياط في فتواه وعمله، إلا إذا كان الخلاف ضعيفا جدا لا ينظر إليه، وليس له حظ من النظر، هذا في ابتداء الأمر، وفي الأمر الذي يمكن تلاقيه.
- **خامسا:** أن لا يصوّب أحدٌ سهام التهمة بالخطأ إلى قول غيره ويحتكر الحق في قوله فقط، في المسائل الخلافية أو الاجتهادية، ما دام لرأي غيره مخرج في المسألة.
- **سادسا:** أن لا يتهم أحدا من العلماء في عدالة من أجل تأويله في مسألة، كأن يصفخ بفسق أو كفر أو نحو ذلك؛ لأن ذلك مدعاة للعداوة والبغضاء بين المسلمين، فقد صلّى ابن مسعود خلف عثمان بن عفان لما أتمّ الصلاة بمنى متأوّلا، مع أن ابن مسعود قد أنكر له ذلك، وقال مقولته المشهورة: " الخلاف شر". وكان الإمام أحمد رحمه الله تعالى يرى الوضوء من الرعاف والحجامة، فقيل له: فإن كان الإمام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ، هل تصلي خلفه؟ فقال: كيف لا أصلّي خلف الإمام مالك وسعيد بن المسيّب.((58)) فإن إجابة الإمام أحمد على هذا السؤال بصيغة الاستفهام التقريري دلالة على الطريق الذي كان سيتصرف به لو وقعت النازلة على الصورة المذكورة. فإننا سنتعامل بها كما لو وقعت النازلة.
- **سابعا:** عدم الاستهانة بجهد الآخرين أو التقليل من شأنه، وخاصّة إذا كان صادرًا من عالم، فكلٌّ يقوم بما يستطيع القيام به، وجهده سيصد ثغرة كبيرة في العمل الإسلامي، فالمدرّس يقوم بتعليم الناس الخير، ويصدّ حاجة المسلمين في هذا المجال، والطبيب يقوم بمعالجة المرضى، ليصدّ حاجتهم في هذه الناحية.. وهكذا كلٌّ ميسّر لما خُلق له.

الخاتمة

بعد هذه المسيرة البحثية توصلت هذه الدراسة إلى عدة نتائج، فيما يلي أهمها:

إن أصول المذهب المالكي الاجتهادية، والقواعد المستخرجة منها، والمسائل الفرعية المستنبطة منها، دعامتها مبنية على مراعاة المصلحة أو دفع مفسدة. وإن مراعاة الخلاف مظهر من مظاهر المرونة والموضوعية، وتجلّ من تجليات سعة الأفق الفقهي والأصولي للفقه المالكي، الأمر الذي جعل كثيرا من الفقهاء يلجأون إليه، إيمانا منهم لصلاحيته وقربه من حياة الناس وواقعهم. وإن أئمة الفقه قد وظّفوا قاعدة "مراعاة الخلاف" في تضييق هوّة الاختلاف بين المسلمين، وفتح قنوات الاتصال والتقارب بين المذاهب الفقهية، الأمر الذي يؤدي إلى إثراء الفقه الإسلامي. وإن القصد الشرعي لمراعاة الخلاف هو تحقيق المصلحة عن طريق تخفيف الضرورة ورفع الحرج عن الناس، والاحتياط والورع في براءة الذمة. ويمكن توظيف قاعدة مراعاة الخلاف في العمل الدعوي، وذلك بنبذ التعصّب والأنانية، والاعتراف بالخلاف على أنه سنة كونية لحكمة أرادها الله تعالى، والتحرز في الخروج من الخلاف مهما وُجد إلى ذلك سبيلا.

المصادر والمراجع

ابن رشد، أبو الوليد القرطبي، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة، تحقيق: أحمد الشرقاوي إقبال، (دار الغرب الإسلامي- بيروت، 1408هـ - 1988م)

(---) المقدمات الممهدات، تحقيق: محمد حجّي، (دار الغرب الإسلامي- بيروت، 1408هـ)

(---) بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تحقيق: ماجد الحموي، (دار ابن حزم- بيروت، 1416هـ- 1995م)

ابن عبد البر، أبو عمر يوسف، الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، القاهرة- مكتبة القدسي، ت: 1350هـ

ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، (دار إحياء التراث العربي- بيروت، 1422هـ - 2001م)

ابن فرحون، إبراهيم بن علي، كشف النقاب الحاجب عن مصطلح ابن الحاجب، تحقيق: حمزة أبو فارس وآخر، (دار الغرب الإسلامي- بيروت، 1990م)

ابن مختار، أحمد وفاق، مقاصد الشريعة عند الإمام الشافعي، (دار السلام- القاهرة، 2014م)

ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخران، (دار المعارف- القاهرة)

الدهلوي، ولي الله، الإنصاف في بيان أسباب الخلاف، بيروت- دار النفائس، 1403هـ- 1983م

باي، حاتم، الأصول الاجتهادية التي يبنى عليها المذهب المالكي، (وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- الكويت، 1432هـ)

البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، (دار السلفية- القاهرة، 1400هـ)

البورنو، محمد صدقي بن أحمد، وآخر، موسوعة القواعد الفقهية، (دار ابن حزم- بيروت، 1421هـ - 2000م

الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، (مكتبة المعارف- الرياض)

دوش، عبد الحميد، قاعدة مراعاة الخلاف وأثرها في فقه النوازل عند المالكية، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير من قسم الشريعة بجامعة الشهيد حمه لخضر- الجزائر، 1442هـ - 2021م

الرصاع، أبو عبد الله محمد الأنصاري، الشافية الكافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية، تحقيق: محمد أبو الأجفان وغيره، (دار الغرب الإسلامي- بيروت، 1993م)

الريسوني، قطب، التيسير الفقهي مشروعيته وضوابطه وعوائده، (دار ابن حرم- بيروت، 1428هـ - 2007م)

الزركشي، بدر الدين محمد، المنثور في القواعد، تحقيق: تيسير فائق أحمد (شركة دار الكويت للصحافة- الكويت، 1405هـ)

السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، (مكتبة المعارف- الرياض)

السنوسي، عبد الرحمن بن معمّر، اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات، (دار ابن الجوزي- الدمام، 1424هـ

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، (مكتبة نزار مصطفى الباز- الرياض، 1997م)

الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي، الاعتصام، (دار ابن حزم- بيروت، 2012م)

(---) الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبد الله الدراز، (دار الكتب العلمية- بيروت، 2002م)

شقرون، محمد أحمد، مراعاة الخلاف عند المالكية وأثره في الفروع الفقهية، (دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث- دبي، 1423هـ - 2002م)

الشنقيطي، محمد يحيى بن محمد المختار، إيصال السالك في أصول الإمام مالك، ضمن مجموعة كتب سمّيت بخزانة المذهب المالكي، (دار ابن حزم- بيروت، 2006م)

صالح بن عبد العزيز بن عمثان سندي، مراعاة الخلاف في الفقه تأصيلا وتطبيقا، قسم أصول الفقه بجماعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، رسالة الماجستير، 1419هـ، مقدمة إلى قسم أصول الفقه

الصيادي، عبد الغفور محمد، مراعاة الخلاف والخروج منه في أصول المالكية، (دار ابن حزم- بيروت، 1429هـ- 2008م)

العسري، محمد نصيف، الفكر المقاصدي عند الإمام مالك، (دار الحديث- القاهرة، 2008م)

الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، المصباح المنير، (دار الحديث- القاهرة، 1421هـ- 2000م

القرافي، شهاب الدين أحمد بن إدريس، الفروق، تحقيق، عمر حسن القيّام، (مؤسسة الرسالة- بيروت)

الكيلاني، عبد الرحمن إبراهيم، قواعد المقاصد عند الإمام الشاطبي عرضا ودراسة وتحليلا، (دار الفكر- دمشق، 2000م

محمد، أحمد القياتي، مقاصد الشريعة عند الإمام مالك بين النظرية والتطبيق، (دار السلام- القاهرة، 2012م

المشاط، حسن بن محمد، الجواهر الثمينة في بيان أدلة عالم المدينة، (دار الغرب الإسلامي، 1990م)

الندوي، علي أحمد، القواعد الفقهية مفهومها، نشأتها، تطورها، دراسة مؤلفاتها، أدلتها، مهمتها، (دار القلم- دمشق، 2007م)

النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، الرياض، (دار طيبة، 1427هـ- 2006م)

الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، (دار الغرب الإسلامي- بيروت، 1401هـ- 1981م)

(---) إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام أبي عبد الله مالك، تحقيق: الصادق بن عبد الرحمن الغرياني، (دار ابن حزم- بيروت، 1427هـ- 2006م)

الهوامش:

[(1)] - البخاري، صحيح البخاري (892/284/1). مسلم، صحيح مسلم (1829/886)

[(2)] - ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، دار إحياء التراث العربي- بيروت، 1422هـ- 2001م، ص: 389. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيّد كيلاني، بيروت- دار المعرفة، ص: 198. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخران، القاهرة- دار المعارف، ص: 1677

[(3)] - شقرون، محمد أحمد، مراعاة الخلاف عند المالكية وأثره في الفروع الفقهية، محمد أحمد، دبي- دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، 1423هـ- 2002م ص: 43

[(4)] - ابن فارس، المصدر السابق، ص: 309- 310

[(5)] - شقرون، المصدر السابق، ص: 34. سندي، صالح بن عبد العزيز، مراعاة الخلاف في الفقه تأصيلا وتطبيقا، قسم أصول الفقه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، رسالة الماجستير، 1419هـ، مقدمة إلى قسم أصول الفقه ص: 28. الصيادي، عبد الغفور محمد، مراعاة الخلاف والخروج منه في أصول المالكية، دار ابن حزم- بيروت، 1429هـ - 2008م ص: 21

[(6)] - الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، المصباح المنير، القاهرة- دار الحديث، 1421هـ - 2000م، ص: 110

[(7)] - ابن منظور، المصدر السابق، ص: 1239

[(8)] - الصيادي، المصدر السابق، ص: 23

[(9)] - الرصاع، أبو عبد الله محمد الأنصاري، الشافية الكافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية، تحقيق: محمد أبو الأجفان وغيره، بيروت- دار الغرب الإسلامي، 1993م، ص: 263. الونشريسي، أحمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، دار الغرب الإسلامي- بيروت، 1401هـ - 1981م، ج: 6، ص: 377

[(10)] - الشنقيطي، محمد يحيى بن محمد المختار، إيصال السالك في أصول الإمام مالك، ضمن مجموعة كتب سمّيت بخزانة المذهب المالكي، بيروت- دار ابن حزم، 2006م، ص: 137. بتصرف بسيط. المشاط، الجواهر الثمينة في بيان أدلة عالم المدينة، ص: 235.

[(11)] - الرصّاع، المصدر السابق، ص: 265. المشاط، حسن بن محمد، الجواهر الثمينة في بيان أدلة عالم المدينة، بيروت- دار الغرب الإسلامي، 1990م، ص: 235

[(12)] - الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي، الاعتصام، دار ابن حزم- بيروت، 2012م، ص: 344

[(13)] - ابن رشد، أبو الوليد القرطبي، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة، تحقيق: أحمد الشرقاوي إقبال، بيروت- دار الغرب الإسلامي، 1408هـ - 1988م، ج: 4، ص: 157

[(14)] - ابن مختار، أحمد وفاق، مقاصد الشريعة عند الإمام الشافعي، القاهرة- دار السلام، 2014م، ص: 301. العسري، محمد نصيف، الفكر المقاصدي عند الإمام مالك، القاهرة- دار الحديث، 2008م، ص: 239

[(15)] - باي، حاتم، الأصول الاجتهادية التي يبنى عليها المذهب المالكي، الكويت- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامي، 1432هـ، ص: 600. محمد، أحمد القياتي، مقاصد الشريعة عند الإمام مالك بين النظرية والتطبيق، القاهرة- دار السلام، 2012م، ص: 187

[(16)] - ابن فرحون، إبراهيم بن علي، كشف النقاب الحاجب عن مصطلح ابن الحاجب، تحقيق: حمزة أبو فارس وآخر، بيروت- دار الغرب الإسلامي، 1990م، ص: 63

[(17)] - هكذا في الأصل "حجة"، وهو خطأ، ولعل الصواب "جمّة".

[(18)] - الونشريسي، المعيار المعرب، المصدر السابق، ج: 12، ص: 37. و: ج: 6، ص: 366 - 367

[(19)] - الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبد الله الدراز، بيروت- دار الكتب العلمية، 2002م،ج: 4، ص: 109. السنوسي، عبد الرحمن بن معمّر، اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات، الدمام- دار ابن الجوزي، 1424هـ، ص: 329. سندي، المصدر السابق، ص: 92

[(20)] - السنوسي، المصدر السابق، ص: 329، بتصرف

[(21)] - الريسوني، قطب، التيسير الفقهي مشروعيته وضوابطه وعوائده، بيروت- دار ابن حرم، 1428هـ - 2007م، ص: 123. والسنوسي، المصدر السابق، ص: 328

[(22)] - الترمذي، سنن الترمذي، (1205/287)

[(23)] - أبو داود، سنن أبي داود، (1960/341)

[(24)] - السنوسي، المصدر السابق، ص: 330. بتصرف

[(25)] - الترمذي سنن الترمذي، (1102/260). أبو داود، سنن أبي داود، (2083/361)

((26)) - البخاري، صحيح البخاري، (2745/288/2). مسلم، صحيح مسلم، (1457/666)

((27)) - البخاري، صحيح البخاري، (1583/488/1). مسلم، في صحيح مسلم، (399/604)

((28)) - البخاري، صحيح البخاري، (3518/508/2). مسلم، صحيح مسلم، (2584/1201)

((29)) - البخاري صحيح البخاري، (6025/96/4). مسلم، صحيح مسلم، (284/284). الشاطبي، الموافقات، المصدر السابق، ج: 4، ص: 147-148

((30)) - الشاطبي، الموافقات، المصدر السابق، ج: 4، ص: 149

((31)) - نقلا عن: الكيلاني، عبد الرحمن إبراهيم، قواعد المقاصد عند الإمام الشاطبي عرضا ودراسة وتحليلا، دمشق- دار الفكر، 2000م، ص: 295

((32)) - وممن قال بصحته ابن عبد السلام وابن الحاجب، وممن قال بعدم صحته الشيخ المغربي. الرصاع، المصدر السابق، ص: 263 – 264

((33)) - شقرون، المصدر السابق، ص: 46

((34)) - الونشريسي، المعيار المعرب، المصدر السابق، ج: 6، ص: 379

((35)) - البورنو، محمد صدقي بن أحمد، وآخر، موسوعة القواعد الفقهية، بيروت- دار ابن حزم، 1421هـ - 2000م، ص: 278

((36)) - السيوطي، عبد الرحمن، الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، الرياض- مكتبة نزار مصطفى الباز، 1997م،ج: 1، ص: 221

((37)) - القرافي، أحمد بن إدريس، الفروق، تحقيق، عمر حسن القيّام، بيروت- مؤسسة الرسالة، ج: 4، ص: 319-320

((38)) - القرافي، المصدر السابق، ج: 4، ص: 319-320

((39)) - ابن رشد، البيان والتحصيل، المصدر السابق ج: 1، ص: 413-414

((40)) - ابن فرحون، المصدر السابق، ص: 157

((41)) - ابن رشد، المقدمات الممهدات، المصدر السابق، ج: 1، ص: 91

((42)) - ابن رشد، البيان والتحصيل، المصدر السابق، ج: 12، ص: 205

((43)) - القرافي، المصدر السابق، ج: 4، ص: 323

((44)) - السنوسي، المصدر السابق، ص: 322. دوش، المصدر السابق، ص: 18. وشقرون، المصدر السابق، ص: 46

((45)) - ابن فرحون، المصدر السابق، ص: 63. الونشريسي، المعيار المعرب، المصدر السابق، ج: 12، ص: 37

((46)) - الزركشي، بدر الدين محمد، المنثور في القواعد، تحقيق: تيسير فائق أحمد، الكويت- شركة دار الكويت للصحافة، 1405هـ،ج:2، ص: 129. السنوسي، المصدر السابق، ص: 333

((47)) - السيوطي، المصدر السابق ج: 1، ص: 228

((48)) - المشاط، المصدر السابق، ص: 236

((49)) - الزركشي، المصدر السابق، ج: 2، ص: 131

((50)) - الزركشي، المصدر السابق، ج: 2، ص: 132

((51)) - الزركشي، المصدر السابق، ج: 2، ص: 132

((52)) - الزركشي، المصدر السابق، ج: 2، ص: 132

((53)) - سند، المصدر السابق، ص: 178

((54)) - السيوطي، المصدر السابق، ج: 1، ص: 221

((55)) - استخلص الباحث هذا الشرط من كلام العلماء، ولم يجد من نصّ عليه.

((56)) - الندوي، علي أحمد، القواعد الفقهية مفهومها، نشأتها، تطورها، دراسة مؤلفاتها، أدلتها، مهمتها، دمشق- دار القلم، 2007م، ص: 373

((57)) - ابن عبد البر، أبو عمر يوسف، الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، القاهرة- مكتبة القدسي، ت: 1350هـ، ص: 41

((58)) - الدهلوي، ولي الله، الإنصاف في بيان أسباب الخلاف، بيروت- دار النفائس، 1403هـ - 1983م، ص: 110. ذهب أبو حنيفة وأحمد رحمهما الله إلى أن النجس إذا خرج من أي موضع من الجسد، وعلى أي جهة خرج فهو ناقض للوضوء، وأما مالك رحمه الله فذهب إلى أن كل ما خرج من السبيلَين مما هو معتاد خروجه كالبول والغائط إذا كان خروجه على وجه الصحة فهو ناقض للوضوء، ولم ير الوضوء في الرعاف والحجامة، أو في خروج الدود أو الحصاة من السبيلَين. ينظر: ابن رشد، أبو الوليد القرطبي، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تحقيق: ماجد الحموي، بيروت- دار ابن حزم، 1416هـ- 1995م، ج: 1، ص: 70-71

المباحث العقدية الواردة في قصة نبي الله صالح عليه السلام في القرآن الكريم: جمعا ودراسة

إعداد
عبد الله عثمان عمر
School of Continuing Education (SCE),
Bayero University Kano,
Email: abdallahuu78@gmail.com, Phone number: 2348032077354

مستخلص البحث

إن القصص القرآنية تمثل جزءا كبيرا من القرآن، بل إنها تمثل قرابة الثمانية أجزاء من القرآن الكريم، وفي قصص القرآن الكريم من العبر ما لا يعد كثرة، وخاصة قصص الأنبياء عليهم السلام، فإنها نزلت لإصلاح البشرية جمعاء، وإن في قصص الأنبياء حِكم كثيرة منها، أداء رسالة والتوجيه والإرشاد، موجز مؤثر بليغ عن عقيدة التوحيد، هي العقيدة الخالدة، والعاقبة الحسنى لرسل الله، مع ما لقوا من الشدة والعناء، وفيها بيان لمناهج الأنبياء في الدعوة إلى الله تعالى والتزامهم بها وصبرهم عليها والتأسي بهم فيها وغير ذلك، وعلى الأخص قصة نبي الله صالح عليه السلام وما فيها من الأحكام المختلفة العقدية والفقهية والسلوكية، والهدف من البحث دراستها واستخراجها لمن يستفيد منها، كما أن البحث ينهج إلى تتبع واستقراء الآيات القرآنية ثم استخراج ما فيها من الأحكام العقدية وما فيها من المحاسن، وترسيخها في الأمة للإقتداء والتأسي، والبحث يشتمل على مقدمة ومستخلص وثلاثة مباحث ومطالب تحت كل مبحث وخاتمة وقائمة المصادر والمراجع.

[U1] Comment: هذه العبارة غير مستقيمة

[U2] Comment: ينبغي أن يكون البحث خاصا بالمباحث العقدية دون غيرها من المباحث.
ويلاحظ على هذه العبارة أن المباحث العقدية لا تستنبط، وإنما هي مقررة، وإنما يجمعها الباحث من القصة ويقررها ويدعمها بالأدلة.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

فإن الله تبارك وتعالى أرسل نبيه وخليله محمدا بالحق بشيرًا ونذيرًا بين يدي الساعةِ، ما ترك خيرا يعلمه إلا دل أمته عليه، ولا شرا إلا حذرها منه، والقرآن الكريم كان مليئا بشتى القصص عن الأنبياء، والمؤمنين وبقية عباد الله الصالحين.كما أن فيه قصصا عن الكفار والمفسدين الملحدين المجرمين.قال تعالى: "نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِين" (يوسف: ٣.) أي أحسن الأخبار. والقصص القرآني يمثل جزءا كبيرا من القرآن،

وفي قصص القرآن الكريم من العبر ما لا يعد كثرة، وخاصة قصص الأنبياء، فإنها نزلت لإصلاح البشرية جمعاء. [(1)] قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ (يوسف: ١١١).

ثم إن هذا البحث يعتمد على الآيات القرآنية الواردة خاصة في قصص أنبياء الله،وعلى الأخص نبي الله صالح عليه السلام، ودراسة الأمور العقدية من قصته، وقد قسم الباحث البحث إلى مباحث ومطالب تحت كل مبحث، واللهَ تعالى أسأل أن يوفق الجميع لما يحب ويرضى.

المبحث الأول: التعريف بنبي الله صالح عليه السلام من نشأته إلى الوفاة:

وفيه مطالب:

المطلب الأول: نسبه عليه السلام:

هو صالح بن عبيد ابن أسف بن ماسح ابن عبيد ابن حاذر ابن ثمود بن عامر بن ارم ابن سام بن نوح عليه السلام. [(2)]

المطلب الثاني: فترته التاريخية التقريبية، وبعثته التاريخية، ولقب قومه ومكان بعثته، وذرياته وبعض آثار دلائل نبوته.

إن فترته التاريخية التقريبية، تبدأ من 2150- 2080 ق.م، وبعثته التقريبية 2100م، ولقب قومه قوم ثمود، ومكان بعثته منطقة الحجر، وإن من آثار ودلائل نبوته، أنه أيده الله بالناقة المعجزة قال الله تعالى " هذه ناقة الله....." لكن قومه كذبوه فورا ورموه بالكذب " وفي إذ قيل لهم....." [(3)]

المطلب الثالث: ما ورد من ذكره في القرآن، وعدد مرات ذكره:

ذكر نبي الله صالح عليه السلام في القرآن الكريم (9) مرات وذكرت قصته في (11) سورة من القرآن الكريم، ومواطنها الأعراف 7/73-79 وهود 11/61-68 والحجر15/8084 والشعراء 26/141-159 والنمل27/45-53 وفصلت 41/17/18 والذريات 51/43-45 والنجم53/51 والقمر 54/23-32 والحاقة69/4-5 والشمس91/11-15

المطلب الرابع: ما ورد من ذكره في السنة عن ابن عمر ﷺ:

أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها فقالوا قد عجنا منها واستقينا فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء [(4)] عن سالم بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنهم:أن النبي صلى الله عليه و سلم لما مر بالحجر قال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم. [(5)]

[U3] Comment]: ينبغي أن يكون البحث خاصا بالآيات الواردة في قصة صالح عليه السلام لا في عموم قصص أنبياء الله.
وسبق التنبيه على عبارة "استنباط الأحكام...".

[U4] Comment]: ينبغي ذكر الخطة مفصلة

[U5] Comment]: ينبغي أن يكون هذا المبحث تمهيدا، لأن جميع المطالب تحته لا تدخل في صلب موضوع البحث. فبدلا أن يكون "المبحث الأول" يكون "التمهيد" ثم بعده يليه المبحث الأول.

[U6] Comment]: ينبغي قبل إيراد الأحاديث البدء بتقرير وجيز، كأن يقال: "ورد ذكر نبي الله صالح عليه السلام في السنة، من ذلك ما روي..." ثم يورد الحديث.

[U7] Comment]: كذلك هنا، يقال أيضا: "وروي أيضا"

المطلب الخامس: وفاته عليه السلام.

وتوفي نبي الله الصالح عليه السلام في المكة المكرمة.[(6)]

التعريف بثمود قوم صالح ومكان وجودهم.

إن ثمود قومٌ من العرب العاربة، ويرى بعضهم أنهم بقيةٌ من قوم ثمود، وقيل أنهم بقية من العماليق، ويرى الفريق الرابع أنهم عربٌ جنوبيون هاجروا إلى شمال غرب الجزيرة العربية،والأدلة تؤيد أنهم من القبائل العربية سكنت شمال شبه الجزيرة العربية.[(7)]وينسب قوم صالح إلى جدهم ثمود قال تعالى " وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا" (الأعراف: ٧٣) كانو يسكنون منطقة تقع بين الحجاز وتبوك التي تسمى (الحِجْر) كما سميت سورة القرآن بالحجر، " وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِين"(الحجر: ٨٠) [(8)]وكان رسول الله صلى الله عليه نزل بالحجر عند بيوت ثمود لما كان في غزوة تبوك.

عن بن عمر قال: نزل رسول الله صلى الله عليه و سلم بالناس عام تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستسقى الناس من الآبار التي كان يشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم فأمرهم رسول الله صلى الله عليه و سلم فأهراقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا قال إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم.[(9)]

أما زمن وجودهم فلم أقف على دليل علمي قطعي في التاريخ لزمن وجودهم، لكن يقول بعض المؤرخين أنهم ربما عاشوا منذ أوائل الألف الأولى قبل الميلاد إلى القرن الخامس الميلادي.[(10)]

ويقول د. محمد البيومي "إن الكتابات الثمودية تدل على أن أصحابها في معظمهم كانوا يعرفون القراءة إلى حد ما وأنهم كانو زراعا، وأقرب إلى أهل الحضر منهم إلى أهل الوبر، وأن لهم مواطن استقرار ومعابد، ومن بينهم من اشتغلوا بالتجارة، فضلا عن الصيد الذي مارسه الثموديون، سكان مدين بصفة خاصةٍ.ولا يمتنع أن فريقا منهم كانوا من البدو الرُّحَّل، ومنهم من كان يعمل في تجارة القوافل".[(11)]

وإن ثمود كانوا قوما يعبودن الأصنام، كما بين ذلك القرآن الكريم.منها (صنم وُدّ و جد و هد و شمس و مناف و مناة و اللات) وغيرها.[(12)] وقد أطال الله أعمارهم حتى إن أحدهم كان يبني بيته من المدرِ، فينهدم وهو حيٌ، فلما رأو ذلك اتخذوا من الجبال بيوتا فارهين فنحتوها، " وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِين"(الحجر: ٨٢) وكانوا في سعة من العيش.([(13)])

وأما القرآن الكريم فلم يبن مساكن ثمود، إلا أنه قد يستنبط من قوله تعالى " وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَاد"(الفجر: ٩) أنهم يسكنون الجبال أو هضاب صخريةٍ. والله أعلم.

[U8 Comment]: هذا المكان لا يناسب هذا المطلب، وإنما مكانه "التمهيد". فينبغي أن يعقد مبحثا للتمهيد، فيكون قبل المباحث التي هي في صلب موضوع البحث، فتذكر التعريفات وكل ما ينبغي ذكره وليس من صلب البحث في "التمهيد". فيكون مكونات البحيث كالتالي: المقدمة، التمهيد، المبحثان أو ثلاثة مباحث، الخاتمة... وهكذا. ففي التمهيد تذكر التعريفات وما له علاقة بالبحث لكنه لم يكن من صلبه، وتكون المباحث خاصة بدراسة صلب الموضوع.

المبحث الثاني: المسائل العقدية من قصة نبي الله صالح عليه السلام في القرآن الكريم

وفيه مطالب:

[U9 Comment]: هذا العنوان عنوان عام، فلا فرق بينه وبين عنوان البحث، فلا بد من عنوان خاص ينص على محتوى المبحث.

المطلب الأول: عداوة المشركين بدعوة الأنبياء:

إن المشركين يستنكرون ما هو واجب وحق عليهم، وقوم صالح يدهشون أن يدعوهم أخوهم صالح إلى عبادة الله وحده، بدون حجة ولا برهان، هكذا كانت عداوة المشركين لدعوة الأنبياء قاطبة. ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ، فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف: ٧٥ – ٧٧).

قال أولئك المستكبرون، إنا جاحدون منكرون للذى آمنتم به،وهو ما يدعو إليه صالح من الوحدانية. وَلجَّ العِناد بأولئك المستكبرين، فتحدّوا الله ورسوله،وذبحوا الناقةَ، وتجاوزوا الحدّ فى استكبارِهم، وأعرضُوا عن أمر ربهم، وقالوا يا صالح، ائتنا بالعذاب الذى وعدتنا إن كنت ممن أرسلهم الله حقاً. فأخذتهم الزلازِلُ الشديدة، فأصبحوا فى دارهم ميتين خامدين.((14))

فآمن المستضعفون من قومه وكذب به المستكبرون وحاول الطغاة إرجاع المستضعفين عن إيمانهم وتشكيكهم في صحة عقيدتهم، وأسر المشركون على عنادهم وعتوهم عداوة لصالح عليه السلام، فاشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة، فاستحبوا العمى على الهدى. ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (فصلت: ١٧)

ومما يدل على عداوة المشركين بالرسل تكذيبهم إياهم، فإن ثمود قامت بتحدي أوامر الله واعتدت على الناقة البريئة. ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف: ٧٧)

قال ابن عاشور رحمه الله: وَصَمَّمُوا عَلَيْهِ، وَعَجَزُوا عَنِ الْمُحَاجَّةِ وَالِاسْتِدْلَالِ، فَعَزَمُوا عَلَى الْمَصِيرِ إِلَى النِّكَايَةِ وَالْإِغَاظَةِ لِصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَنْ آمَنَ بِهِ، وَرَسَمُوا لِابْتِدَاءِ عَمَلِهِمْ أَنْ يَعْتَدُوا عَلَى النَّاقَةِ الَّتِي جَعَلَهَا صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ، وَأَقَامَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَلَامَةَ مُوَادَعَةٍ مَا دَامُوا غَيْرَ مُتَعَرِّضِينَ لَهَا بِسُوءٍ، وَمَقْصِدُهُمْ مِنْ نِيَّتِهِمْ إِهْلَاكُ النَّاقَةِ أَنْ يُزِيلُوا آيَةَ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِئَلَّا يَزِيدَ عَدَدُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، لِأَنَّ مُشَاهَدَةَ آيَةِ نُبُوءَتِهِ سَالِمَةً بَيْنَهُمْ تُثِيرُ فِي نُفُوسِ كَثِيرٍ مِنْهُمُ الِاسْتِدْلَالَ عَلَى صِدْقِهِ وَالِاسْتِئْنَاسَ لِذَلِكَ بِسُكُوتِ كُبَرَائِهِمْ وَتَقْرِيرِهِمْ لَهَا عَلَى مَرْعَاهَا وَشُرْبِهَا، وَلِأَنَّ فِي اعْتِدَائِهِمْ عَلَيْهَا إِيذَانًا مِنْهُم بتحفزهم للإضرار بِصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِمَنْ آمَنَ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَلِيُرُوا صَالِحًا عَلَيْهِ السّلام أنّهم مستخفّون بِوَعِيدِهِ إِذْ قَالَ لَهُمْ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ

جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الأعراف: ٧٣) ([15]) وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾" (الشعراء: ١٤١ - ١٤٣)

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "كذبوا صالحا عليه السلام، الذي جاء بالتوحيد، الذي دعت إليه المرسلون، فكان تكذيبهم له تكذيبا للجميع." ([16])

وبالرغم من تلطف نبي الله صالح في وعظه وكلامه وجداله مع قومه لم يكتموا عداوتهم الحاقدة عليه،" قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ، مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُوم "(الشعراء: ١٥٣ – ١٥٥) يعني أنت من الذين سحروا حتى غلبوا على عقولهم وأنت بشرٌ مثلنا فكيف تكون نبينا، كيف أوحي إليك دوننا، كما قالوا: ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ، سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ (القمر: ٢٥ – ٢٦) ومن عداوتهم لأنبياء الله إقترحوا بأن يأتيهم بآية ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم، فطلبوا منه أن يخرج لهم من الصخرة ناقةً عُشراء، من صفتها كذا وكذا، ليبينوا عجزه أمام الملإ ليكفروا به.

المطلب الثاني: معجزة صالح عليه السلام

إن ثمود قوم فَسَقَةٌ فجَرَةٌ اشتهروا بالعُتوّ والعِنادِ والفساد على نبي الله صالح عليه الصلاة والسلام، تحدوه بأن يأتيهم بآية واقترحوا عليه أن يخرج لهم من صخرة صمّاء عيونا منفردة في ناحية الحجر، وناقة عُشراء تمخضوا أخذوا عليه الميثاق لئن أجالبهم الله ليؤمنن به وليصدقنه.

فقام نبي الله صالح بالدعاء والصلاة واستجاب الله دعوته، أقامت الناقة وفصيلها بين أظهرهم مدةً تشرب من بئرها يوما وتدعه لهم يوما، ويشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها. قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَر﴾ (القمر: ٢٨) وقال الله تعالى: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الشعراء: ١٥٥ – ١٥٦) ومع ذلك كذبوا، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا، وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (الشمس: ١٤ - ١٥) ([17]).

جاء في المسند للإمام أحمد:عن جابرٍ ﷺ قال: قال عليه الصلاة والسلام، لا تسألوا نبيكم الآيات فقد سألها قوم صالح وكانت الناقة ترد من هذ الفجّ وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها فأخذتهم الصيحة فأهمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلا واحدا كان في حرم الله قالوا من هو يا رسول الله قال أبو رِغالٍ فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه.[(18)]

وأعظم معجزة صالح هي الناقة، لذا جاء ذكرها في آيات عديدة من القرآن الكريم.، وان من معجزات صالح عليه السلام، الناقةُ التي سأله قومه أن يأتيهم بها، قال الله تعالى " وَمَا مَنَعَنَا أَنْ

[U10 Comment]: المعجزة من مباحث العقيدة، فلو أن الباحث درس مسألة المعجزة - التي وردت تسميتها في القرآن باسم الآيات ونحوها – لأتى بالمطلوب، لأن المعجزة تدل على وجود الله تعالى ووحدانيته وألوهيته، قبل أن تدل على صدق الرسول، فهي من دلائل الإيمان بالله. فيتناولها الباحث بالدراسة في باب الإيمان بالله، ثم في باب الإيمان بالرسل، فيقرر بها صدق الرسل من خلال دلالة المعجزة، مع إثبات رسالة نبي الله صالح عليه السلام.

نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا "(الإسراء: ٥٩) وقد ورد ذكر هذه الناقة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها سورة الأعراف آية 73-77 وسورة القمر آية 27-99 وسورة الآسراء آية 59. فلما عاينوها ورأو أمرا عظيما ومنظرا هائلا وقدرة باهرة ودليلا قاطعا وبرهانا ساطعا آمن بعضهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم.

وسميت هذه الناقة، ناقة الله تشريفا لها وتعظيما لشأنها، وافترض حكم الله على أن تبقى بين أظهرهم ترعى حيث شائت من أرضهم ونرد الماء يوما بعد يومٍ. فما ظلت عليهم هذه الحال اجتمع ملؤهم واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة." فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ"(الأعراف: ٧٧) ومتعهم الله تعالى بعد عقرهم الناقة ثلاثة أيامٍ،" فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ "(هود: ٦٥)

فلما عتو واعتدوا جاء امر الله باهلاكهم " فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا "(الشمس: ١٤) وزلزل الأرض تحت أقدامهم فأخذتهم الرجفة وأرسل عليهم صيحة طاغية وانزل عليهم صائقة من السماء فأهرقتهم،" وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ"(الذاريات: ٤٣ – ٤٥) وقد دمَّرت الصائقة بيوتهم وهدمت حضاراتهم ليكونوا عبرة للمعتبرين.([19]) ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ، فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (النمل: ٥١ – ٥٣)

وأنج الله تعالى نبيه ودعوة الحق وأهلك الذين ظلموا، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ، وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ، كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾(هود: ٦٦ – ٦٨)

معلوم أن الذي عقر الناقة واحدٌ منهم، لكن الله تعالى عممهم بالعذاب لأنهم لم يأخذوا على يده ولم يمنعوه من عقرها، بل استحسنوا فعله واستخفوا بوعد الله فأذاقهم الله بالعذاب وهم ظالمون، وهذه سنة الله.﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ (هود: ١٠٢ – ١٠٣) [20]

ثم انهم طلبوا من صالح عليه السلام أن يأتيهم بآية تدل على صدق رسالته،فأتاهم بالناقة التي خلقت من غير المألوف وأمرهم أن لا يمسوها بسوء ولا تُركب ولا تُذبح، وجعل لها شرب في يوم معلوم وواعدهم الله بالعذاب انْ هم اعتدوا عليها بسوءٍ وأن سلامتهم مقرونة بسلامتها.[21] فقد ذكر العلماء بعض معجزات ناقة صال عليه السلام، منها ما يلي:

(1) أنها خلقت من صخرة.
(2) خلقها الله تعالى من جوف الجبل ثم انشق عنها الجبل.
(3) خلقها الله حاملا من غير ذَكرٍ.
(4) خلقها الله على تلك الصورة دفعة واحدة من غير وِلادةٍ.
(5) كان لها شِرب يومٍ ولكل قوم شرب يوم.
(6) تأتي بلبنٍ كثير يكفي الخلق العظيم.[(22)]

إلا أن مثل هذه الأقوال تحتاج إلى بحث في إثبات حقائقها بروايات صحيحة ثابتة،

فمن معجزات صالح عليه السلام أن قومه طلبوا منه أن يخرج لهم من صخرة عينوها له ناقة ثم حددوا صفات الناقة فدعا ربه بذلك فأمر الله تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة على الوجه الذي طلبوا[(23)].

المطلب الرابع: تقرير توحيد الألوهية من خلال دعوة نبي الله صالح قومه

لقد أرسل الله صالحا إلى قومه يدعوهم إلى عبادته وحده دون سواه، وأمر قومه بترك عبادة الأصنام ونهاهم عن الشرك بالله، " وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " (الأعراف: ٧٣) وقال في موضع آخر " وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ"(هود: ٦١) وقال في النحل " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ" (النمل: ٤٥) فقد بدأ عليه الصلاة والسلام دعوته بإصلاح العقيدة، والعقيدة هي الموجهة للسلوك وهي كمنزلة القلب في الجسد اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله.وأقام صالح الأدلة القاطعة الظاهرة على وحدانية الله، ثم اتبع أسلوب التذكير بنعم الله تعالى فقال " فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ"(الأعراف: ٧٤) وأوضح لهم أن الله كافٍ عبده، وأن الله هو الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس في به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد.[(24)]

انقسم قوم صالح الى قسمين بعد ما دعاهم الى القاعدة الايمانية التي هي عبادة الله وحده دون سواه، مؤمن به وكافرٌ به، والمؤمنون هم القِلة،"وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ" (يوسف: ١٠٦) واستعجل المكذبون عذاب الله. "وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"(الأنفال: ٣٢) فأجابهم الداعية الى التوحيد وحضَّهم على التوبة والاستغفار.

ويلحظ أن بداية القصة في سورة الأعراف كبدايتها في سورة هود، ثم ينحو السياق منحى آخر فيذكرهم صالح بنشئتهم من الأرض نشئة جنسهم لأن الجميع مخلوقون من آدم عليه السلام وآدم من تراب، ونشئة أفرادهم من غذاء الأرض أو من عناصرها التي تتألف منها عناصر تكوينهم الجسدي، ومع أنهم من هذه الأرض فقد استخلفهم فيها ليعمروها فإذا يشركون به.((25))

يُفهم من هذه القصة أن أول شيء بدأ به صالح عليه السلام، هو الدعوة الى توحيد الألوهية، وأُسوته في ذالك الأنبياء السابقين. هكذا ينبغي لكل داعية إلى الله أن يبني دعوته على هذا الأُسلوب الالهي النبويُ، يحاول بيان التوحيد على قومه لِما له علاقةٌ بمفهوم العبادة.((26))

قال الله تعالى:" قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ"(هود: ٦٢) إنهم يدلفون إليه من باب شخص بحت، قالو لقد كان لنا رجاء فيك وكنت فينا مرجوا لعلمك وعقلك وصدقك وحسن تدبيرك، ثم خاب رجاءك فيك، جادلوه وطلبو منه أن يأتهم بناقةٍ، قال الله تعالى "قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ، فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِي"(الشعراء: ١٥٥ – ١٥٧)

فقد كان نبي الله صالح خالص النصيحة لقومه كان يخاطبهم بلسان الأخوة والأمانة، وقال لهم هو رسول أمينٌ، وإن مهنته الدعوة إلى الله تعالى والنصيحة ولا يطلب الأجر إلا من الله، وذكرهم بنعم اله عليهم من الأمن والجنات والعبون وزروع ونخل طلعها هضيم، وأعطاهم القوة حيث ينهتون من الجبال بيوتا فارحين، ونهاهم عن اتباع أمر لمسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، ويحاربون الإصلاح. ومع هذا لم يجيبوه بل جادلوه بالباطل وقالوا هو ساحر عليم.((27))

المطلب الخامس: العقائد الباطلة الراسخة المأخوذة من الآباء من أكبر الكبائر:

إن العقائد الباطلة الراسخة المأخوذة عمّن يحسن الظن بهم من الآباء وغيرهم، من أكبر الموانع الموانع لقبول الحق، ليس لها مقامٌ في الحُجج الصحيحة الدالة على الحقائق، أنظر إلى قوم صالح حيث يقولون، "قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ"(هود: ٦٢) وهذه حجة الرادين لدعوة الرسل.، بل إن بعضهم يقول "بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُون،كَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُون"(الزخرف: ٢٢ - ٢٣)

قال ابن كثير رحمه الله: أي: ليس لهم مستندٌ فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد، بأنهم كانوا على أمةٍ، والمراد بها الدين هاهنا، وكله دعوى منهم بلا دليل. ومقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقالتهم((28))

[U11 Comment]: يحتاج هذا العنوان إلى إعادة صياغة، لأن الآيات المذكورة تحت هذا المطلب إنما هي في بيان تقليد الآباء والأجداد والاقتداء بهم على دين الشرك وعبادة الأصنام.
وهذا المطلب قد يكون أنسب بالمبحث الثالث، الذي هو في شبهات قوم صالح، لأنهم امتنعوا من الإيمان به لتقليد آبائهم وأجدادهم واتباعهم على دينهم، فهو شبهة المشركين قاطبة.

وهذا السبيل لايزال معمورا بالسالكين من أهل الباطل، نهجته الشياطين ليصدوا بها العباد عن سبيل الله، وطريق الرسل لا شك هي طريق الهدى والحق، وضده طريق الغواية والضلال." فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ"(يونس: ٣٢)[(29)]

وهذه طبيعة البشر إلى اليوم، إن الناس كانوا يعظمون العادات والتقاليد أكثر من تعظيمهم للدين وأوامر الشرع، بل كان البعض يقدم العادة وما ورثوا من الآباء على ما جاء به الشرع، حتى إن بعضهم يرى أن ترك تقليد الآباء عيبٌ وعارٌ عليه، وقصة أبي طالب مع رسول الله ﷺ تبين ذالك، كان في آخر لحظاته الغالية، يقول له رسول الله ﷺ،كما في حديث المُسَيَّبِ بْنِ حَزْنٍ قَالَ: لَمّا حَضَرَتْ أَبا طَالِبٍ الْوَفاةُ جاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبا جَهْلِ بْنَ هِشامٍ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَة، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأبي طالِبٍ يا عَمِّ قُلْ لا إِلهَ إِلاّ اللهَ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِها عِنْدَ اللهِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ يا أَبا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِب فَلَمْ يَزَل رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُها عَلَيْهِ، وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقالَةِ حَتّى قَالَ أَبو طَالِبٍ، آخِرَ ما كَلَّمَهُمْ، هُوَ عَلى مِلَّة عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبى أَنْ يَقُولَ لا إِلهَ إِلاّ الله، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَمَا وَاللهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ما لَمْ أُنْهَ عَنْكَ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالى فِيهِ (مَا كانَ لِلنَّبِي) الآية. [(30)]ففضل ملة عبد المطلب على ملة إبراهيم فمات على الشرك والكفر، فحزن على ذالك رسول الله ﷺ.

المبحث الثالث: شبهات قوم صالح في عدم الإيمان به

إن من عادات المنكرين للحق والجاهدين عنه، اللجوء الى بعض الشبهات الباطلة والوقوف وراءها لقصد الصد عن سبيل الله ورد دعوة أصفياء الله من الأنبياء والمرسلين، وقد كانت شبهات الثمود في إصرارهم على الكفر والتكذيب وعدم ايمانهم أن نبيهم من البشر وأنه واحد وأنه لا يفضل عليهم بشيئ.

قال الله تعالى " فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ"(القمر: ٢٤) أي أنتتبع البشر مثلنا في الآدمية، لا شك أن هذا زعم باطلٌ فلن يكون صالح مثلهم، لأنه نبي مرسلٌ من ربه وهم ليسوا بأنبياء، وإنما لجئوا إلى هذه الشبهة لردهم الحق وشدة العناد. وكذلك أنكروا أن يخصه الله بالنبوة وهو من بينهم، قال الله تعالى " أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ"(القمر: ٢٥).

ووجهوا إليه بعض الإتهامات، كتهمتهم له بأنه رجلٌ مسحورٌ يهذي بما لا يدري وينطق عن غير تفكير،" قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ، مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ " (الشعراء: ١٥٣ – ١٥٤) وادعوا أنه كاذبٌ وطلبوا منه أن يأتهم بخارق العادة.

المطلب الأول: الخطورة التي تواجه الداعية إلى التوحيد، قد تعرضه إلى القتل. لذا دبَّر ثمود مؤامرة لقتل صالح

كان في ثمود تسعة رجال هم أشد الناس كفرا وفسادا في الأرض فأتموا فيما بينهم قتل صالح عليه السلام،"وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُون"(النمل: ٤٨)

يقول لإمام بن كثير رحمه الله: " يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم، الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة، وهموا بقتل صالح أيضًا، بأن يبيتوه في أهله ليلا فيقتلوه غيْلَة، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه: إنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به، من أنهم لم يشاهدوا ذلك،" [(31)].

ولم يكن صالح عليه السلام هو الوحيد الذي حاول قومه قتله، بل إن سائر الأنبياء عرضوا إلى هذا التحديد والوعيد من قومهم، وهي سنة الله الكونية جعل هذه الدعوة الإلاهية، دعوةٌ فيها ما فيها من الخُطورة، من فوت المال والمنسب والأهل والنفس،. كمن من الدعاة إلى الله قتلوا وشرِّدوا وكم منهم سلب أموالهم، وسُدَّ موارد أرزاقهم، كم منهم أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربي الله،﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِي﴾(العنكبوت: ٣) [(32)]

الخاتمة

إن نبي الله صالح عليه السلام دعا قومه الى التوحيد وأمرهم بترك عبادة الأصنام ونهاهم عن الشرك بالله،كما بدأ عليه الصلاة والسلام دعوته بإصلاح العقيدة،ودعاهم إلى إصلاح القلب لأنها إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله.وأقام صالح الأدلة القاطعة الظاهرة على وحدانية الله تعالى، ثم اتبع أسلوب التذكير بنعم الله تعالى فقال " فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِين"(الأعراف: ٧٤) وأوضح لهم أن الله كافٍ عبده، وأن الله هو الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس في به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد. [(33)]ومع ذلك قومه إلى قسمين بعد ما دعاهم إلى الإيمان، والمؤمنون حينئذ هم القِلة، واستعجل المكذبون عذاب الله. واستنبط بعض الأحكام العقدية من خلال قصته مما يدل على اهتمامه بذلك الجانب المهم، منها معادات المشركين لدعوته لأنه بدأ بالتوحيد أو انطلاقه، ولجأ بعضم إلى الشبهات الباطلة ووقفوا وراءها. ولجأ بعضهم إلى مجادلة صالح عليه السلام لرفض الحق والتوحيد. فتبين أن قصة الأنبياء مليئة بالحكم والعبر، وفي نهاية القصة أن العاقبة للموحدين.

المصادروالمراجع

- القرآن الكريم.

كتب التفسير

- محمد بن يزيد بن جرير بن كثير بن غالب الآملي ابو جعفر الطبري(ت 310): جامع البيان في تأويل القرآن: تحقيق أحمد محمد شاكر. مكتبة مؤسسة الرسالة للنشر، الطبعة الأولى – 1420 /– 1999م.
- محمد بن أحمد الأنصاري أبي عبد الله القرطبي: الجامع لأحكام القرآن:تحقيق عبد الرزاق الهندي.مكتبة دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع. بيروت –لبنون. الطبعة الثالثة 1421-2001.
- ألإمام الجليل أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي(ت، 774): تفسير القرآن العظيم: مكتبة دار السلام للنشر. الطبعة الأولى:1414-/1994م.
- ألإمام محمد بن طاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ): تفسير التحرير التنوير: مكتبة دار السحنون للنشر والتوزيع. بدون سنة الطباعة.
- عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. تحقيف:عبد الرحمن بن معلا اللويحق. مؤسسة الرسالة. الطبعة: الأولى 1420هـ-2000 م
- عبد السلام بن عبد الكريم أبي الفضل: تيسير اللطيف المنان خلاصة تفسير القرآن: المكتبة الإسلامية للتوزيع والنشر- القاهرة. الطبعة الأولى-1420-/ 2000م.

كتب علوم القرآن

- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن مكتبة دار المعارف بمصر، الطبعة الثامنة. بدون ذكر سنة الطباعة.
- محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر:القصة في القرآن: الإدارة العامة للنشر – الجيزة- القاهرة. سنة الطباعة 2003م.
- د. عمر محمد عمر باحاذق: الجانب الفني في القصص القرآن الكريم: مكتبة دار المأمون للتراث دمشق. الطبعة الأولى 1413 هـ 1993م
- محمد بن عبد الله الأندلسي (ابن العربي): أحكام القرآن لابن العربي: دار الكتب العلمية. عدد الأجزاء: 4
- أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر: أحكام القرآن: دار إحياء التراث العربي - بيروت، 1405. تحقيق: محمد الصادق قمحاوي. عدد الأجزاء: 5
- محمد بن إدريس الشافعي أبو عبد الله: أحكام القرآن: دار الكتب العلمية - بيروت، 1400. تحقيق: عبد الغني عبد الخالق. عدد الأجزاء: 2

- عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ): الإتقان في علوم القرآن.تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب. الطبعة: 1394هـ/ 1974 م
- الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي أبو عبد الله: فهم القرآن ومعانيه: الناشر: دار الكندي , دار الفكر – بيروت. الطبعة الثانية، 1398. تحقيق: حسين القوتلي.عدد الأجزاء: 1
- ألأستاذ د. سيد عطية علي: الإعجاز القصصي في القرآن. مكتبة دار الآفاق العربية القاهرة. الطبعة الأولى 2006 م
- سيد يوسف أبو عزيز: قصص القرآن دروس وعبر: الطبعة الثانية 1425هـ 2004م. دار الفجر للتراث- القاهرة.

كتب السنة

- محمد بن إسماعيل البخاري أبي عبد الله: صحيح البخاري: تحقيق د. مصطفى ديب البغا.مكتبة دار ابن كثير اليمامة -بيروت.الطبعة الثالثة -1407-/ 1987م.
- مسلم بن الحجاج:صحيح مسلم: تحقيق وتعليق – محمد فؤاد عبد الباقي.مكتبة دار إحياء التراث العربي للنشر- بيروت بدون ذكر سنة الطباعة.
- سليمان بن الأشعث السجستاني: . (ت 275) سنن أبي داود: تحقيق محي الدين عبد الحميد.دار الفكر للنشر. مزيلة بأحكام الألباني عليها. بدون ذكر سنة الطباعة.
- ألإمام أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت 275): سنن الترمذي: تحقيق أحمد محمد شاكر. مزيلة بأحكام الألباني عليها.مكتبة دار إحياء التراث العربي –بيروت.بدون ذكر سنة الطباعة.
- ألإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني (ت 273): سنن ابن ماجه: تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي مزيلة بأحكام الألباني.مكتبة دار الفكر للنشر –بيروت.بدون ذكر سنة الطباعة.
- ألإمام أحمد بن حنبل أبي عبد الله: مسند الإمام أحمد: مؤسسة قرطبة القاهرة للنشر.مزيلة بأحكام شعيب الأرناؤوط عليها. بدون ذكر سنة الطباعة.
- محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: دار الكتب العلمية – بيروت عدد الأجزاء: 10

كتب العقيدة

- أبو العباس أحمد بن عبد الحليم شيخ الإسلام بن تيمية (ت 728): النبوات: طبعة السلفية – القاهرة. بدون ذكر سنة الطباعة.

- أبو العباس أحمد بن عبد الحليم شيخ الإسلام بن تيمية (ت 728): الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: تحقيق د. عبد الرحمن بن عبد الكريم اليحيى. مكتبة دار المنهاج للنشر – الرياض- الطبعة الأولى -2008م.
- د. ربيع بن هادي المدخلي: منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل:المكتبة الغرباء الأثرية – المدينة الطبعة الثانية 1414-/1993م.
- نخبة من العلماء: كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة. الطبعة: الأولى: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية. تاريخ النشر: 1421هـ: موقع الإسلام. http://www.al-islam.com

كتب الأديان

- أحمد عبد الوهاب: النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام.

كتب الفقه

- د. عبد الكريم زيدان: المستفاد من قصص القرآن: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر – بيروت.الطبعة الأولى – 1426/ 2005م.
- سعد يوسف أبو عزيز: قصص القرآن الكريم دروس وعبر. مكتبة دار الفجر الأزهر القاهرة. الطبعة الثانية 1420 هـ 2004 م

كتب السيرة والتاريخ

- أحمد فريد: تيسير المنان في قصص القرآن: دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى: 1411هـ/1990م
- الشيخ محمد علي الصابوني:النبوة والأنبياء:دار الصابوني للنشر والطباعة. القاهرة- الطبعة الأولى:1426-/ 2004م.
- د. محمد بكر إسماعيل: قصص القر آن من آدم عليه السلام إلى أصحاب الفيل: دار المنار القاهرة – الطبعة الأولى 1425/ 2003م.
- ألإمام الجليل أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي(ت، 774): البداية والنهاية: دار التقوى القاهرة- الطبعة الأولى-1320/1999م.
- د. أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة: مكتبة العبيكان المدينة – الطبعة السابعة. 1428-/2007م.
- د. صلاح الخالدي: القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث: دار القاسم دمشق ودار الشامية بيروت. الطبعة الأولى 1941هـ 1998م. في أربع مجلدات.

- د. محمد السيد الوكيل: نظرات في أحسن القصص: دار القاسم دمشق ودار الشامية بيروت. الطبعة الأولى: 1415هـ 1994م. في مجلدين.
- الشيخ محمد متولي الشعراوي: قصص الأنبياء: المكتبة التوقيفية القاهرة.
- سهل بن عبد الله التستري ت 83هـ: لطائف قصص الأنبياء عليهم السلام. تحقيق كمال علاَّم، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى: 2004/1425
- دكتورة مُنى بنت عبد الله حسن بن داود: منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، قصص أولي العزم من الرسل، دار ابن حزم بيروت لبنان، الطبعة الأولى: 1419هـ/1998م
- علي الفكري: أحسن القصص: دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
- د. صالح بن عبد الفتاح الخالدي: قصص السابقين في القرآن، دروس في الإيمان والدعوة والجهاد. دار القاسم دمشق، الطبعة الأولى:1409هـ/1998م.
- محمد أحمد جادل مولى: قصص القرآن، مكتبة الثقافة للنشر والتوزيع، سنة الطباعة: 1408هـ/ 1997م، التصحيح والتدقيق: جمال محمد علي شقيري.
- الشيخ محمد حمزة: قصص القرآن مسرحيات قرآنية. دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: 1407هـ/1987م
- محمد بسّام رُشدي الزين: مدرسة الأنبياء عبر وأضواء. دار الفكر المعاصر- بيروت –لبنان. 2000م.

الهوامش:

(([1])) إن في قصص الأنبياء حِكم كثيرة منها:

العبرة بما جاء في هذه القصص من أخبار وحقائق ومعان وأنماط من المدافعات بين أهل الحق والباطل. وإن في هذه القصص بيان موجز مؤثر بليغ عن الإسلام وبيان العاقبة الحسنى لرسل الله، مع ما لقوا من الشدة والعناء. قال تعالى: "حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِين" يوسف: (١١٠

ومن الحكم إيضاح لمناهج الأنبياء في الدعوة إلى الله تعالى. قال تعالى:" أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِين"(الأنعام: ٩٠) وكذلك معرفة طبيعة الإنسان وطغيانه بسبب المال والسلطان والجاه وغير ذلك من مضامين القصص التي أخذت قسما كبيرا من كتاب الله العزيز.

(([2])) انظر أطلس تاريخ الأنبياء والرسل ص 51

(([3])) المصدر السابق بتصرف

(([4])) أخرجه البخاري رقم 3198 باب قول الله تعالى (وإلى ثمود أخاهم صالحا) هود 61. ومسلم في الزهد والرقاق باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم رقم 2981.

(([5])) () أخرجه البخاري رقم (3200) ومسلم في الزهد والرقائق باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم رقم 2980.

(([6])) المصدر السابق بتصرف

((7)) انظر: دراسات تاريخية من القرآن الكريم للدكتور محمد بيومي مهران. ص 265-267 وكتاب فقه دعوة الأنبياء ص 143 بتصرف.

((8))انظر: تاريخ الطبري: 1\226-227، والكامل لابن الأثير 1\10 ط\دار الكتاب العربي وكتاب: مدرسة الأنبياء ص 49-50 بتصرف.

((9))أخرجه أحمد رقم (5984) تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. ومسند الصحابة في الكتب التسعة، مسند ابن عمر.16\ 114 رقم (176).

((10)) انظر: كتاب فقه دعوة الأنبياء ص 143 بتصرف

((11)) انظر: دراسات تاريخية من القرآن الكريم للدكتور محمد بيومي مهران. ص 265-267

((12)) انظر: تاريخ العرب قبل الإسلام. للدكتور جواد عليّ \ 1 وكتاب: مع الأنبياء في القرآن الكريم ص 91

((13)) انظر: كتاب فقه دعوة الأنبياء ص 144 بتصرف

((14)) أنظر: تفسير المنتخب: لجنة من علماء الأزهر. 1\255

((15)) أنظر: التحرير والتنوير: «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» 8\225

((16)) أنظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. لعبد الرحمن بن ناصر بن السعدي تحقيق:عبد الرحمن بن معلا اللويحق. 1\596

((17)) أنظر فقه دعوة الأنبياء في القرآن ص 39-42

((18)) أنظر: أحمد (296/3، رقم 14193)، قال الهيثمى (38/7): رجاله رجال الصحيح. وابن حبان (77/14، رقم 6197)، والحاكم (351/2، رقم 3248) وقال: صحيح الإسناد. والطبرانى فى الأوسط (37/9، رقم 9069). "الفج": هو الطريق الواسع: "فأهمد": أى فأهلك.

((19)) انظر مدرسة الأنبياء: ص 51-54

((20)) أنظر: قصص القرآن. ص52-56

((21)) انظر: مع الأنبياء في القرآن ص 93

((22)) أنظر: فقه دعوة الأنبياء ص 42

((23)) أنظر: تفسير ابن كثير (3 / 436).

((24)) أننظر قصة دعوة الأنبياء. ص 148 بتصرف

((25)) انظر فقه دعوة الأنبياء. ص 150-151 بتصرف

((26)) انظر المستفاد من قصص القرآن. 2\189 بتصرف

((27)) انظر:: أنبياء الله ص71-76 وكتاب: مع الأنبياء: ص93-94 بتصرفٍ

((28)) انظر: تفسير القرآن العظيم: 7\224 بتصرف

((29)) انظر: تيسير لطيف المنان: ص 289

((30)) انظر: البخاري في: 23 كتاب الجنائز: 81 باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلاّ الله. وكتاب: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان. لمحمد فؤاد عبد الباقي 1\12

((31)) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير 6\ 198

((32)) أنظر: مع الأنبياء ص 95-96 بتصرف

((33)) أننظر قصة دعوة الأنبياء. ص 148 بتصرف

القرآن الكريم والحضارة الاقتصادية

د. عمر إبراهيم إندابـاوا
قسم الدراسات الإسلامية والشريعة بجامعة بايرو كنو-نيجيريا
umarindabawa75@gmail.com
08031361803

التمهيد:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد: فإن الحضارة الاقتصادية المعاصرة بنوعيها الرأسمالي والاشتراكي تشهد أنواعا من الركود والإفلاس، مما سبب للعالم المعاناة الشديدة، ولا غرو في ذلك لأن النظام الذي يمشي عليه أغلب العالم اليوم نظام بشري محض، الذي يعالج القضايا الحاضرة والظاهرة، ولا يعلم ما في الغد وما تأتي به.

كما يقول الشاعر:

وأعلم ما في اليوم واليوم قبله*****ولكنني عن علم ما غد عم

فهو نتاج للفكر الإنساني في ظروف خاصة وفي بيئة معينة هي البيئة الأوربية. فنظريات النظام البشري ليست حقائق ثابتة التي لا تقبل النقض والنقص،بل كلا النظامين، الرأسمالي والاشتراكي، منقوضان وناقصان. وأما نظريات الاقتصاد في الإسلام التي أوردها القرآن الكريم فهي نظريات ثابتة وحقائق قاطعة لاتتغير بتغير الزمان والمكان، لأن أكثرها راجعة إلى أصل رباني قطعي وهو القرآن الكريم.

ولقد ادعى كل المذاهب الاقتصادية القدرة على القضاء على المشاكل الاقتصادية التي يعانيها العالم، ولكنها فشلت جميعا، بل إن بعص المحاولات من تلك المذاهب زادت الطين بله، فلم يبقى للعالم الآن إلا أن يعتنق النظام الإلهي الوحيد المتمثل في القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

مفهوم الاقتصاد وقضاياه

الاقتصاد لغة: الاقتصاد لغة من القَصْد في الشيء وهو خلافُ الإفراطِ وهو ما بين الإسراف والتقتير. والقصد في المعيشة أَن لا يُسْرِفَ ولا يُقَتِّر يقال فلان مقتصد في النفقة. ومنه قوله تعالى "واقْصِدْ في مشيك". واقصد بذَرْعِك أَي ارْبَعْ على نفسِك وقصد فلان في مشيه إِذا مشى مستوياً ورجل قَصْد ومُقْتَصِد والمعروف مُقَصَّدٌ ليس بالجسيم ولا الضئِيل."[(1)]

وأما في الاصطلاح فقد عرفه آدم سميث[(2)] بأنه هو علم الثروة، أو هو العلم الذي يختص بدراسة وسائل اغتناء الأمم، مع التركيز بصفة خاصة على الأسباب المادية للرفاهية، كالإنتاج الصناعي أو الزراعي..الخ.[(3)]

وعرفه (ليونيل روبنز) في مقالة نشرها عام 1932م حيث يقول: "الاقتصاد هو علم يهتم بدراسة السلوك الإنساني كعلاقة بين الغايات والموارد النادرة ذات الاستعمالات"[(4)].

وأما الاقتصاد في الإسلام فهو"الأحكام والقواعد الشرعية التي تنظم كسب المال وإنفاقه وأوجه تنميته[(5)] "

مفهوم الحضارة الاقتصادية

فالحضارة الاقتصادية هي تلك النظم والتدابير التي تتخذها الأمم عند تدبير شؤون المال بإيجاده وتكثير موارده[(6)] أو هي: مجموعة من المبادئ والأصول التي تتناول بالتنظيم جوانب النشاط الاقتصادي في حياة الفرد والمجتمع.[(7)] ولكل أمة حضارتها في تدبير شؤونها الاقتصادية، وتستنقي الأمم هذه الحضارة إما من تعاليم دينها أو من التراث العلمي والفلسفي الذي ورثه كابر عن كابر، وتعتمد البعض في بناء حضارتها على التقليد الأعمى بحيث يقلدون حضارة غيرهم بغض النظر عن مناسبتها لظروفهم المادية والاجتماعية والسياسية.

فالحضارة الاقتصادية عند المسلمين مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وإرشادات الخبراء الاقتصاديين التي لا تتنافى مع التعاليم الشرعية.

مميزات الاقتصاد الإسلامي

ويمتاز الاقتصاد الإسلامي عن غيره من الأنظمة الاقتصادية بالمميزات الآتية:

(1) العموم والمرونة: فأحكامها نافذة على جميع الناس دون استثناء، كما أنها تتناول جميع مستجدات الحياة لما في أحكامها من العموم والمرونة.

(2) عدم التغيير والتبديل: فهي لا تقبل ذلك مهما مرت الأعوام، وطالت الأزمان، وعدم التغيير والتبديل لا يعني توقف وتجميد النصوص.

(3) كون العلم حاكماً لا محكوماً عليه: فيخضع له الناس ويتبعونه.

(4) وأن نظامه حقائق ثابتة تناسب كل زمان ومكان، ويلائم كل حضارة وتقدم.[(8)]

وأما القضايا الاقتصادية فهي المعاملات المالية التي يقوم عليها الاقتصاد كالعقود التجارية القديمة والحديثة ونشاطات الإنتاج والاستهلاك، والتداولات المالية والاحتكار، والصناعات والاستصناع والمقاولات، وغير ذلك.

اهتمام القرآن الكريم بالقضايا الاقتصادية

اعتنى القرآن الكريم بالقضايا الاقتصادية عناية تامة، حيث أورد آيات كثيرة تعالج قضاياه وتوجه إلى استقامته وترشد إلى تنميته وتنظم سيره وتقلبه، وتبين خطط حمايته من الركود والكساد. ويبرز هذا الاعتناء في النقاط الآتية:

حث القرآن الكريم على السعي في طلب الرزق وتنميته

توالت الآيات القرآنية تحث على المشاركة في النشاطات الاقتصادية بجميع أنواعها في الحدود الشرعية، فمن ذلك قوله تعالى:﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ ﴾ الجمعة: ١٠

وتشير الآية إلى أن المسلم يقضي حياته بين طلب الدنيا والآخرة، ولكل وقته، فإذا جاء هذا ترك هذا وسعى إلى ذاك، وفي ذلك يقول الله تعالى:﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ ﴾ القصص: ٧٧

ويقول الدكتور وهبه الزحيلي في تفسيره للآية الثانية: أي إذا أديتم الصلاة وفرغتم منها، فيؤذن ويباح لكم الانتشار والتفرق في الأرض للتجارة والتصرف فيما تحتاجون إليه من أمر معاشكم، والابتغاء.((9))

وحث تعالى عباده في كثير من الآيات على الإنفاق في سبيله، فمن طراز هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١ ﴾ البقرة: ٢٦١

وقوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢ ﴾ البقرة: ٢٦٢

وقوله عز شأنه:﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤ ﴾ البقرة: ٢٧٤

ولا يتأتى الإنفاق إلا لمن رزقه الله ما ينفقه، لذلك أمر الله بالانتشار فى الأرض لطلب الرزق، وأخبر تعالى أن بعض الصحابة الذين لا يجدون ما ينفقون في سبيل الله تفيض أعينهم دمعا لأنهم لا يجدون ما ينفقون. قال تعالى: "وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ٩٢ التوبة: 92

وجعل تعالى إنفاق الأموال الآلة الأولى في الجهاد في سبيله بل قدم الجود بالمال على الجود بالنفس. قال تعالى: "وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٧٢ الأنفال: ٧٢ وقوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ ﴾ التوبة: ٢٠

ورغب تعالى عباده بالتمتع بزينة الله التي أخرجها لهم وهي زينة مكتسبة لايمكن استخدامها والتزين بها إلا باكتسابها والسعي في طلبها، قال تعالى:﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ الأعراف: ٣٢

وزينة الدنيا تكمن في المال كما قال تعالى:﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ الكهف: ٤٦

وسمى القرآن الكريم المال بالخير لما فيه من خيري الدنيا والآخرة- إذا طلب من وجه حلال وأنفق فيه، قال تعالى:﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ البقرة: ٢١٥ وقال تعالى:﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ البقرة: ١٨٠

وفسر الخير في مثل هذه الآيات كثير من المفسرين بالمال.

التشجيع على مزاولة الصناعات اليدوية والعمل لطلب لقمة عيش

حكى القرآن الكريم قصص كثير من الأنبياء وصناعاتهم اليدوية تشجيعا لهذه الأمة على اقتفاء أثرهم، قال تعالى بيانا للفضل الذي آتاه داوود عليه السلام:﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ سبأ: ١٠ – ١١. وقال تعالى عن صناعة نوح عليه السلام: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ هود: ٣٧ – ٣٨. وقال تعالى عن نبيه موسى عليه السلام: "قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ القصص: ٢٧

وذكر الطبري وغيره بأن عقد هذه الأجرة كان على رعي الماشية لتلك المدة المضروبة.[(10)]

وقال سبحانه وتعالى عن الصناعة بشكل عام على لسان سيدنا هود وهو يخاطب قومه ويذكرهم بنعم الله عليهم: "وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ الشعراء: ١٢٩

وقال تعالى عن صناعة الأثاث والغزل والنسيج:﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ النحل: ٨٠ - ٨١

ومن عوامل الإنتاج فى النظام الاقتصادي المثيرات للنشاطات الاقتصادية والصناعات اليدوية والعمل وتكاليفه المتمثلة فى الأجور والرواتب.

الموارد المهمة للاقتصاد في القرآن الكريم

أشار القرآن الكريم إلى أهم الموارد للاقتصاد، ولم تزل هذه الموارد ولا تزال من أهم الموارد المعتبرة عالميا في مجال الاقتصاد، فمن طراز هذه الموارد:

الزراعة:

قال تعالى: "ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ البقرة: ٢٢

وقال تعالى: "وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿٥﴾ الجاثية: ٥

وقال تعالى: "وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ الذاريات: ٢٢

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ البقرة: ٦١

وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ المؤمنون: ١٨ - ٢١

وقال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ يس: ٣٦

وقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ۖ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ النمل: ٦٠

وقال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ نوح: ١٠ - ١٢

المعادن:

جمع معدن وهو ما يوجد في باطن الأرض من أصل الخلقة، كالذهب والفضة، والنحاس والحديد والرصاص[(11)].

وتنقسم المعادن إلى ثلاثة أقسام:

(أ) جامد يذوب وينطبع بالنار كالنقدين (الذهب والفضة) والحديد والنحاس والرصاص، ويلحق به الزئبق.

(ب) جامد لا يذوب ولا ينطبع بالنار كالجص والنورة (حجر الكلس) والكحل، والزرنيخ وسائر الأحجار كالياقوت والملح.

(ج) مائع ليس بجامد: كالقار (الزفت) والنفط (البترول)[(12)].

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المعادن ومنافعها، وهي معادن يحتاج إليها البشر، وهي عنصر قوي في الاختراعات العصرية بمختلف أنواعها، وتمثل هذه المعادن دخلا مهما جدا للدول التي تمتلكها. ومن الآيات القرآنية التي تشير إلى هذه المعاد وبعض منافعها ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ الحديد: ٢٥

وقوله تعالى:﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ الأنبياء: ٨٢

وقوله تعالى:﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ ص: ٣٧

قال ابن كثير: أي يستخرجون له اللآلي من الماء.[(13)]

وقوله تعالى: "وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ الأنبياء: ٨٠

واللبوس: هي الدروع السابغة التي تقي لابسها طعن الرماح وضرب السيوف بإذن الله تعالى فهي آلة حرب ولذا قال تعالى: (لتحصنكم من بأسكم)[(14)]

وقوله تعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ ﴾ الرحمن: ٣٥ ففي الآية إشارة إلى قسط من منافع النحاس وهو أنه يصنع به الرصاص وسائر الأسلحة، والأسلحة في هذه الأيام من البضائع التي تسمو تجارتها في العالم.

وقوله تعالى:﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ﴾ آل عمران: ١٤

ففي هذه الآية إشارة إلى قيمة الذهب والفضة، حيث جعلهما الله بمثابة المال الشرعي وبهما يقاس جميع المعاملات المالية في الإسلام، ومما زين للناس حبهما. ويستخرجان من الأرض من بين المعادن.

تشجيع التداولات المالية وتقسيم الثروات بين البشر

التداول(المبادلة) وهي أحد الأركان الأساسية في الحياة الاقتصادية، وقد شجع الإسلام تداولات الأموال وتوزيع الثروات بين الناس، لذلك جاءت آيات في القرآن الكريم تؤسس عملية التداولات المالية وتشجعه، فأوجب الزكاة والكفارات، وحث على الصدقات وأحل البيع وحرم الربا وأثبت حقوق الملكية للذكر والأنثى وبين أنصبة الميراث بين الرجال والنساء، وحرم الإكتناز والاحتكار. ومن الأيات القرآنية التي تؤيد التداولات المالية وتوزيع الثروات بين الناس ما يلي:

قوله تعالى:﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ الحشر: ٧

وقوله تعالى:﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ الأنفال: ٤١

وقوله تعالى:﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾ النساء: ٧ وقوله تعالى:﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ التوبة: ٣٤

وقوله تعالى:﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾ البقرة: ٢٧٥

وقوله تعالى:﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ البقرة: ٢١٥

ويلحق بهذه الآية جميع الآيات التي تحرض على الإنفاق والصدقات، وجميع الآيات التي تبين وجوب الزكاة، والآيات التي تتحدث عن التجارة ومسائلها كآيتي الدين والرهن في سورة البقرة.

تدابير حماية الاقتصاد من الركود

أشار القرآن الكريم إلى تدابير ينبغي اتخاذها لحماية الاقتصاد من الركود والكساد، وعلى رأس هذه التدابير تقوى الله عز وجل والحفاظ على حدوده في جميع المعاملات والتداولات. قال تعالى مخبرا عن بعض القرى كانت على رغد من العيش وازدهار الاقتصاد فتعدت حدود الله فتحول حالها من الازدهار وسمو الاقتصاد والأمن إلى الركود والكساد والخوف:﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ النحل: ١١٢

وفال تعالى:﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨ ﴾ القصص: ٥٧ - ٥٨

وقوله تعالى:﴿ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ١٢ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ١٣ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ١٥ ﴾ الأنبياء: ١١ - ١٥

وقوله تعالى: ﴿ لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبّٞ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧ ﴾ سبأ: ١٥ - ١٧

ومن التدابير المشار إليها لحماية الاقتصاد من الركود التأهب والاستعداد لأيام الابتلاء كالقحط والجدب والعواصف وغيرها من الجائحات التي قد تقع ابتلاء. قال تعالى:﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ﴾ البقرة: ١٥٥

وقال تعالى:﴿ ۞ لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦ ﴾ آل عمران: ١٨٦

فلمثل هذه الأيام يشير القرآن الكريم إلى اتخاذ الإحتياطات اللازمة، كما أشار إلى ذلك في إيراده لقصة نبي الله يوسف عليه السلام، قال تعالى:﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ٤٨ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩ ﴾ يوسف: ٤٦ - ٤٩

ومن التدابير أيضا سؤال أهل الذكر في هذا المجال واتباع توجيهاتهم والاستعانة بهم لتطوير الاقتصاد وتقدمه وحمايته من الركود. قال تعالى:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ ﴾ النحل: ٤٣

ومن التدابير التي اتخذها القرآن لحماية الاقتصاد من الركود تحريم الربا والسرقة والغش والرشوة وكل ما كان من شأنه الإضرار بالغير وأكل أموال الناس بالباطل كالقمار والميسر، فتداول هذه المحرمات بين الأمة يسبب ركود الاقتصا وكساده. قال تعالى: " وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٨ چ البقرة: ١٨٨ ففي الآية نهي عن أكل أموال الناس بالباطل وأخذ الرشوة وإعطائها.

وقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ ﴾ النساء: ٢٩

وقال تعالى:﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦ ﴾ البقرة: ٢٧٦ وقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩ ﴾ البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩

أساليب القرآن الكريم في حل الأزمات الاقتصادية

لقد أشار القرآن الكريم إلى أساليب مختلفة لحل مشاكل الاقتصاد وأزماته إن وقعت، وهذا يدل على عظم عناية القرآن الكريم بالشؤون الاقتصادية، حيث أشار إلى عديد من المسائل التي تعالج قضاياه وتحميه من الركود، فإذا حدث أن أصاب الاقتصاد الكساد والركود، فقد رسم القرآن الكريم خريطة تزحزحه مما وقع فيه. وهذه الخريطة تكمن فيما يأتي:

أولا: عدم اليأس والاستسلام

فعلى المسلم أن لا يستيئس من روح الله لما أصابه من البلاء والجائحات والركود والكساد التجاري، بل يحسن ظنه بالله ويلجأ إليه ويتضرع له.

قال تعالى:﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧ ﴾ يوسف: ٨٧

وليعلم أن لله ما في السموات وما في الأرض، وهو الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض. قال تعالى: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١ ﴾ يونس: ٣١

ثانيا: الحث على السعي والجهد في إعادة سيرته:

يسلك القرآن الكريم أسلوب الحث على السعي والنهوض لإنقاظ الاقتصاد من الركود، ومن ذلك قوله تعالى: "وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ ١٠٥ التوبة: ١٠٥ وقال تعالى: " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠ آل عمران: ٢٠٠

فالصبر والمصابرة على ما يروم المرء ينتج نتائج محمودة، وهذا ما يفقده كثير من المسلمين في مجال التجارة والصناعة، فكثيرا ما يفشل التاجر أو الصانع للمرة الأولى فيترك التجارة أو الصناعة.

يقول الشعراوي مفسرا للآية السابقة: "والغاية من هذه الأوامر هي { لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } إذن فمن عشق الفلاح فعليه أن ينفذ هذه الأربعة: اصبر، صابر، رابط، اتق الله، لعلك تفلح.والحق سبحانه وتعالى حين يعبر عن الفلاح إنما يعبر بأمر مشهود مُحس للناس جميعاً، لم يقل لك: افعل ذلك لتنجح أو لتفوز. إنما جاء بكلمة "الفلاح". والفلاح كما قلنا: مأخوذ من فلح الأرض. وفلح الأرض هو شقها لتتعرض للهواء، ولتكون سهلة هينة تحت الجذير البسيط الخارج من البذرة، فإذا فلحت الأرض بهذه المشقة حرثاً وبذراً وتعهداً بالري ماذا يحدث لك من الأرض؟ إنها تؤتيك خيراً مادياً مشهوداً ملحوظا"[(15)].

ثالثا: الابتكارات والتنويع

أشار القرآن الكريم إلى حاجة الابتكارات الصناعية وتنويع الأساليب في مجال الاقتصاد لإنقاذه من الركود، فمن الآيات في هذا الصدد قوله تعالى:﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ الجاثية: ١٢ - ١٣

فالآية تنادي المسلم إلى استخدام البحر وما فيه وما في السموات والأرض جميعا، فهي مسخرة له. فإذا كانت البحار وما فيها والسماء وما حوت والأرض وما ضمت مسخرة للإنسان فالمجال أمامه واسع، إذا أعياه هذا انتقل إلى ذاك.

رابعا: الاستفسار من الخبراء الاقتصاديين والعمل بمقتضى توجيهاتهم

قال تعالى: "فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ النحل: ٤٣

قال القرطبي: قال سفيان: يعني مؤمني أهل الكتاب. (إن كنتم لا تعلمون) يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشرا. وقيل: المعنى فاسألوا أهل الكتاب فإن لم يؤمنوا فهم معترفون بأن الرسل كانوا من البشر روي معناه عن ابن عباس ومجاهد. وقال ابن عباس: أهل الذكر أهل القرآن وقيل: أهل العلم، والمعنى متقارب.[(16)] فإذا أمر الله بسؤال أهل الكتاب فيما يخص الدين فمن باب أولى ما يخص أمور الدنيا. فمن كان له إلمام أو خبرة بشؤون الاقتصاد مهما كان دينه أو مذهبه يجوز الانتفاء بخبرته في المجالات الاقتصادية.

الخاتمة

ومن خلال هذه الجولة يتبين جليا أن القرآن الكريم أولى الاقتصاد وشؤونه اهتماما بالغا، ومن ثم فلا يحتاج المسلم إلى حضارة اقتصادية غربية قاصرة، بينما يكون بين يديه هذا الكم الهائل من المعلومات في مجال الاقتصاد، ولو تبنى المسلمون هذا النظام الاقتصادي العادل لاستراحوا من التبعية الغربية الضارة، فعليه توصي الورقة جميع المسلمين حكومة وأفرادا باقتناء نظام الاقتصاد الإسلامي المرسوم في القرآن الكريم للخروج من المأسات الاقتصادية وبناء هيكل اقتصادي قوي مستو على سوقه، وليقللوا من الاعتماد والأخذ من النظم الاقتصادية الغربية المتزعزعة من حين إلى آخر. ويقترح الباحث:

- تأسيس مؤسسة اقتصادية إسلامية عالمية، تنظم للمسلمين شؤون اقتصادية على ضوء تعليمات القرآن الاقتصادية.
- تتبع الإشارات القرآنية في مجال الاقتصادية للوصول إلى مراد القرآن من تلك الإشارات.
- تحديث بعض المجالات الاقتصادية لدى المسلمين وتوسيع نطاقها على حدود شرعية.

المراجع:

الأحمد،ناصر بن محمد، **معالم الاقتصاد الإسلامي**، دار التراث العربي، دمشق، 1989م.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **تفسير القرآن العظيم**،دار طيبة،دمشق،1420م.

ابن منظور، محمد بن مكرم،(1414ه) **لسان العرب**،دار صادر،بيروت،1414ه.

الجزائري، أبوبكر، **أيسر التفاسير**،دار الهدى،القاهرة، 1422ه.

حطاب، كمال (2003م) **"منهجية البحث في الاقتصاد الإسلامي وعلاقاته بالنصوص الشرعية** " مجلة جامعة الملك عبد العزيز، جدة، السعودية، 2003م.

الزحيلي،وهبه بن مصطفى، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**،دار الفكر المعاصر،دمشق،1418ه.

الزحيلي، وهبه بن مصطفى، **الفقه الإسلامي وأدلته**،دار الفكر المعاصر، دمشق، 1420ه.

القحطاني، مسفر بن علي (2002م) **النظام الاقتصادي في الإسلام**، جامعة الملك فهد للبترول، الرياض، 2002م.

القرطبي، محمد بن أحمد، **أحكام القرآن**، دار الكتب العلمية، الفاهرة، 1384ه.

الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان في تأويل القرآن**، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1420ه.

الشعراوي، محمد متولي، **تفسير الشعراوي**، دار الفكر،بيروت،1418ه.

شبير، محمد عثمان، **المعاملات المالية المعاصرة في الفقه الإسلامي**، دار النفائس، عمان، 1996م.

الهوامش:

ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1414هـ، ج:3، ص:353[(1)]-.

[(2)]- آدم سميث1790 – 1723 .A. Smithوهو أشهر الكلاسيكيين على الإطلاق، ويعتبر أبا الاقتصاد، ولد في مدينة كيركالدي في اسكوتلنده، ودرس الفلسفة، وكان أستاذاً لعلم المنطق في جامعة جلاسجو. سافر إلى فرنسا سنة 1766م والتقى هناك بأصحاب المذهب الحر. وفي سنة 1776م أصدر كتاب بحث في طبيعة وأسباب ثروة الأمم هذا الكتاب الذي قال عنه أحد النقاد وهو أدمون برك: "إنه أعظم مؤلف خطه قلم إنسان".

- الأحمد، المرجع السابق، ص:2[(3)]

-الأحمد، المرجع السابق ص:439.[(4)]

- القحطاني، مسفر بن علي، النظام الاقتصادي في الإسلام، جامعة الملك فهد للبترول، الرياض، 2002م ص:2[(5)]

- أحمد محمّد جمال، محاضرات في الثّقافة الإسلاميّة، دار الكتاب العربي, بيروت, ط6, 1983م, ص:301 [(6)]

- الأحمد، ناصر بن محمد، معالم الاقتصاد الإسلامي، دار التراث العربي، دمشق، 1989م، ص:1 [(7)]

- الأحمد، المرجع السابق، ص:4[(8)]

[(9)]-الزهيلي، وهبه بن مصطفى، التفسير المنير، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1418هـ، ج:28ص:198

- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1420هـ، ج:19ص:55[(10)]

-الزحيلي، وهبة، الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر، دمشق، 1422هـ، ج:3ص:434[(11)]

- الزحيلي، المرجع السابق، ج:3 ص:219[(12)]

- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة، دمشق، 1414هـ، ج:5 ص:359[(13)]

- الجزائري، أبوبكر جابر، أيسر التفاسير، دار الهدى، القاهرة، 1422هـ، ج:2 ص:482[(14)]

- الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، دار الفكر، بيروت، 1418هـ، ج:3ص:348[(15)]

- القرطبي، محمد بن أحمد، أحكام القرآن، دار الكتب العلمية، الفاهرة، 1384هـ، ج:10 ص:108 [(16)]

الحوار في المنظور الإسلامي وآثاره في تعزيز التعايش السلمي بين الشعوب

عبد الواسع عبد اللطيف صلاح الدين
مركز الثقافة الإسلامية وحوار الأديان جامعة بايرو كنو نيجيرا
Abdulwasiu Abdullateef Salahudeen
Research Fellow, Centre for Islamic Civilization and Interfaith Dialogue,
Bayero University, Kano Nigeria, BUK
saabdullateef.cic@buk.edu.ng ; +2348154829080

ملخص البحث:

إن الخلافات بين الشعوب - في أمور عقدية وأسرية وسياسية وغيرها- من أبرز أسباب الفتن المشكلات التي لا تحمد عقباها؛ نتيجة سوء التفاهم وعدم التمسك بالآداب الربانية في تدبير الاختلاف. وقد جاء هذا العنوان ليرشد الشعوب (الراعي والرعية) ويعيدهم إلى الأسس المثلى المتمثلة في طريقة الحوار الناجح ببيان آداب الحوار وطرق تطبيقها في المجتمع،حتى نعيش في ألفة آمنة ويسود الوئام والتلاحم بيننا، فنفوز في الدنيا والآخرة. اتبع الباحث في عرض معلومات هذه الأوراق المنهج التارخي المتمثّل ببيان طريقة الأنبياء والرسل في حل مشكلات أمتهم بأسلوب حواري هادئ والبعيد من العنف والتشدد. وتوصل إلى أن الحوار – باختلاف أنواعه- هو من أهم الطرق لإيلاج مشكلات المجتمع والأسرة. بل هو من أساليب التعليم المثمر في الميادين التعليمية والتربوية. والحوار طريقة من طرق تعزيز الأمن والتعايش السلمي بين الشعوب وإن اختلفت العقائد والألسنة.تضمن هذا البحث نماذج من تطبيق الأنبياء أسلوب الحوار لتعزيز الأمن بين الأمة وإرشادهم إلى سبيل النجاح.

DIALOGUE IN THE LIGHT OF ISLAM AND ITS IMPACT TO REINFORCE PEACEFUL COEXISTENCE AMIDST THE NATION

Abstract

The misunderstandings that do occur as a result of misconceptions in faith, politics, and family issues, among others, are due to the lack of adherence to the holistic teachings of the etiquettes and manners of Dialogue in controlling divergence. This topic will guide us to the ways of practicing Dialogue so as to achieve a peaceful coexistence and successful living. In this piece of writing, the author has chosen the historical method to illustrate the ways and steps taken the prophets (Peace be upon them) in solving the problems of their nation using a peaceful and fruitful dialogue as a tool. Dialogue plays an important role in achieving a peaceful coexistence amidst the nation, irrespective of the differences between faiths, tribes, cultures and languages. These papers comprise the etiquettes of dialogue embarked on by the holly prophets and led to successful living.

مقدمة:

الحمد لله الذي أوجد الإنسان من عدم، ورسم له طريقة الحياة كي نعيش في أمن ووئام؛ لنحقق الغرض الذي من أجله خلقنا، وهو تحقيق العبودية لله تعالى. والصلاة والسلام على من بعث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد،

فإن الحوار بين الشعوب أمر ذو أهمية، وتتمثّل أهميته في أنه طريقة يُرسم به تقدّم المجتمع الإنساني، وبه تسموا الشعوب وترتقي إلى المرتبة المثالية التي دعت إليه الأنبياء والمرسلون. وقد كان الحوار منذ القدم منهجا للتفاهم بين الاثنين فأكثر، ولنا في تاريخنا الإسلامي أمثلة تبرز أساليب الحوار الناجح، والتي تودي إلى تحقيق الأهداف التي لأجلها ينشأ الحوار. والحوار له مفاهيم ومجالات، وكل من هذه المجالات إذا تخلى الهدف منه عن عصمة الأفكار من الانحرافات، أو تعزيز الأمن بين الشعوب، فقلما أدى الحوار دوره، وقلما ينتج الآثار المرضية.

إنه من الواقع الذي نشاهده في هذا الزمن، حصول النزاع والخصومات بين الاثنين فأكثر نتيجة عدم قابلية الواحد لرأي غيره، أو عدم استسلامه لما يدعوا إليه غيره. وكثير ما يحصل هذا عند تناول الأمور السياسية أو الدينية أو الأسرية. وهذا النزاع يوصل إلى تقاطع العلاقات تارة، وإلى العداوة تارة الأخرى. والأدهى من هذا بل وأمَرّ أنه إذا كان النزاع أو سوء التفاهم بين دولتين أو في الأمور العقدية أو الأسرية، فسرعان ما يتطور النزاع ويدمّر العلاقات أو يعكّر صفوة الحياة. هذا كله، نتيجة عدم معالجة الأمور وفق المنهج الرباني والبعد عن آداب الحوار الناجح.

قسمت هذا البحث إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة ثم المصادر والمراجع.

- المبحث الأول: مفهوم "الحوار" ومتعلقاته
- المبحث الثاني: أركان الحوار وشروطه وآدابه
- المبحث الثالث: آثار الحوار في تعزيز الأمن والتعايش السلمي بين الشعوب
- الخاتمة
- المصادر والمراجع

المبحث الأول: مفهوم الحواروتعلقاته

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم الحوار اللغوي

الحوار في اللغة مأخوذ من الحَور، وكلمة الحور بفتح الحاء وسكون الحوار تعني:

(أ) الرجوع عن الشيء وإلى الشيء[(1)]، يقال حارَ إلى الشيء وعنه حَوْراً ومَحاراً ومَحارَةً وحُؤُوراً أي رجع عنه وإليه، ومن ذلك قوله – ﷺ- "... وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ أَوْ قَالَ: عَدُوَّ اللهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ "[(2)] أي رجع إليه.

(ب) ويأتي الحور بمعنى النقصان بعد الزيادة، يقال مثلا: نعوذ بالله من الحَوْرِ بعد الكَوْرِ، أى من النقصان بعد الزيادة[(3)].

(ج) الحَوْرُ: يعني التّردّد والعودة، ويكون إمّا بالذّات، وإمّا بالفكر[(4)]، فمنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ الانشقاق: ١٤

ويعرف الحوار في الاصطلاح: بأنه المحادثة بين الاثنين أو أكثر، يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة، بحيث لا يتعالى أحدهما على الآخر[(5)]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ المجادلة: ١.

مناقشة التعريف:

إن القول بأن الحوار يتم فيه تداول الكلام بين الاثنين أو أكثر بطريقة متكافئة فيه نظر؛ذلك لأن طبيعة موضوع الحوار تختلف من حين إلى آخر،كما تختلف طبيعة المتحاورين. وليس من الضرورة أن تتكافى أساليب الحديث بينهم بل قل ما يوجد ذلك. وعلى هذا، فلعل التعريف بعدم إضافة التكافئ أولى وأنسب.فيقال: الحوار هو المحادثة بين الاثنين أو أكثر، يتم فيه تداول الكلام بينهما للحصول على غرض مفيد.

المطلب الثاني: كلمات ذات العلاقة بالحواروم‌عناها

هناك كلمات لها علاقة بكلمة " الحوار" من حيث المعنى والاستعمال، ولا يكاد يفرّق بينها، بل تستخدم كالمترادفة. إلا أنه عند الاستعمال يوجد أن بينها التباين. فمن هذه الكلمات ما يلي: المناظرة والمجادلة.

ولتوضيح أوجه العلاقة والفرق بين هذه المصطلحات يحسن بنا تعريف كل منها أولا:

(أ) المناظرة: لغة من النظير أو من النظر بالبصيرة، واصطلاحا هي النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهارا للصواب[(6)].

(ب) المجادلة: وهي من الجدل، ويعني القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض منها إلزام الخصم وإقحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان، أو دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة أو يقصد به تصحيح كلامه وهو الخصومة في الحقيقة[(7)].

وإذا أمعنّا النظر في معاني الحوار كما سبق، يتضح لنا أوجه العلاقة والفرق بين هذه المصطلحات على النحو الآتي:

أولا: العلاقة بين المصطلحات أ- العلاقة

بين الحوار وبين المناظرة والمجادلة:

(1) أن حقيقة كل منها نوع من المحادثة.

(2) أن كلا من هذه المصطلحات عند الاستعمال يكون – غالبا- بين الشخصين فأكثر. فالحوار يكون بين الاثنين فأكثر وكذا الجدال والمناظرة. وعند من يرى أن الحوار قد يكون مع النفس[(8)] فذلك بتشخيص نفس الإنسان شخصا أجنبيا، وكأنها طرف ثان تحاورك في الموضوع. وهذا من أبرز العلاقة بين هذه المصطلحات.

ثانيا: الفرق بين المصطلحات:

وأما وجه الفرق بينها تكون في أن الحوار – غالبا- لا يتسم بالخصومة، بينما يكون الجدال – غالبا- يتسم بالتعصب والعناد تارة، وبالخصومة والتمسك بالرأي تارة أخرى.ويوصف الجدال بالحسن إذ أردنا إبعاده عن طبيعته الأصلية، كما في قوله تعالى ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ ﴾ العنكبوت: ٤٦ وأما المناظرة فتكون غالبا بين الطرفين فقط، ويتسم بإبداء كل من الطرفين رأيه دون دواعي الخصومة أو إلزام الطرف الآخر بقبول رأي مناظره، بل الغاية منها الوصول إلى الحق في الموضوع. فتكون المناظرة أقرب من الحوار في حقيقته، إلا أن الألفة والصداقة في الحوار آكد وأكثر مما هي في المناظرة.

فخلاصة القول في العلاقة بين المصطلحات المذكورة هي أن كلا من المناظرة والمحاورة تشترك في الغاية، وهي الوصول إلى الحق، وأن كلا منها عبارة عن مراجعة الكلام ومداولته بين الطرفين، وتفترق في أن دلالة المناظرة هي النظر والتفكر، بينما أن الجدال دلالته هي المخاصمة والمنازعة[(9)]وأما الحوار فدلالته تكمن في المرونة والحكمة في الإقناع.

المبحث الثاني: أركان الحواروشروطه وآدابه

المطلب الأول: أركان الحوار

إن لفظ الحوار أو المحاورة ذكر في القرآن الكريم في عدة مواضع، وبتتبع أماكن وروده واستقرائه تبيّن أن المحاورة لا تفتقد أحد العناصر الآتية: المحاوِر، والمحاوَر، وموضوع الحوار، وأسلوب الحوار. ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ الكهف: ٣٤، يرى أن في الآية: المحاوِر (بكسر الوار)، والمحاوَر(بفتح الواو)، وموضوع الحوار.

(1) المحاور: على وزن (مفاعل) بكسر العين، وهو اسم الفاعل للفعل حاور، وهو أحد طرفي المحاورة، وهو الذي قصد المحاورة وشرع فيه، والمحاور الناجح هو الذي يجيد كيفية استعمال أساليب الحوار النافع((10)).

(2) المحاوَر: بالفتح، وهو الطرف الثاني في المحاورة، أى الذي يوجه إليه المحاوَر.

(3) موضوع الحوار: وهو المسألة التي يتداول الحديث حولها. وقد يكون الموضوع أمرا أُسريا، أو عقديا، أو سياسيا، أو غير ذلك.

(4) أسلوب الحوار: وهي طريقة تداول الكلام بين المحاورين، وهذا يكون مرنا وموضوعيا، فإذا لم يكن كذلك تحول إلى الجدال أو المناظرة.

المطلب الثاني: شروط الحوار

يشترط في الحوار ما يلي((11)):

(1) تحديد موضوع الحوار

(2) التركيز على موضوع الحوار واجتناب الاستطراد إلا عند الحاجة

(3) إعطاء معلومات الحوار

(4) ابتعاد التجريح

(5) حسن إدارة الحوار

توضيح الشروط:

- **الشرط الأول والثاني:** إن موضوع الحوار هو المسألة التي يتداول الحديث حوله، وهذا الموضوع قد يكون سياسيا، أو فقهيا، أو اقتصاديا، أو غير ذلك. فإن مما يفسد الحوار أو يجعله عديم الفائدة عدم التركيز على موضوع الحوار. فإذا لم يركز المتحاورين على موضوع النقاش، وأصبحوا يخرجون من موضوع إلى آخر، فهذا سينتج عدم الوصول إلى الغاية في الحوار، بل يجعل الحوار شبه عديم الفائدة أو ضياعا للوقت. وحتى ينتج الحوار ثماره فلا بد

من تحديد موضوع الحوار والتركيز عليه.ويراد بالتركيز،الابتعاد عن الاستطراد الذي يعكر صفاح جو الحوار أو يحوّل موضوع االحوار إلى أمر آخر لا علاقة له بأساس الحوار.

- **الشرط الثالث:** إعطاء معلومات الحوار أمر مهم للغاية، وتظهر أهميته في أن أطراف الحوار لا يتجاوب بعضهم مع البعض الآخر ما لم تكن معلومة الحوار واضحة لدى أحد الأطراف. إن المحاوِر(بالكسر) قد تكون صورة الموضوع واضحة لديه، بصفته أنه هو الذي بدأ الكلام، أو أنه هو الذي أتى بموضوع الحوار، ولكنه إذا عجز عن بيان هذه المعلومة التي تكمن في صدره بالصورة الواضحة التي يفهمها الطرف الثاني، فسيكون الحوار غير منتج. يرُى أن الحوار طريقة من طرق الحلول للمشكلات الاجتماعية، بل هو من أسباب التعايش السلمي بين الشعوب، ولكن النجاح في استخدام الحوار كوسيلة لحلول المشكلات الاجتماعية تنبني على حسن آداء المحاور أسلوب الحوار الناجح، وهنا نرى التفاوت يين المحاورين في حسن آداء هذا الأسلوب. وحتى تحل المشكلة الاجتماعية بطريقة الحوار وتسود الحياة السلمي بين الشعوب فلا بد من إعطاء المعلومات المقنعة لأطراف الحوار.
- **الشرط الرابع والخامس:** إن غاية الحوار هي الوصول إلى الحق، فإذا تخلى الحوار عن هذه الغاية انقلب إلى جدال فنزاع ثم خصومة. وكثير ما يتحول جو الحوار الهادئ إلى الخصومة إذا كان أحد طرفى الحوار يجرح الطرف الآخر، أو ينال من عرضه. فابتعاد التجريح في الحوار يراه البعض من آداب الحوار، ويراه البعض الآخر من شروط الحوار. وأيا كان فإنه من اللوازم التي يُكسِب الحوار نتيجته المثمرة.

وأما حسن إدارة الحوار فهذا من أهم الشروط التي يجب مراعته؛ لأن الحوار يتميز عن الجدال بإيجاد التكافؤ بين أطراف الحوار، التكافؤ في الصوت، بألا يرفع أحد صوته على الآخر،والتكافؤ في وقت الحديث، فلا يستولي أحد على الآخر بحيث يكون هو الوحيد الذي يتكلم. فإن لوحظ تغيير جو الحوار أو محاولة سيطرة أحد على الآخر في الكلام والذي يمكن أن يوصل إلى النزاع، فلا بد من إبجاد من سيدير مجلس الحوار بطريقة حكيمة كي يكون الحوار منتجا، فيسود السلام بين أطراف الحوار.

المطلب الثالث: آداب الحوار

إن آداب الحوار غير محصورة على عدد معيّن، بل كل الأمور الأساسية والتعاليم الدينية للخطاب النافع يعتبر من آداب الحوار. ويمكن إيراد آداب الحوار على النقاط الآتية:

(1) التأسي بالمنهج النبوي في الحوار: وهذا يتمثّل في المنهج الإلهي الذي طبّقه الأنبياء وبيّنه القرآن الكريم في آيات حوار أنبيائه مع أمتهم، تشمل هذه الآداب الإخلاص لوجه الله تعالى،والرفق مع

أطراف الحوار، والصبر معهم خصوصا عند سماع ما يورث الغضب، وسعة الصدر، والحرص دائما على بلوغ الغاية في حوار[(12)]

(2) لاستماع إلى الطرف الآخر وفهمه: إن إساءة فهم المتحاورين بعضهم بعضا تعقّد موضوع الحوار، وتحوّله جدالا ونزاعا. فيجب على المتحاورين الاستماع إلى الآخر وفهم بعضهم بعضا. قال تعالى:﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ ق: ٣٧

(3) مراعاة نبرات الصوت وحركات البدن: إن مما تجب معرفته للمتحاورين أن نبرات الصوت وحركات البدن من أساليب إقناع الآخر، فإذا ظهر في نبرات الصوت أمارة العنف والغلظة فقلما يفتح قلب المحاور للإسماع إلى محاوره، بل يجعل صدره ضيّقا لقبول قول الآخر، قال تعالى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ آل عمران: ١٥٩

(4) الالتزام بالوقت المحدد: فلا يثتأثر المحاور على غيره بالكلام؛لأن الحوار السليم لا بد فيه من تبادل الآراء والمحادثة بين الأطراف[(13)].

(5) التزام الكلام الجيد واجتناب الشتم واللوم: إن التزام القول الجيد من أدبيات الحوار،بل هو من صفات المحاور الجيد، حيث إن استعمال الألفاظ الجيدة في الحوار كان من أساليب جلب قلوب المتحاورين، وتقريب وجهات النظر إليهم. وكم من حوار مثمر سببه حسن أداء المحاور واستخدامه للألفاظ الجيدة، وكم من حروب مهلكة سببها سوء الكلام وقبيحه، وقديما قالوا إن الحرب أولها كلام.

المبحث الثالث: أنواع الحواروآثاره في تعزيزالأمن والتعايش السلمي بين الشعوب

يُرى عبر التاريخ، الدور الذي لعبه الحوار في حلول المشكلات، وتقريب وجهات النظر، وإفهام الآخر ما لم يكن يفهم. ولنا في القرآن الكريم والسنة النبوية أمثلة على هذا. ففي هذا المبحث سيتبيّن بعضا من أنواع الحوار وآثاره في تحقيق التعايش السلمي بين الشعوب في المجتمع.

المطلب الأول: أنواع الحواروأهمية التعايش السلمي في المجتمع

يختلف الحوار باختلاف أغراض المتحاورين،وكل من هذه الأنواع له غاية يرجى تحقيقها، وهذه الغاية هي الدور المراد تحصيله وراء الحوار،والأثر الذي يراد تفعيله بواسطة الحوار. فقد يؤثّر في إرشاد الناس والهداية من الضلال، كما هو في كثير من الحوار النبوي، وقد يؤثّر كذلك في الإرشاد الأبوي، كما في حوار الآباء مع الأبناء، وقد يؤثّر –كذلك- في تعزيز الأمن والتعايش السلمي بين الشعوب، كما هو الشأن في الحوار السلمي الدولي. ولكل من هذه الآثار المذكورة نماذج من الكتاب والسنة، فمن ذلك:

أنواع الحوار:

1/ الحوار النبوي في الإرشاد والدعوة إلى الله تعالى:

حاور الرسول – ﷺ- المسلم وغير المسلم، وكان الهدف العام من حواره الارشاد والدعوة إلى الله تعالى. فمن أمثلة حواره مع المسلم ما ورد في قوله تعالى ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١ ﴾ المجادلة: ١ "...وهي خولة بنت ثعلبة، التي تراجع الرسول – ﷺ- في شأن زوجها (وهو أوس بن الصامت)[(14)]". وقد سمى الله تعالى ما جري بين الرسول – ﷺ – وبين خولة بنت ثعلبة من المحادثة ومراجعة الكلام حوارا، بقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ﴾.

ومن أمثلة حواره الإرشادي أيضا: حديث أنس بن مالك – ﷺ- أنه قال:

نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال صدق، قال فمن خلق السماء؟ قال الله، قال فمن خلق الأرض؟ قال الله، قال فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال الله، قال فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك؟ قال نعم، قال وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا، قال صدق، قال فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال نعم، قال وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا، قال صدق، قال فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال نعم، قال وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا، قال صدق، قال فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال نعم، قال وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا، قال صدق، قال ثم ولى، قال والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن، فقال النبي ﷺ " لئن صدق ليدخلن الجنة"[((15))].

وهذا نوع من حواره مع غير المسلم، وهو يسترشده، وكان ﷺ يستمع إليه ويرشده بأسلوب حواري هادئ إلى أن تولى الرجل. وهناك أمثلة كثيرة من السنة النبوية والتي توضح لنا طريقة تحليل المشكلات العظام بأسلوب الحوار، وسنستخلص بعضا من هذه الأساليب لتوضيح أثر الحوار في تعزيز الأمن والتعايش السلمي بين الشعوب في المطلب الثاني من هذا المبحث إن شاء الله تعالى.

2/ الحوار الأبوي لإرشاد الأبناء:

فمن ذلك ما ثبت في قصة نبي الله يوسف - عليه الصلاة والسلام- في قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ ﴾ يوسف: ٤ - ٥. فهذا نوع من الحوار بين الابن وأبيه، وكان الأب – يعقوب، عليه السلام- يرشد ابنه ألا يذكر رؤياه لإخوته مخافة من أن

يحسدوه فيدبروا له مكيدة[(16)]. وحوار الآباء مع الأبناء له أهمية كبيرة وآثار إيجابية في بناء شخصية الأبناء، بل في تقدم المجتمعات. وكثير ما يرجع فساد الأبناء وانحرافهم اعتقاديا وسلوكيا إلى غياب الحوار بين الأولاد والأباء والأمهات، ولعل من أسباب غياب الحوار بين الآباء والأولاد هو انشغال الأبوين في الأعمال الخاصة بهم وجعل رعاية الأولاد للخادمات أو غيرهن. وهذا مما ينتج الفتنة في المجتمع، بل يورث الأمة مصائب عويصة الحلول. ولعلاج هذه المشكلة يحسن بالآباء توفير جزءا من أوقاتهم للسماع من الأولاد والرد إليهم بأسلوب يتسم بالمرونة والصداقة كما يوجد في قصة يعقوب مع ابنه يوسف عليها السلام.

3/ الحوار التعليمي:

ومن ذلك حديث عمران بن حصين، أنه قال: "قال النبي ﷺ لأبي، يا حصين كم تعبد اليوم إلها؟ قال أبي سبعة، ستة في الأرض وواحدا في السماء، قال: فأيهم تعبد لرغبتك ورهبتك؟ قال: الذي في السماء، قال: يا حصين أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك، قال: فلما أسلم حصين، قال يا رسول الله علمني الكلمتين اللتين وعدتني، فقال: قل اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي"[(17)]

وأمثلة هذا كثير في السنة حيث كان الرسول – ﷺ – يعلم الناس بأسلوب حواري. وكان هذا الأسلوب من أفضل الأساليب في التعليم؛ ذلك لما له من أثر إيجابي في ترسيخ المعلومات في أذهان المتلقي. ولكن هذا الأسلوب يحتاج إلى حسن استعمال المحاور، وإلا فقد ينقلب الحوار التعليمي إلى الكلام العادي البعيد عن الغاية التي لأجله عقد الحوار.

4/ حوار الأمن والتعايش السلمي:

وهذا، أى التعايش السلمي، من أهم آثار الحوار، فالأمن الاجتماعي والتعايش السلمي من أهم الأعمدة التي يبنى عليها المجتمع. فلو فقد الأمن في المجتمع سيحل محله الفوضى والضجيج، ومن ثم تصعب عبادة الله - التي من أجلها خلقنا - في ذلك المجتمع. وإن تعزيز الأمن والتعايش السلمي بأسلوب الحور له أصول ونماذج في الشريعة الإسلامية، في الحياة الأسرية مثلا، قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ النساء: ٣٥. قال القرطبي – رحمه الله تعالى-، قال سعيد بن جبير: الحكم أن يعظها أولا، فإن قبلت وإلا هجرها، فإن هي قبلت وإلا ضربها، فإن هي قبلت وإلا بعث الحاكم حكما من أهله وحكما من أهلها، فينظران ممن الضرر، وعند ذلك يكون الخلع[(18)].

يرى – مما سبق- أن الغاية التي يراد الوصول إليها هي الأمن والتعايش السلمي بين الزوجين، وكان القرآن الكريم يشير إلى الأسلوب المثالي لتحقيق هذه الغاية، وهو التحكيم، وحقيقة ما يحصل في مجلس التحكيم هو الحوار بين الأطراف حتى يتم بلوغ الهدف، وهو الإصلاح.

المطلب الثاني: توظيف الحوارلتحقيق التعايش السلمي بين الشعوب في المجتمع

إن من أهم وظائف الحوار للوصول على المصالح المشتركة بين الشعوب في المجتمع هو أن يلعب دوره في تعزيز الأمن والتعايش السلمي بين الشعوب، فإنه قد وردت نصوص شرعية في بيان كيفية توظيف الحوار بغية الوصول إلى العلاج للمشكلات الأسرية والتعليمية وغيرهما. وليس بغائب عن ذاكرتنا حادثة صلح الحديبية[(19)] وفتح مكة عند أول محاولة الرسول – ﷺ – دخولها. وهذا الأسلوب الحواري النافع الذي استعمله الرسول – ﷺ- لمعالجة مشكلات الأمة، لا يزال ولن يزال نافعا وطريقة لمعالجة المشكلات الدولية والسياسية المعاصرة.

لكنه يخضع النجاح في توظيف الحوار كآلة تعزيز الأمن والتعايش السلمي لحسن استعمال المحاور أسلوب الحوار، وتقيّده بآدابه، ومن هنا تبينت ضرورة العودة إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه المطهرة للاستفادة من أساليب الحوار النافع وفق شروطه وآدابه. وكل الخلافات التي تؤدي إلى إراقة الدماء بين الشعوب، أو تقاطع العلاقات بين الأمم تعود إلى أسباب مختلفة، منها التفريط أو الإفراط في استعمال الهدي النبوي لحلول المشكلات. فإذا عدنا إلى التاريخ الإسلامي نرى كيف تعامل الرسول – ﷺ- مع معارضيه من المسلمين وغير المسلمين، وكيف عالج مشكلات الاختلافات معهم حتى عم الأمن وتعايش الأمة بعضهم مع البعض الآخر في ألفة وأمان. ومن ذلك قصة حوار الرسول ﷺ مع عائشة: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّ الْيَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ، قَالَ: وَعَلَيْكُمْ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: السَّامُ عَلَيْكُمْ وَلَعَنَكُمُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ أَوِ الْفُحْشَ. قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ[(20)].

يرى في هذا النص كيف عالج الرسول ﷺ أمرا قد يحدث المشكلة بين المتعارضين،حيث ترى عائشة- ﷺ- أن مثل هذا المقام يقتضي الرد بالمثل، ويرى الرسول – ﷺ- أن المقام يقتضي ذلك لكنه بأسلوب أحسن،فبيّن لها مضمون ردّه لليهود.ولو تمسّكنا بأمثال هذه الأساليب في التعامل مع المعارضين لنا لسلمنا من كثير من النزاع.

ويستنتج من هذا أن حصول المطلوب يتحقق – بدرجة كبيرة- بلطف في الحوار دون المجاهرة بعبارات قبيحة. فإذا تمسّكنا بهذا الهدي سيعم الأمن في مجتمعنا ولو كنا مختلفين في العقائد والقبائل والألوان.

الخاتمة

من خلال هذا البحث توصل الباحث إلى أن الأمن والتعايش السلمي بين الشعوب مطلب يرغب فيه الإسلام، وأن الشريعة تحث على كل ما يتمّ به تعزيز الأمن والتعايش السلمي بين الشعوب ما لم يخالف ما شرعه الله وسنّه رسوله ﷺ.

ويفيدنا هذا البحث أن الاختلاف في الآراء أمر طبيعي، وأنه ليس بدعا بهذا الزمن، بل شيء قديم منذ خلق بني آدم. ويجب علينا التعامل مع المخالفين وفق آداب شرعية تم توضيحها في البحث. وقد خالف الرسولَ – ﷺ – أناسٌ من الصحابة، بل جادلته المرأة في شأن زوجه، ولم يقاطعها الرسول – ﷺ – بل تعامل معها بالرفق والتيسير.

والحوار من أهم الوسائل التي قررها الشارع ليرسخ به مبدأ فض النزاع وتعزيز التعايش السلمي بين الشعوب والقبائل،وذلك دليل واضح على عمق هذه الحضارة الإسلامية الغراء.

أهم التوصيات:

وفي ختام هذا البحث أوصي بما يلي:

(1) حاجة المجتمع إلى تأسيس مراكز الحوار لتوفير الحلول لما يحدث بين الأمة من المشكلات بأسلوب حواري هادئ

(2) على المؤسسات التعليمية إقامة الدورات والندوات التي يتم من خلالها تعليم حقيقة الحوار وأهميته في تعزيز الأمن والتعايش السلمي بين الشعوب.

(3) إن العنف والتشدد لأطراف الحوار يفسد أكثر مما يصلح، بل يؤدي إلى الخصومة التي لا يحمد عقباها. فيجب على المحاور مراعاة لغة الخطاب والسيطرة على الهوى والانفعال الذي يمنع الوصول إلى النصر في موضوع الحوار.

(4) ينبغي للدعاة والعلماء أن ينشروا ثقافة الحوار وأهمية التعايش السلمي في المجتمع.

وختاما، أوصي بتقوى الله ومراجعة النية في الحوار وجميع التصرفات.

المصادروالمراجع

ابن حميد؛ صالح بن عبدالله، **أصول الحواروآدابه في الإسلام**، الطبعة الأولى، الناشر: دار المنارة جدة، عام: 1415هـ - 1994م.

أبو داؤد، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، **سنن أبي داود**، رقم الحديث:2214، الناشر: دار الفكر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

بخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله، **صحيح البخاري**، رقم الحديث:6401، الناشر: دار طوق النجاة – بيروت، الطبعة: الأولى، 1422هـ

بكار، عبدالكريم بكار،**التربية بالحوار**، الناشر:مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني الرياض

بن عبد الوهاب، محمد بن عبد الوهاب بن ليمان التميمي النجدي، **بعض فوائد صلح الحديبية**، المحقق: ناصر بن سعد الرشيد، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، بدون عام النشر والطبعة.

بن منظور, **لسان العرب**، المحقق: عبد الله علي الكبير + محمد أحمد حسب الله + هاشم محمد الشاذلي، دار النشر: دار المعارف القاهرة، بدون عام النشر.

ترمذي، الإمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، **الجامع الصحيح- سنن الترمذي**، حققه وصححه عبد الوهاب عبد اللطيف، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر.

جرجاني، علي بن محمد بن علي، **التعريفات**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى، 1405هـ

حماد، سهيلة، **حوار الآباء مع الأبناء**، الناشر: مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني الرياض، الطبعة الأولى عام 1431هـ/2010م.

راغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - 1412 هـ

زمزمي، يحيى بن محمد حسن بن أحمد, **الحوار: آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة**, الناشر: دار التربية والتراث، مكة المكرمة، عام النشر: 1404هـ

سيوطي، أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، **لباب النقول في أسباب النزول**، الناشر: دار إحياء العلوم – بيروت، بدون الطبعة وعام النشر.

شويعر، محمد بن عبدالله، و القهان، عبد الله بن عمر، **قواعد ومبدئ الحوار الفعال**، الناشر: مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني،الرياض،الطبعة العاشرة، عام النشر:1431هـ - 2010م.

شيخلي، عبدالقادر، **أخلاقيات الحوار**، الناشر:دار الشروق للنشر والتوزيع، عام النشر: 1993م.

صيني، سعيد إسماعيل، الطبعة الخامسة،عام: 1429هـ **الحوار النبوي مع المسلمين وغير المسلمين**، الناشر:مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني الرياض،الطبعة الأولى عام 1426هـ

الطريقي،عبدالله بن إبراهيم بن علي،**الإسلام وحوار الحضارات**، الطبعة الأولى عام:1429هـ/2008م، الناشر:جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض.

قرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، **الجامع لأحكام القرآن**، المحقق: هشام سمير البخاري، الناشر: دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: 1423 هـ/ 2003 م.

ندوة العالمية للشباب الإسلامي، **في أصول الحوار، الطبعة الرابعة**, الرياض، عام 1416.

الهوامش:

(1): ابن منظور، لسان العرب ج/ص1042، المحقق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار النشر: دار المعارف القاهرة، بدون عام النشر.

(2): أخرجه البخاري في "صحيحه" (4 / 180) برقم: (3508) ومسلم في "صحيحه" (1 / 57) برقم: (61) وابن ماجه في "سننه" (3 / 415) برقم: (2319) والبيهقي في "سننه الكبير" (7 / 403) برقم: (15431) وأحمد في "مسنده" (9 / 5010) برقم: (21865).

(3): ابن منظور, لسان العرب ج/ص1042.

(4): راغب الأصفهانى، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن،ص:262، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - 1412 هـ

(5): ينظر: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، في أصول الحوار،ط4،ص:12,الرياض، عام 1416.

(6): الجرجاني، علي بن محمد بن علي، التعريفات ص:298، تحقيق: إبراهيم الأبياري، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى، 1405هـ

(7): المصدر السابق، ص:101، والأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج1/ص488.

(8): الشيخلي، عبدالقادر، أخلاقيات الحوار ص:12، الناشر:دار الشروق للنشر والتوزيع، عام النشر: 1993م.

(9): ينظر: زمزمي، يحيى بن محمد حسن بن أحمد, الحوار: آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة ص:3،الناشر: دار التربية والتراث، مكة الكرمة، عام النشر: 1404هـ

(10): الشويعر، محمد بن عبدالله، و القهان، عبد الله بن عمر، قواعد ومبادئ الحوار الفعال ص:33، الناشر: مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني،الرياض،الطبعة العاشرة، عام النشر:1431هـ - 2010م.

(11): ينظر: بكار، عبدالكريم بكار،التربية بالحوار ص24 – 28، الناشر:مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني الرياض،الطبعة الخامسة, 1431هـ/2010م. صيني، سعيد إسماعيل، الحوار النبوي مع المسلمين وغير المسلمين ص:323 -

325، الناشر:مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني الرياض،الطبعة الأولى عام 1426هـ الطريقي،عبدالله بن إبراهيم بن علي،الإسلام وحوار الحضارات ص49 -54،الطبعة الأولى عام:1429هـ/2008م، الناشر:جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض.

[12]: ينظر: حماد، سهيلة، حوار الآباء مع الأبناء ص:41،الناشر: مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني الرياض، الطبعة الأولى عام 1431هـ/2010م. صيني، سعيد إسماعيل، الحوار النبوي مع المسلمين وغير المسلمين، ص:321-330.

[13]: ابن حميد؛ صالح بن عبدالله، أصول الحوار وآدابه في الإسلام، ص:29، الطبعة الأولى، الناشر: دار المنارة جدة، عام: 1415هـ - 1994م.

[14]: ينظر: السيوطي، أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، لباب النقول في أسباب النزول ص:206، الناشر: دار إحياء العلوم – بيروت، بدون الطبعة وعام النشر.

[15]: متفق عليه، رواه البخاري "1/ 148، 149" في العلم، باب ما جاء في العلم، ومسلم واللفظ له "1/ 41، 42/ ح12" في الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام, وأحمد "3/ 143 و193".

[16]: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، الجامع لأحكام القرآن ج9/ص122- 126، المحقق: هشام سمير البخاري، الناشر: دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: 1423 هـ/ 2003 م.

[17]: الترمذي، الامام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، الجامع الصحيح- سنن الترمذي -، ج5/ص181، حققه وصححه عبد الوهاب عبد اللطيف، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر.

[18]: المصدر السابق، ج5/ص175.

[19]: ينظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية ج4/ص170، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1407 هـ - 1986 م.

[20]: البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله، صحيح البخاري ج8/ص85، رقم الحديث:6401، الناشر: دار طوق النجاة – بيروت، الطبعة: الأولى، 1422هـ

الانتخابات العامة في نيجيريا بيـن الفقه والواقع

نــوح عبـدالله عثـمـان
قسم الدراسات الإسلامية والشريعة، جامعة بايرو، كنو.
Email: nuhuaugiwa@gmail.com
Tel: 07033291639, 08182100982

ملخص:

تناولت الدراسة الانتخابات العامة في نيجيريا بين الفقه والواقع، في فترة ما بين 1999م إلى 2015م.وهدف الدراسة أنها تسعى إلى بيان أن مواصفات المرشحين في جميع المناصب السياسية المنصوصة عليها في الدستور النيجيري لسنة 1999، المعدل سنة 2011 لا تؤهل أحداً من الشعب حقيقة لأن يتصدى لأية مسؤلية في الدولة،كما أن الدراسة تسعى لإبراز محاسن الفقه الدستوري الإسلامي في الموضوع، ليتبناه المشرع النيجيري.وأهمية الدراسة ترجع إلى ارتباط الموضوع بآلة من آليات الحكم و هو الانتخاب، ودراسته دراسة مقارنة بين الفقه السياسي الإسلامي والدستور الوضعي النيجيري.أما المنهج المتبع في الدراسة هو المنهج الاستقرائي والوصفي فالتحليلي.والنتائج المتوقعة في الدراسة هي أن أكثر مواصفات المرشح لمنصب سياسي في الفقه السياسي الإسلامي هي إيجابيات بخلاف ما في الدستور الوضعي النيجيري فإن أكثرها سلبيات،وأن البلطجية والعرابية تهدد مسيرة الممارسات الديمقراطية في البلد،وأن مما تعانيه دولة نيجيريا ويهدد الأمن القومي إرهابا سياسيا وإرهابا اقتصاديا واجتماعيا وفكريا.

مقدمة:

الحمد لله الذي وعد فوفي،و أوعد فعفي، والصلاة والسلام على خير الورى، محمد رسول الله المصطفى، وعلى آله الأطهار وعلى أصحابه الأبرار أهل التقى، وعلى من تلى من أهل الوفى.

أما بعد: فمن آليات الحكم في الفكر السياسي الإسلامي و الفكر الديمقراطي نظام انتخابي، ينتخب الشعب مباشرة أو بواسطة أهل الحل و العقد -كما في النظام السياسي الإسلامي- من ينوب عنهم في البرلمان أو يتولى رئاسة الجمهورية أو الولاية أو المحلية في مثل نيجيريا الجمهورية الاتحادية.

ولأسباب سلبية في غايات ديمقراطية و ضعف مصدرها، و اجتثاثها من فوق الأرض ما لها من قرار أضحى ذلك الشعب الذي تبناها بآلياتها الانتخابية متحيرين، وخائفين، ومهدودين أمناً، وأرواحهم غير مصونة، وأطرافهم غير مضمونة، وضعفاؤهم لا ينصرون.

ولبيان فقه الانتخاب من منظور إسلامي و بيان واقعها في نيجيريا، قسم الباحث الموضوع على النحو الآتي:

- مشروعية الانتخابات ومقاصدها و صفات المرشحين في الفقه الإسلامي والقانون الوضعي النيجيري. هل ينتخب الحزب أم المرشح، و هل التصويت حرية أم أمانة؟
- انتخاب الأصلح فالأصلح.
- الواقع التاريخي للانتخابات العامة في نيجيريا من سنة 1999 إلى 2015.
- السلطة والمال في خدمة الحملة الانتخابية.
- دور المندوبينDelegates في الاختيار.
- مشاكل الانتخابات في نيجيريا. ثم الخاتمة و الاقتراحات.

مشروعية الانتخابات ومقاصدها وصفات المرشحين:

يتم اختيار الحاكم في الفقه الإسلامي السياسي عن طريق (البيعة العامة) من قبل الأمة. فالأمة هي صاحبة الحق الأول و صاحبة السلطة في هذا الأمر، و ذلك قبل أن يعرف الفكر الغربي الديمقراطي ما النظام الانتخابي.و يدل على ذلك:

- أولاً: اجتماع الصحابة في السقيفة، لاختيار من يتولى أمر المسلمين،و م يثبت أن أحداً ادعى أنه مرشح من قبل الرسول ﷺ، للحكم.
- ثانياً: اختيار الخلفاء الراشدين جميعاً تم بالبيعة العامة من قبل الأمة وبرضاها وموافقتها.
- ثالثاً: أجمع الفقهاء- عدا الشيعة- على أن ثبوت الإمامة يكون بالاختيار لا بالنص والتعيين.(1)
- رابعاً: يتوجه القرآن الكريم في كثير من آياته بالخطاب في الأمور العامة إلى الجماعة الإسلامية كلها، وما هذا إلا لأنها صاحبة الحق في تنفيذ الأوامر والرقابة على القائمين بها، وهذا بيقين مظهر السيادة والسلطاة.

من هذه الآيات قوله تعالى:ُ ن □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ يم ي □ □ □ □ ً المائدة: ٣٨. والشاهد من الآية الكريمة أ، الله تعالى وجه الخطاب للأمة في أمر من الأمور العامة وهو إقامة حد السرقة، يقوم بتنفيذها ولي الأمر نيابة عن الأمة.

وكذالك الآيات التي فيها الأمر بأداء الأمانات، والحكم بالعدل وتنفيذ الحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول الدكتور محمد يوسف موسى: "وفي توجيه القرآن الخطاب إلى الأمة، دلالة على أن الأمة هي التي تحمل مسؤولية إقامة الدين ورعاية المصالح العامة، فتكون إذاً هي مصدر السيادة العليا لقاء ما تحمل من المسؤولية الكبرى."(2)

وأما مقاصد الانتخاب سواء في مرحلة الولاية كانت أو النيابة من حيث الجملة فهو انتخاب من يقوم بحراسة الدين وسياسة الدنيا بالدين، ولم يعرف الفكر الإسلامي السياسي فصل الدين عن الدولة (العلمانية). وبعبارة أخرى انتخاب من يقوم بحفظ الضرورية الخمسة، (الدين، و النفس، والعقل، والمال، النسل،) ومكملاتها، وهناك مقاصد فرعية، وهي إقامة العدل ورفع الظلم، وجمع الكلمة، وعدم الفرقة، وعمارة الأرض، واستغلالها.

مواصفات من يستحق أي منصب سياسي ويتأهل لها

فالرئاسة وكذلك النيابة أمانة صعبة الأداء ولا ينجح إلا من أخذها بحقها وأدى الحقوق، وهي مسئولية لا مسئولية بعدها، وهي زمام وضمان الأمن والسلام، ومنها تطيب العيش أو تكدر، وهي حماية المصالح العامة والخاصة للأمة، ولا يجوز أن يخوض في شأنها الضعيف.

وبناء على هذا وضعت شروط يجب على من يتصدى لأي منصب سياسي أن يوفرها، وهي حسب العموم والخصوص والموضوع، وهي:

(1) العدالة والعلم المؤديان إلى اجتهاد في النوازل.

(2) سلامة الحواس من سمع وبصر ولسان.

(3) الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير مصالحهم ومعرفة احتياجاتهم وتلبيتها ورفعة مستواهم.

(4) الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدوى.[3] قَالَ تَعَالَىٰ: □ نى ني □ ير □ □ ين □□ □ □ □ □ □ □ بج بح بخ بم بهّ البقرة: ٢٤٧

(5) التخصص: قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: □ □ □ □ □ □ □ بر □ □ بن ً يوسف: ٥٥

(6) الأصلح. وسيأتي الكلام في انتخاب الأصلح فالأصلح.

(7) الأمانة: وقد أجمع المسلمون على ذلك، وعلى اشتراطها فيمن يتولى عملاً حتى وصى اليتيم وناظر الوقف ووكيل الرجل في ماله، فيجب أن يكون أميناً فلا يغش ولا يخون. قَالَ تَعَالَىٰ: □ □ □ يم يي □ □ □ □ □ ٌ ٍ َ ً الأنفال: ٢٧

(8) إرادة الخير للأمة والرفق والعطف والرحمة والكرم.[4]

(9) العزيمة والعفة: ولكل منصب سياسي قويه، والقوة أيضًا ترجع إلى العدل والعلم وتنفيذه، والقدرة على تنفيذ الأحكام وتحمل تبعاتها.[5]

أما بنسبة للقوانين الوضعية النيجيرية فقد افترض على من يتصدى لأى منصب أن يتحلى ببعض صفات و يتخلى عن بعض، قانوناً.

ومن صفات إيجابية: أن يكون مواطناً، بالغاً أربعين سنة من عمره للرآسة الجمهورية، وخمساً وثلاثين في مجلس الشيوخ، وثلاثين سنة لمجلس النيابة. وأن يكون مثقفاً قد تعلم حاملاً على الأقل شهادة الدراسة، وأن يكون عضواً مسجلاً في حزب سياسي معترف به قانوناً.

وليس بمؤهل و لا بمستحق بأن يشترك أو يرشح نفسه لأي منصب سياسي من الأعلى إلى الأدنى كل من:

- كان محكوماً عليه بعتاه أى أنه معتوه أو غير سليم، من جهة معتبرة قانوناً في أى مكان في نيجيريا.
- من حكم عليه بالموت مفروضاً من أية محكمة نيجيرية، أو حكم عليه بالسجن أو بالغرامة من أجل ارتكاب جريمة الخيانة أو الخداع أو أية جنحة في مكتب فرضت عليه المحكمة.
- من وجد بمخالفة سلوك في اللائحة تحت لائحة سلوك مكتب ومحكمة بقرار 1989.
- من لم يتخل عن وظيفته قبل الانتخاب بثلاثين يوماً.
- من لم يتفرغ من تفليس حكم عليه من أية جهة في نيجيريا.
- من كان في حركة سرية أو جماعة سرية.
- من كان في استجواب أمام المحكمة من أجل اختلاس المال العام أو رشوة أو خداع أو متهماً أمام أية جهة قانونية.
- من وجد بجريمة حيازة مخدرات أو مادة مزيلة للعقل بحكم محكمة في نيجيريا أو في الخارج.
- أو من حكم عليه بجريمة خيانة في أية محكمة نيجيرية.
- من قدم شهادة مزورة.
- من كان مطروداً أو مرفوضاً من وظيفته.(6)

وبإنعام النظر إلى هذه المواصفات والمؤهلات بين التفكير الفقهي الإسلامي والتفكير الوضعي فرق واضح، و بون بعيد في الدقة، حيث كان ما عند الفقه الإسلامي إيجابياً، وأكثر ما في الفقه الوضعي سلبياً، وليس من اللازم لمن تخلى عن تلك السلبيات المنصوصة عليها قانوناً أن يكون أهلاً لأداء تلك الأمانة ولتحقيق غايات السلطة، والقيام بواجباتها ديناً و دنياً، كما هو في الواقع.

أما كيفية الانتخاب، فإن أمر تعيين ذي سلطة راجع للأمة، فهي صاحبة الحق الشرعي في نصبه عن رضا واختيار، خاصة وقد ترك رسول الله ﷺ الأمر شورى من بعد ولم يحدد أحدًا.[7]

انتخاب الرئيس قضية اجتماعية تحكمها شروط معينة وهي اختيار أفضل الأمة وأكثرها قياماً بواجباتها الدينية والدنيوية.

يقول البروفيسور زكريا: لم يتمحص الفكر السياسي في الإسلام، ولا حتى ممارسة العملية في عهد الخلفاء الراشدين عن أسلوب واحد بعينه في كيفية اختيار الخلفاء والأمراء أو حتى الوزراء، مما جعل الأمر مفتوحًا للاجتهاد في كل زمان ومكان.(8)

أما هيئة الانتخاب الوطنية المستقلة فقد نصت على مبدئ توجيهي وكيفية إجراءات الانتخابات، من ضوابط الناخب في محطة التصويت Polling Station وواجبات رئيس الجلسة للانتخاب presiding officer وكل ما يحقق العدالة وهدوء النظام العام، مما لا مجال هنا لإيرادها بكل التفاصيل في مثل هذه الورقة. (9)

وحزب الشعب الديمقراطي PDP هو الحزب الحاكم منذ سنة 1999 إلى 2015 لم يزل يترأس الجمهورية الاتحادية في أربع تداولات سلطوية بثلاث رأساء (أوليسغن أباسنجو، وعمر موسى يرأدوا، وغدلوك أبيلا جنثن).

هل ينتخب الحزب أم المرشح،وهل التصويت حرية أم الأمانة؟

والأصل في النظام الديمقراطي الذي يعترف بالتعددية أن يكون لكل حزب سياسي أهداف ومقاصد يروجها في الناس، ويقنعهم فيها، فإذا رضوا عنه واختاروهم سار الحزب على عقائده وأفكاره وخططه المرسومة إلى أن يحقق ما كتب له من أهداف، ولعل هذا ما يجرى في الغرب الأوربي.

أما في بلدنا نيجيريا فالأمر بخلاف ذلك، فرئيس الدولة يسيطر على الحزب ويستبد، وكذلك الوالي على المستوى الولائي.

وبناء على هذا فنحن في نيجيريا ينبغي أن ننتخب المرشح قبل الحزب، وهو أقرب إلى الفكر السياسي الإسلامي لأنه، دائما يتحدث عن المواصفات الرئاسية التي تجب على من ينتصب أي منصب. و أما طلب المرشح من الشعب أصواتهم فهو طلب لحزبه.

أما التصويت فقد شاع في الشعب في الفكر الديمقراطي أن التصويت حرية وحق، صحيح وإن كان حقًا سياسيا، فإنه لا يجوز أن يفهمه العامة هذا الفهم الخاطئ، حيث تجد منهم من يبيع تصويته بثمن بخس دراهم معدودة، وآخر يصوت من ضره أكثر من نفعه، وبعض يمتنع من الانتخاب بدعوة ضعيفة وبشبهة.

ولكن الحقيقة أن التصويت أمانة، لأن الرئاسة أمانة والتصويت والانتخاب من الشعب هو الوسيلة إليها ووسيلة الواجب واجب، نصب الحاكم واجب من واجبات الدين، ولوسيلته حكمه، وقد نص على هذه الحقيقة صاحب الشريعة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ﴾ (النساء:58). يقول النبي ﷺ: "إنها الأمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها".[10]

وقال ﷺ: "من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلًا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين"[11] وإن كان الحديث ضعيفاً من حيث الرواية فإنه مؤيد بنصوص مثل قوله تعالى: ﴿ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ﴾ الأنفال: ٢٧ وإن كان منطقة الحديث هو الحاكم في تعيين العمال و الأعوان فإنه منطبق على الشعب في انتخاب الرؤساء و النواب، فيا جماعة إنها أمانة وتكاليف، وليست شرفًا وتجارة فقط.

انتخاب الأصلح فالأصلح:

قد يوجد بين المرشحين أصحاب الكفاءة الذين توفرت فيهم كل الصفات أو أكثرها أو متقاربون فيها، فإن كانوا من حزب واحد فهنا يبرز دور مندوبي الحزب delegates فعليهم أن يختاروا من هو أصلح من بين مرشحي أحزابهم، والصلاح بحسب المنصب وثقله وخطورته. و بعد ذلك ثم يأتي دور الشعب، فيختارون من هو أقرب إلى الصلاح.

ومعيار ذلك هو القوة والأمانة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ﴾ البقرة: ٢٤٧ قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ﴾ يوسف: ٥٥و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ﴾ القصص: ٢٦

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: اجتماع القوة والأمانة في الناس قليل، ولهذا كان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: "اللهم أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة". فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها، فإذا تعين رجلان: أحدهما: أعظم أمانة والآخر: أعظم قوة قدم أنفعها لتلك الولاية وأقلها ضررًا فيها.[12]

وقد قال النبي ﷺ: "إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر".[13] وفي رواية "بأقوام لا خلاق لهم"(14)

ومعرفة الأصلح يكون بمعرفة مقصود الولاية ومعرفة طريق المقصود، فإذا عرفت المقاصد والوسائل، تعرف الأصلح فالأصلح.

يقول شيخ الإسلام: لما غلب على أكثر الملوك قصد الدنيا دون الدين قدموا في ولايتهم من يعينهم على تلك المقاصد، وكان من يطلب رئاسة نفسه يؤثر تقديم من يقيم رئاسته.[15]

هذا هو واقعنا اليوم، ترشح الطبقات الارستقراطية النبلاء Noblemen, Aristocracy من يعينهم على مصالحهم الخاصة، وكذلك كثير من الأفراد والأعضاء في الحزب يبايعون من يعطيهم في العاجل.

الواقع التاريخي للانتخابات العامة في نيجيريا من سنة 1999 إلي 2015.

- **الخلفية:**

ينتخب رئيس الجمهورية والمجلس الوطني جميعاً الشيوخي والنيابي من قبل الشعب النيجيري، لمدة أربع سنوات لكل فترة حكم، (tenure) ولمجلس النيابة البرلمانيHouse of Representatives ثلاثمائة و ستون 360 مقعداً،و لمجلس الشيوخ Senate مائة و تسعة 109 ممثلاً، وهذه المقاعد لمجلس الشيوخ موزعة على عدد ولايات الدولة وهي ست وثلاثين 36 على السوية، لكل ولاية ثلاث مقاعد، والواحد للعاصمة أبوجا، و توزع تلك المقاعد الثلاثة في الولاية، لكل منطقة الدائرة الانتخابية الثلاثة في الولاية 16).Senatorial Districts)

- **الانتخاب العام لسنة 1999:**

انعقد الانتخابات العامة لسنة 1999 في شهر فبراير، شارك في انتخاب الرئاسة الجمهورية كل من أوباسنجو Obasonjo من حزب الشعب الديمقراطي PDP وأولو فالايي من حزب النشاط الديمقراطيAD، ومجموع الناخبين المسجلين 57,938,945، ومجموع التصويت الساري المفعول 29,848,441، و التصويت المرفوض 431,611.

فاز فيه أولوسيجون أوبا سنجو ب18, 738 ,154) 62. 78٪ (بينما أولو فالايي Olu Falae حاز 37.22٪ 110,287) (11..

أما انتخاب مجلس الشيوخ Senators فقد حاز حزب الشعب الديمقراطي PDP أكثر عدد المقاعد 56.4٪ (59)، و لحزب جميع الشعب 29) 31.2 APP)مقعداً، وللتحالف الديمقراطي 12.4 (20) AD، و بقي مقعد واحد شاغلاً ((Vacant

وفي مجلس النيابة كان ل 206) PDP 57.1) مقعداً. و ل 30.6 (74) APP مقعداً ول 12.4 AD (68)fمقعداً.(17)

الانتخاب العام لسنة 2003:

انعقد في شهر أفريل، شارك فيه واحد و عشرون حزباً سياسياً رسمياً، ومجموع الناخبين المسجلين 60,823,022، ومجموع التصويت الساري المفعول39,480,489 والتصويت

المرفوض2,538, 246 وفاز فيه الحزب الحاكمPDP، حيث استمر أوباسنجو Obasonjo ب 61.94 (24,456,140). بينما محمد بحاري Buhari من الحزب المعارض (حزب جميع الشعب النيجيري) ANPP حاز (12,710,022) 32.19٪. وباقي التصويت للأحزاب الأقلية.(18)

الانتخاب العام لسنة 2007:

انعقد في شهر أبريل 21 شارك فيه خمسة و عشرون حزباً سياسياً رسمياً،ومجموع الناخبين المسجلين 61,567,036، ومجموع التصويت الساري المفعول 35,397,517. وفاز فيه عمر موسي يرأدوا من الحزب الحاكم PDP ب(24,638,063) 69.60٪ ومحمد بحاري من الحزب المعارضANPP حاز 18.66٪ (6,605,299)وما تبقى من التصويت فللباقي من الأحزاب الأقلية. (19)

الانتخاب العام لسنة 2011:

انعقد في شهر أبريل 16، شارك فيه واحد و عشرون حزباً سياسياً رسمياً، و مجموع الناخبين المسجلين 73,528,040 ومجموع التصويت الساري المفعول 39,469,484وفاز الحزب الحاكم برآسة الجمهورية بانتخاب غدلوك Good luck ب58.89٪ (22,495,187) و أغلبية المجلس الوطني، ولمحمد بخاري من الحزب المعارض31.98٪ (12,214,853) وما تبقى لبقية الأحزاب.(20)

الانتخاب العام لسنة 2015:

انعقد في شهر مارس 28 شارك فيه أربعة عشر حزباً سياسياً رسمياً، و مجموع الناخبين المسجلين68.833,476، و مجموع التصويت الساري المفعول (لم أقف عليه) و فاز فيه الحزب المعارض APC برآسة الجمهورية بانتخاب محمد بحاري رئيس الجمهورية ب 52.41٪ (15,424,921) صوتاً، بينما انهزم الحزب الحاكم بتخبيب الرئيس الفاشل غدلوك ب 43.67٪ (12,853,162) وكذلك حاز الحزب المعارض بأغلبية مقاعد المجلس الوطني,225 مقعداً من 360 في البرلمان، Rep و60 مقعداً من 109 في مجلس الشيوخ Senate).21)

ومما يلاحظ في هذه الانتخابات العامة في نيجيريا:

إن التواريخ الانتخابية العامة غير منضبط شهراً ويوماً بل هي قابلة للتعديل.

إن الانتخاب العام لسنة 2015 يؤكد التهمة بالتزوير الانتخابي من قبل الحزب الحاكم في سوابق الانتخابات نظراً للأرقام من حيث تكاثر الناس و انفتاحهم و اهتمامهم بالانتخاب وثوراتهم أكثر من السابق

أجريت خمس انتخابات منذ إعادة الحكم إلي المدنيين 1999.2015 فاز الحزب الحاكم بثلاثة منها بعد الدور الأول، و فاز الحزب المعارض في الأخير الذي هو أرضى للشعب النيجيري و أبلى فيه بلاءً حسناً والذي يعتبر ثورة سلمية يرجو الشعب أن يكتب لها نجاحاً وإصلاحاً جذرياً، إن شاء الله.

السلطة و المال في خدمة الحملة الانتخابية:

يقول بطرس غالي ومحمود خيري: ظهرت مشكلة تمويل الأحزاب بتطور الأحزاب القومية التي ينتمي إليها ملايين الموظفين،ومثل هذه الأحزاب في ماسة إلي ميزانية ضخمة لتسد نفقات مكاتبها المنتشرة في جميع الأقاليم، وكذلك لدفع مرتبات موظفيها الدائمين، ولكن أهم بند يستنفد ميزانية الأحزاب هو بند الحملات الانتخابية.(22)

وممن يمول الأحزاب السياسية للوصول إلي السلطة . و خاصة الدول الإفريقية . المنظمات الأجنبية أصحاب المصالح في الدولة للمحفظة على مصالحهم،و ذلك من وراء الستار. وفي أحيان أخر تلجأ الحكومات الأجنبية إلي تمويل الأحزاب السياسية مباشرة.(23). ما في الواقع النيجيري فإن الحزب الحاكم هو الذي يمول حزبه على حساب الأموال العامة ثم ينبع ذلك بالسلطة يدعم بها حملاته الانتخابية،ثم أصحاب المصالح.

دور المندوبين Delegates في التعيين:

نيجيريا دولة ذات تعددية سياسية، لكل حزب سياسي مرشح في مختلف المناصب السياسية في الدولة على المستوى الفيدرالي والولائي و المحلي، ولكن قبل أن يتنافس المرشح في أي نوعية الانتخاب العام و غيره، لا بد من فوزه في الانتخابات الحزبية الداخلية، إن كان له منافس آخر،و من هنا يبدو دور المندوبين المنتخبين من قبل أعضاء الحزب، و هؤلاء المندوبون من كل حزب هم الذين يعينون للشعب ممثلي أحزابهم للتنافس الانتخابي،و بأدنى تأمل ندرك أن هؤلا المعينين هم الناخبون، إذ أنه لا بد للشعب من انتخاب من عينوه صالحاً كان أو طالحاً.

الخاتمة:

تختتم هذه الدراسة بنتائج آتية:

- إن الأمة هي صاحبة السلطة في اختيار الحاكم في الفقه الإسلامي السياسي، و كذلك في الفكر الديمقراطي.
- من مقاصد انتخاب الحاكم في الفكر السياسي الإسلامي اختيار من يقدر ويقوم بحراسة الدين وسياسة الدنيا بالدين من غير أي فصل بينهما، بخلاف الفكر الغربي الديمقراطي، فإنه علماني الفكر.
- هناك صفات وشروط يجب أن توفرها في كل من ينتخب لأي منصب سياسي، في الفقه الإسلامي والقانون الانتخابي الوضعي النيجيري، وإن كان ما في الفقه الإسلامي أدق.
- إن الرياسة والتصويت أمانة، وعلي ذلك ينبني التعيين واختيار المرشح، لا الحرية بمعناها الشائع.
- وجوب انتخاب الأصلح فالأصلح.
- دلت الأصوات والأرقام الانتخابية في الواقع النيجيري ما بين السنة 1999 إلى السنة 2011 بالمقارنة للانتخاب للسنة 2015 على تأكد التهمة على التزوير و الظلم الانتخابي فيما قبل2015.
- إنفاق الأموال الطائلة واستخدام السلطة في سبيل الوصول إلى مصالح الدولة.
- تعاني الانتخابات النيجيرية مشاكل تدعو الحاجة إلي القضاء عليها، اسقاماً لسياسة الدولة وللأمن والسلام القومي.وتعاني الانتخابات النيجيرية ويلات الفوضى من قتل وإحراق الأموال والشوارع أيام الحملة الانتخابية، أثناؤه وبعده، كما أنها متأثرة بما في البلد من تعددية عرقية و دينية و جغرافية السياسية، ومن هذه المشاكل من حيث الجملة:
- رشوة وسحب بقوة.
- اختطاف المسؤولين عن الانتخاب و العمال.
- اختطاف الأدوات الانتخابية.(24)
- استخدام البلطجية السياسية
- الاستبداد السياسي من الحزب الحاكم
- الظلم والتزوير الانتخابي
- إعمال رجال الأمن من شرطة وقوات مسلحة ضد أي مخالف أو معارض لمصلحة الحزب الحاكم.

اقتراحات:

- إعادة النظر إلي المواصفات و الشروط المفروضة على المرشحين، و ذلك من حيث الدقة و التركيز على الإيجابيات، من رحمة وعدالة وشجاعة أكثر من الجوانب السلبية.
- أن يقتبس المشرع النيجيري من الفقه الإسلامي، ولاسيما من المواصفات و الشروط للمرشح.
- أن يسن المشرع قوانينا تنص على صفات وشروط محققة للغاية التي تجب على من يكون مندوباً في الحزب، حتى يختار من هو أصلح لمهام ومصالح الأمة والشعب ككل.

- بث الوعي السياسي بصفة عامة والوعي الانتخابي بصفة خاصة في الشعب النيجيري، و ذلك بتوفير الطاقات العلمية والإرشادية والثقافية في أفراد الشعب، تحقيقاً للأمن والسلام القومي.
- على المواطنين الصالحين مشاركة سياسية بجميع معانيها بكثافة. ومحاولة السيطرة على الحزب، والبحث عن المستحقين للترشيح لتعيينهم والوقوف معهم.
- البحث عن الطرق الأفضل في إجراءات انتخابية، وكذلك عن الأدوات والآلات الانتخابية.
- إدانة مجرمي الانتخابات وعقوبتهم علنة زجراً وردعاً أو نذراً.

المصادروالمراجع:

(1) عبد الحميد الأنصاري (الدكتور)، نظام الحكم في الإسلام، الدوحة، دار قطري بن الفجاءة، 1405)، الدولة الإسلامية هـ- 1985م، ص 129-131.

(2) عبد الحميد، نظام الحكم في الإسلام، ص 131.

(3) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط التفيقية، ص 6.

(4) زكريا بشير إمام (البروفيسور) مدخل إلى النظرية السياسية في القرآن الكريم، السودان . الخرطوم. دار الهزابر، ط1 1999م، ص 108.

(5) توفيق الواعي (الدكتور)، الدولة الإسلامية بين التراث والمعاصرة، بيروت، ط1، 1416هـ. 1996.

(6) توفيق الواعي، الدولة الإسلامية، ص223.

(7) 2011 Amended constitution of the F.R.C, 2011 p. 56 and 81

(8) زكريا بشير، مدخل إلى النظرية السياسية، ص 108.109.

(9) Federal Republic of Nigeria, electoral Act 2010, p. 66-67 and INEC Law p. 22-42

(10) أخرجه مسلم (1825).

(11) أخرجه الحاكم 93/4.

(12) شيخ الإسلام ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي و الرعية، شرح العثيمين، القاهر، ط1 دار الجديد،1428هـ. 2007م، ص47.

(13) أخرجه البخاري، (3062).

(14) أخرجه النسائي في الكبرى (8885)، و أحمد (19941) و صححه العلامة الألباني في الصحيحة (1649).

(15) ابن تيمية، السياسة الشرعية، المرجع السابق، ص47.

(16) 2011 Amended constitution of the F.R.C, 2011 p.49 - 50

(17) Wikipedia, elections in Nigeria.

(18) Wikipedia, elections in Nigeria.
(19) Wikipedia, elections in Nigeria.
(20) www. Vanguard ngr. com
(21) en.m Wikipedia org/--/Nig general election
(22) بطرس غالي و محمود خيري، المدخل في علم السياسة، مكتبة الانجلو المصرية ط1 1998 ص318.
(23) بطرس غالي و محمود خيري، المدخل في علم السياسة، ص318.
(24) en.m Wikipedia org/--/Nig general election

أساليب حوار الأديان من خلال بعض من الآيات القرآنية والسنة النبوية

إعداد
دكتور أمين علي غيا
و
الدكتور عبد الرؤوف ثاني عيسى

محاضران بجامعة سعادة ريمي للتربية ولاية كنو نيجيريا
قسم الدراسات الإسلامية
رقم الهاتف: 08036200815 – 08035062404
البريد الإلكتروني: aminualiyu2000@gmail.com

Comment [H12]: لا تحتاج المقالة العلمية الأكاديمية غلافاً، وإنما يضع الباحث عنوان المقال، واسمه، ورقم هاتفه، وبريده الإلكتروني، والمؤسسة التي ينتمي إليها في أعلى صفحة الملخص.

ملخص المقالة:

فقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يبعث إلى الناس أنبياء ورسلا ينذرونهم ويبشرونهم ويدعونهم إلى عبادة الله الواحد القهار قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ فاطر: ٢٤، فكان الأنبياء والرسل عليهم السلام يعملون بجد ولا يألون جهداً ولا يدخرون وسعاً في تبليغ الدعوة إلى أقوامهم ويبدوا ذلك جليا في حواراتهم التي وردت في القرآن الكريم، معتمدين في ذلك على الحوار منهجا لتحقيق الغاية الكبرى والمتجلية في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ الذاريات: ٥٦ وإن سور القرآن الكريم حافلة بالآيات المتضمنة لحوار الأنبياء مع أقوامهم وخصوصا ما سورة الشعراء. وشاء الله بحكمته البالغة أن يختلف البشر في اتباعهم لأنبياء الله ورسله، فمنهم شقي وسعيد، وأرسل الله الأنبياء يقيمون حجته على خلقه، يدعونهم إلى دين الله الذي ارتضاه لخلقه ديناً ليكونوا من السعداء، ويحذرونهم من عصيان أمره حتى لا يكونوا من الأشقياء، ولكن إرسالهم لن يمنع تحقق ما قد سبق في علم الله، فإن أكثر الناس لا يؤمنون ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ يوسف: ١٠٣. وحين يعرض الناس عن دعوة الله ولا يؤمنون بها، فإن المسلم لا يتوقف عن التفاعل مع الآخرين اجتماعياً وحضارياً، رائده في ذلك كتاب ربه، وأسوته نبيه، إذ القرآن أمر بالإحسان إلى الوالدين والجار، ولو كانوا على غير دين الإسلام، كما حثّ على البر وحسن العشرة مع الذين لم يتصدوا لمقاتلة المسلمين والاعتداء عليهم، كما كانت حياته نبراساً في التسامح وحسن التعايش مع الآخرين، ممن اختاروا إلفهم من العقائد والأديان. واليوم وقد أصبح العالم قرية صغيرة تتلاقح فيها الثقافات عبر وسائل الإعلام المختلفة، تزداد الحاجة إلى الحوار، وإلى ضرورة تأصيله من الناحية الشرعية، والمسلمون حين يمارسونه هم بأمسّ الحاجة إلى معرفة مسوغاته

Comment [H13]: ينقل الباحث الآية من المصحف

Comment [H14]: ينقل الباحث الآية من المصحف

الشرعية وآدابه ومحظوراته. وإسهاماً منا في هذا الباب نضع بين يدي القارئ الكريم هذا الجهد المتواضع، والذي نرجو أن يعالج بموضوعية علمية هذه المسألة الشائكة، التي كثر الجدال حولها بين مؤيد مندفع ومعارض متشكك، طما أن الباحث سيعالج جميع معلومات هذه المقالة على المنهج الوصفي، لأنه يساعد الباحث وكذلك القارئ حتى يصل إلى المراد.

المقدمة:

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا ند ولا صاحبة ولا ولد، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله وأمينه على وحيه، وخيرته من خلقه، جاء بالحنيفية السمحة، ودعا إلى الوحدانية الخالصة، وشهد للأنبياء السابقين كما شهدوا له وبشروا به، وبرأ ساحتهم مما أُلصق بهم زورا وبهتانا، فصلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا، ورضي عن أصحابه وأتباعهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الرسل جاءوا بالهداية التامة والمنهج المستقيم، فمن سار على منهجهم نجح وأفلح، ومن تنكب الصراط؛ خاب وخسر، والبشرية اليوم – إلا ما رحم ربي - وقد تنكبت صراط باريها، وخالفت سنن الفطرة؛ فقد وردت المورد الذي لا بد لها منه، ووجدت سوء ما حُذّرت منه، وكثرت الفتن، وعم الهرج، واضطرب الأمن... وأصبح الحليم حيرانا، وتعددت الحلول، واجتهد المفكرون في تلمس المخرج ولكن لا مخرج إلا من خلال المخرج الذي أرشد إليه الذي خلق الحياة والأحياء.

وهذا من الدوافع التي أدت إلى كتابة هذه المقالة لينتفع بها المسلمين جميع وخاصة الدعاة، الذين ينتشر كلماتهم بين العالم الإسلامي راجيا مولى سبحانه وتعالى التوفيق والسداد، كما سيتناول الكاتب من خلالها النقاط التالية:

- النقطة الأولى: المفهوم اللغوي والاصطلاحي لكلمة الحوار، وتاريخه.
- النقطة الثانية: أهميته، والموقف الشرعي للحوار، والأسباب التي أدت إلى الحوار.
- النقطة الثالثة: آداب الحوار شروط في القرآن الكريم.
- النقطة الرابعة: نماذج من حوار الأنبياء في القرآن.
- الخاتمة، نتائج البحث، التوصيات والاقتراحات، ثم قائمة المصادر والمراجع.

النقطة الأولى: المفهوم اللغوي والاصطلاحي لكلمة الحوار وتاريخه.

تعريف الحوار: في اللغة: أصل كلمة حوار (ح- و-ر) بفتح الحاء وسكون الواو من الحور وهو الرجوع، ومنه الحديث الشريف: (ومن الحور بعد الكور) [(((1)))]. ومنه أيضاً كما عند المناوي في

H15] Comment]: هذا كلام عام، ولا يخص موضوع البحث، يحتاج الباحث إلى إعادة النظر في هذه المقدمة وكتابتها من جديد حتى تحتوي على محتويات المقدمة

H16] Comment]: لا تعاكس هذه النقاط عنوان البحث، ولم نجد نقطة تحدث فيها الباحث عن أسباب حوار الأديان الذي هو لب الموضوع، ولذلك يجب إدخاله في نقاط البحث أو تعديل العنوان.

H17] Comment]: يجب على الباحث إعادة كتابة التوثيقات كلها، حتى توافق ما قررتها اللجنة أو كما فعل الباحث بنفسه في قائمة المراجع.

التعاريف: التردد بالذات أو بالفكر، ومنه حديث: (اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور)، أي من التردد في الأمر بعد المضي فيه، أو من نقصان وتردد في الحال بعد الزيادة فيها، والمحاورة والحوار المراددة في الكلام، ومنه التحاور [(2)]. وهم يتحاورون أي يتراجعون الكلام، و المحاورة مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة، وقد حاوره[(3)]، وفي لسان العرب أنَّ الحور بفتح الحاء وسكون الواو وضم الراء يعني الرجوع عن الشيء وإلى الشيء يقال حار إلى الشيء وعنه حورا ومحارا ومحارة رجع عنه وإليه. وكُلّ شيء تغير من حال إلى حال فقد حار، وفي القرآن الكريم لم يرد لفظ الحوار، وإنما ورد الفعل حاور والمصدر التحاور وذلك في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم في الآيات التالية:أولا: ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ الكهف: ٣٤.

ثانيا: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾ الكهف: ٣٧

ومما سبق تبين أن الحوار في معناه اللغوي هو مراجعة الكلام وتداوله، وهو ما يكون عادة بين شخصين أو بالأحرى بين طرفين أو أكثر.

وفي الاصطلاح: هو مراجعة للكلام بين طرفين أو أكثر دون وجود خصومة بينهم بالضرورة [(4)].

وعرّفه بسام داود عجك بأنه: "محادثة بين شخصين أو فريقين , حول موضوع محدد , لكل منهما وجهة نظر خاصة به، هدفها الوصول إلى الحقيقة , أو إلى أكبر قدر ممكن من تطابق وجهات النظر، بعيداً عن الخصومة أو التعصب، بطريقة تعتمد على العلم والعقل , مع استعداد كلا الطرفين لقبول الحقيقة, ولو ظهرت على يد الطرف الآخر". [(5)]

تاريخ الحوار

منذ سطع نور الإسلام على الدنيا أدرك المسلمون طبيعة دينهم وعالمية رسالته، فقاموا يدعون الناس إلى هديه، فبدأ الحوار بين المسلمين ومشركي قريش، وسجل القرآن في آياته الكثير من هذه الحوارات، وتولى فيها الرد على المشركين.

وكان من أهم مناسبات الحوار هجرة أصحاب النبي إلى الحبشة، وحوارهم مع النجاشي حول قول المسلمين في المسيح وأمه عليهما السلام.

وحين انتقل النبي إلى المدينة بدأ الحوار مع أهل الكتاب من قطّان المدينة المنورة، وقد نقل القرآن الكثير من الحوارات التي طَلب من النبي أن يجريها مع أهل الكتاب، والكثير منها كان يبدأ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ النساء: ١٧١ المائدة: 15، 19، 59، 68، 77).

ومن حواره مع يهود المدينة أن حبراً من اليهود يقال له مالك بن الصيف جاء يخاصم النبي، فقال له النبي: ((أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟)) وكان حبراً سميناً.

فغضب فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء. فقال له أصحابه الذين معه: ويحك، ولا موسى؟ فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء. فأنزل الله: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمُ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ الأنعام: ٩١. ((6))

وكان أهم اتصال بالنصرانية قدوم وفد نصارى نجران إلى المدينة وبقاؤهم فيها أياماً يناظرون رسول الله وقد أذن لهم رسول الله بالصلاة في مسجده، وقال لأصحابه: ((دعوهم)) ((7))، ونزل بسبب هذه الزيارة بضع وثمانون آية من صدر سورة آل عمران.

ولم تنقل إلينا كتب السنة إلا النزر اليسير عما دار بينهم وبين رسول الله ومما نقل في ذلك ما ذكره ابن جرير في تفسيره أنه جاء راهبا نجران إلى النبي، فعرض عليهما الإسلام، فقال أحدهما: إنا قد أسلمنا قبلك. فقال: ((كذبتما. إنه يمنعكما عن الإسلام ثلاثة: عبادتكم الصليب، وأكلكم الخنزير، وقولكم لله ولد)). ((8))

قال: من أبو عيسى ؟ وكان لا يعجل حتى يأتي أمر ربه، فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ آل عمران: ٥٩. ((9))

وذكر الطبري بإسناده أيضاً أن نصارى نجران قالوا: " ألست تزعم أنه كلمة الله وروح منه ؟ قال: بلى. قالوا: فحسبنا. فأنزل الله عز وجل: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ آل عمران: ٧. ((10))

لكن الذي يثير الانتباه في زيارة وفد نصارى نجران ما نقله الطبري من اجتماع النبي بهم في حضور وفد من يهود المدينة، فقد روى بإسناده إلى ابن عباس أنه "اجتمعت نصارى نجران وأحبار اليهود عند رسول الله، فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً. وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً. فأنزل الله: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ آل عمران: ٦٧. ((11))

وحين رجع وفد نجران إلى بلاده لم ينقطع حوارهم مع المسلمين، ذلك أن النبي أرسل معهم المغيرة بن شعبة، فكانوا يحاورونه ويطرحون عليه الأسئلة عن القرآن، ومن ذلك أنه أشكل عليهم مؤاخاة القرآن بين مريم وهارون، وبينهما زمن مديد، فقالوا للمغيرة: "ألستم تقرؤون: ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ ﴾ مريم: ٢٨، وقد علمتم ما بين موسى وعيسى... ". ((12)) كما استقبل النبي في مسجده عدي بن حاتم الطائي، وحاوره في أخذه المرباع من قومه، وهو لا يحل له في دينه، ودعاه للإسلام فأسلم. ((13)) واستقبل أيضاً الجارود بن عمرو في وفد عبد القيس، وكان نصرانياً؛ فدعاه إلى الإسلام، فأسلم. ((14)) كما كانت مراسلة النبي لملوك النصارى ومقدميهم نوعاً من الحوار، فقد

H18]: وثق

H19]: ينقل الباحث الآية من المصحف

H20]: ينقل الباحث الآية من المصحف

H21]: ينقل الباحث الآية من المصحف

H22]: ينقل الباحث الآية من المصحف

أرسل أصحابه بكتبه إلى النجاشي وهرقل والمقوقس عظيم القبط وهوذة الحنفي صاحب اليمامة؛ يدعوهم للإسلام.[(15)]

مع أن كتب التاريخ لم تنقل إلينا الكثير مما جرى بين سفراء النبي والمرسلين إليهم إلا أنه من المؤكد تحاورهم، إذ هو ما تقتضيه السفارة.ومما نقل في ذلك حوار حاطب بن أبي بلتعة مع المقوقس، فقد سأله المقوقس عن حرب النبي مع أعدائه، فأجابه حاطب بأنه يَغلِب ويُغلَب، فقال المقوقس: أنبي الله يُغلب؟ فأجاب حاطب: أولد الله يُصلب؟[(16)]

ومثله ما رواه ابن عبد البر في الاستيعاب من حديث حاطب بن أبي بلتعة أن المقوقس جمع بطارقته فقال: إني سأكلمك بكلام أحب أن تفهمه مني. قال: قلت: هلم. قال: أخبرني عن صاحبك أليس هو نبياً؟ قلت: بلى، هو رسول الله قال: فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه، حيث أخرجوه من بلدته إلى غيرها؟ فقلت له: فعيسى ابن مريم، أتشهد أنه رسول الله؟ فما له حيث أخذه قومه، فأرادوا صلبه ألّا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حتى رفعه الله إليه في سماء الدنيا؟ قال: أحسنت، أنت حكيم جاء من عند حكيم.[(17)]

وحين دخل المسلمون مصر وبلاد الشام تحولت تلك الشعوب النصرانية إلى الإسلام دين الفاتحين الجدد، وهذا التحول ثمرة لأسباب متضافرة، أهمها الحوار الذي شاع بين المسلمين والنصارى في تلك الربوع.

ولئن كان التاريخ ذهل عن تسجيل حوارات عوام المسلمين مع غيرهم، والذي أسفر عن دخولهم الإسلام، فإنه لم يغفل عن تسجيل الحوارات التي جرت في قصور السلاطين من المسلمين وغيرهم، ومنه حوار الخليفة هارون الرشيد مع طبيبه النصراني، واستعانته بعالم خراسان محمد بن عمر بن واقد.[(18)]

كما جمع الخليفة المأمون بين كلثوم بن عمرو العتابي وابن فروة النصراني، وتناظرا بين يديه في قول النصارى بألوهية المسيح.[(19)]

كما وفد القاضي أبو بكر محمد الباقلاني على ملك الروم في القسطنطينية بأمر من المعتضد العباسي، والحوار الذي جرى بينه وبين ملك الروم وراهبهم مشهور في كتب التاريخ.[(20)]

ونقل صاحب عيون المناظرات قصة فيلسوف نصراني قدم بغداد، وأسلم بعد حواره مع نخبة من علماء المسلمين، جمعهم الخليفة في قصره، منهم الصالحي والجبائي والكعبي والأشعري.[(21)]

وبعيداً عن قصور الأمراء تحاور العلماء المسلمون مع غيرهم، ولعل من أوائل ما نقل في هذا الصدد حوار أبي حنيفة النعمان بن ثابت مع طائفة من الملاحدة حول سببية العالم.[(22)]

وكذلك حوار الفخر الرازي الطويل مع قسيس في خوارزم في موضوعات أهمها نبوة النبي وهل معجزات عيسى تدل على نبوته أو ألوهيته؟[(23)]

H23] Comment: وثق

H24] Comment: بدون فاصل

H25] Comment: بدون فاصل

H26] Comment: بدون فاصل

H27] Comment: أخبرنا عنه

ثم مناظرة ابن القيم لأحد رؤساء اليهود حول نبوة النبي.[(24)] كما كتب العلماء العشرات من الكتب والردود على مختلف محاوريهم، فازدهر حوار الكتب، ومنه كتاب "الجواب الصحيح" لابن تيمية، وهو يرد فيه على كتاب ورد من قبرص بعنوان: "الكتاب المنطيقي الدولة خاني المبرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأي المستقيم " لراهب صيدا الأسقف بولص الراهب.

كما كتب أبو الوليد الباجي رسالة رد فيها على رسالة وجهها راهب فرنسا إلى المقتدر أمير سرقسطة يدعوه فيها للدخول في النصرانية.[(25)]

كتب أبو عبيدة الخزرجي القرطبي كتابه المشهور باسم " مقامع هامات الصلبان، ومراتع روضات الإيمان "[(26)] رداً على أسئلة كان يثيرها قسيس من القوط على نفر من المسلمين بطليطلة.

ولم تنقطع الحوارات والكتب المتبادلة بين المسلمين وغيرهم، وإن خَفَت بريقها مع تراجع الحركة العلمية عند المسلمين.

ومع بداية الحركة الاستعمارية الغربية تجدد الحوار بين المسلمين ومستعمريهم، ولعل من أبرز ما يذكر في هذا الصدد الحوار الذي جرى بين العلامة رحمة الله الهندي والقس كئي ومساعده القس فرنج، ثم جرت المناظرة الكبرى بينه وبين القس فندر في شهر رجب من عام 1270هـ رداً على النشاط التنصيري في الهند.

وفي القرن الميلادي العشرين نشط الحوار بين الأديان، ودعي المتحاورون إلى عدد من المؤتمرات، منها مؤتمر تاريخ الأديان الدولي في بروكسل في عام 1935م، والمؤتمر العالمي للأديان المنعقد في لندن عام 1936م، ثم في جامعة السوربون عام 1937م.[(27)]

[Comment H28]: وثق

ونشطت الدعوة إلى حوار الأديان إثر انعقاد مجمع الفاتيكان الثاني 1965م والذي دعا لاستئناف الحوار مع الأديان، وأنشأ مؤسسات خاصة بذلك داخل الفاتيكان تولت الدعوة لعدد من المؤتمرات واللقاءات بين القيادات الدينية في العالم، ثم توالت الحوارات والدعوات من مختلف المؤسسات والمنظمات والدول الإسلامية وغيرها.

والمتأمل في هذه القراءة التاريخية السريعة في تاريخ الحوار؛ لن تخطئ عينه رؤية ما قدمه الإسلام من نماذج حوارية فريدة منذ بعث النبي، نماذج لم تتوقف في تاريخنا الطويل، وهي تدعونا لاستئناف الحوار الحضاري وتنشيطه من جديد، وأخذ زمام المبادرة إليه، استجابة لأمر الله تعالى، وتأسياً واتباعاً لنهج نبينا. أنواع الحوار ومشروعيتها

إن المتتبع لتاريخ الحوار بين أهل الإسلام وغيرهم من أتباع الملل في القديم والحديث يجد أنواعاً ثلاثة من الحوار تتداخل فيما بينها أحياناً، وتفترق في أحايين أُخر.

وفي هذا المبحث نود الوقوف مع كل نوع منها وبيان حكمه وأهم موضوعاته وخصائصه.

النقطة الثانية: أهمية والموقف الشرعي، والأسباب التي أدت إلى الحوار:

أهمية الحوار:

الحوار هو وسيلة من وسائل الاتصال بين البشر، فإن استخدم في خير حمله وحقق الغرض، وبلغ الغاية، وإن استعمل في ترويج باطل، وتزيين لغو، وإشاعة فاحشة... كان أنجع وسيلة؛ سلكه إبليس فزين لآدم الأكل من الشجرة ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ الأعراف: ٢١ فما ذا كانت النتيجة؟!

وتظهر أهميته من موضوعه إذ هو سبيلٌ إلى إبلاغ الرسائل الإلهية، ومحاجة المعاندين، كما قال تعالى مخبراً عن ذلك المؤمن المحاور ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾ الكهف: ٣٧، وكما أخبر الله عن محاورة إبراهيم عليه السلام للنمرود التي ذكرها الله في سورة البقرة، وهو منهج متبع في كشف شبه المبطلين، وتقريب الحق للقاصدين: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ يس: ٧٧ ٧٨

وهو سنة نبوية سلكها رسولنا فكانت حياته وسيرته مثالاً مباركاً للمحاور الموفق الذي لا تلين له قناة سواء مع الملأ من قومه، أو مع الوفود التي تفد إلى مكة والمدينة فيما بعد تستفهم وتسترشد، أو مع أفراد الناس الذين عرض عليهم هذا الدين العظيم ورغّبهم فيه، أو مع أصحاب شبهٍ أو شهوات لا تزال تمنعهم من الانقياد والاستسلام لرب العالمين، والشواهد أكثر من أن تحصر؛ بل كل حياته أنموذج رائع لذلك، تجلت فيها قوة الحجة، ووضوح الدليل، وصدق العاطفة، وحسن الأسوة.

الآيات والأحاديث التي أوردتها تحت هذه النقطة دلت على مشروعية الحوار في الإسلام، ومع ذلك فينبغي أن تظهرها كما أظهرت الأهمية.

الأسباب التي أدت إلى الحوار

ومن الأسباب التي أدت إلى حوار الأديان ما يلي:

- التعارف والوحدة الديانة
- توسيع مساحة التفاهم المشترك.
- تحقيق التعايش المشترك.
- التعاون.((28))

النقطة الثالثة: نماذج الحوار في القرآن الكريم.

وبالنظر إلى آثار الحوار ونجاعة طريقته في نشر الحق يجزم ابن حزم بفضل هذا الأسلوب من أساليب الدعوة، ويراه أنجع من غيره من وسائل حماية الدعوة كالجهاد في سبيل الله، إذ "قد تُهزم العساكر الكبار، والحجة الصحيحة لا تُغلب أبداً، فهي أدعى إلى الحق، وأنصر للدين من السلاح

[H29]: ينقل الباحث الآية من المصحف

[H30]: من المتوقع أن يذكر الباحث الأساليب التي ذكرها القرآن الكريم في الحوار، إلا أنك عدلت عنها إلى بيان أن الحوار من أساليب الدعوة في الإسلام.
ولك خياران، إما أن تعدل العنوان ليتطابق مع ما ذكرت أو تأتي بمايناسب العنوان.

[H31]: أنى ذكرت هذه الآثار؟

الشاكي والأعداد الجمّة.. لأن السيف مرة لنا، ومرة علينا، وليس كذلك البرهان، بل هو لنا أبداً، ودامغ لقول مخالفينا، ومزهق له أبداً.

ورُبَّ قوة باليد قد دمغت بالباطل حقاً كثيراً، فأزهقته ... وقد قتل أنبياء كثير وما غُلبت حجتهم قط ".

وفي المقابل، فإن "أفاضل الصحابة الذين لا نظير لهم؛ إنما أسلموا بقيام البراهين على صحة نبوة محمد عندهم، فكانوا أفضل ممن أسلم بالغلبة بلا خلاف من أحد المسلمين".[(29)]

ويثني ابن حزم بدليل آخر، فيقول: "أول ما أمر الله عز وجل نبيه محمداً أن يدعو له الناس بالحجة البالغة بلا قتال، فلما قامت الحجة وعاندوا الحق أطلق الله تعالى عليهم السيف حينئذ، وقال تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ الأنعام: ١٤٩. وقال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ الأنبياء: ١٨ [(30)]

[H32] Comment: ينقل الباحث الآية من المصحف

يقول ابن تيمية: "فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفّى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين".[(31)]

وكأني به - رحمه الله - يرد على ما سيقشول الصفدي في ترجمته، فقد قال: "وضيّع الزمان في رده على النصارى والرافضة ومن عاند الدين وناقضه، ولو تصدى لشرح البخاري أو لتفسير القرآن العظيم لقلّد أعناق أهل العلوم بدرّ كلامه النظيم".[(32)]

ويقول ابن القيم داعياً إلى محاورة أهل الكتاب: "جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل استحباب ذلك، بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجى إسلامه منهم وإقامة الحجة عليهم، ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة، فليولِ ذلك إلى أهله، وليخلِ بين المطي وحاديها، والقوس وباريها ".[(33)]

وأما موضوع الدعوة والحوار فإنه حول أصول الدين وسبيل سعادة الدارين: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ آل عمران: ٦٤.

[H33] Comment: ينقل الباحث الآية من المصحف

قال الطبري: " قل يا محمد لأهل الكتاب - وهم أهل التوراة والإنجيل – [تعالوا] هلموا [إلى كلمة سواء]، يعني إلى كلمة عدل بيننا وبينكم، والكلمة العدل هي أن نوحد الله، فلا نعبد غيره، ونبرأ من كل معبود سواه، فلا نشرك به شيئاً.

وقوله: [وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا] يقول: ولا يدين بعضنا لبعض بالطاعة فيما أمر به من معاصي الله ويعظمه بالسجود له كما يسجد لربه، [فإن تولوا] يقول: فإن أعرضوا عما دعوتهم

إليه من الكلمة السواء التي أمرتك بدعائهم إليها، فلم يجيبوك إليها، فقولوا أيها المؤمنون للمتولين عن ذلك: [اشهدوا بأنا مسلمون] ".[(34)]

والنبي كانت دعوته ترجماناً واقعاً لما أمر الله تعالى به من دعوة، فقد دعا المشركين إلى الإسلام على اختلاف مذاهبهم ومللهم، وكان يدعوهم ويحاورهم، وخص أهل الكتاب بمزيد من عنايته، وكان أبرز هذه الحوارات حواره مع نصارى نجران، ومكاتباته لملوك الأرض.

كما كان رسول الله يغشى الناس في مجالسهم يدعوهم ويحاورهم، ومنه ما رواه الإمام أحمد من حديث عوف بن مالك قال: انطلق النبي يوماً وأنا معه، حتى دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيد لهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله: ((يا معشر اليهود أروني اثني عشر رجلاً يشهدون أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضبَ الذي غضب عليه)). قال: فأسكتوا، ما أجابه منهم أحد، ثم رد عليهم، فلم يجبه أحد، ثم ثلّث فلم يجبه أحد.

فقال: ((أبيتم، فوالله إني لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا النبي المصطفى، آمنتم أو كذبتم)).

ثم انصرف وأنا معه، حتى إذا كدنا أن نخرج، نادى رجل من خلفنا: كما أنت يا محمد. قال: فأقبل. فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلمون فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله منك ولا أفقه منك ولا من أبيك قبلك ولا من جدك قبل أبيك.

قال: فإني أشهد له بالله أنه نبي الله الذي تجدونه في التوراة. قالوا: كذبت. ثم ردوا عليه قوله، وقالوا فيه شراً.

قال رسول الله: ((كذبتم، لن يقبل قولكم، أما آنفاً فتثنون عليه من الخير ما أثنيتم، ولما آمن كذبتموه، وقلتم فيه ما قلتم، فلن يقبل قولكم)).

قال: فخرجنا ونحن ثلاثة رسول الله وأنا وعبد الله بن سلام، وأنزل الله عز وجل فيه: [قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين] (الأحقاف: 10).[(35)]

ومن صور الحوار في الصدر الأول ما يحكيه ثوبان ﷺ، إذ يقول: كنت قائماً عند رسول الله، فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد. فدفعتُه دفعة كاد يصرع منها. فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله؟ فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله. فقال رسول الله: ((إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي)). فقال اليهودي: جئت أسألك. فقال له رسول الله: ((أينفعك شيء إن حدثتك؟)) قال: أسمع بأذني. فنكت رسول الله بعود معه فقال: ((سل)). فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله: ((هم في الظلمة دون الجسر)).

قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: ((فقراء المهاجرين)).

قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: ((زيادة كبد النون)).

قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: ((ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها)).

قال: فما شرابهم عليه؟ قال: ((من عين فيها تسمى سلسبيلا)). قال: صدقت.

قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان؟ قال: ((ينفعك إن حدثتك؟)) قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد. قال: ((ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا منيُّ الرجل منيَّ المرأة أذكرا بإذن الله، وإذا علا منيُّ المرأة منيَّ الرجل آنثا بإذن الله)).

قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي، ثم انصرف فذهب، فقال رسول الله: ((لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، وما لي علم بشيء منه، حتى أتاني الله به)).[(36)]

إذاً نخلص إلى القول بأن حوار الدعوة واجب ديني تتابعت النصوص على الدعوة إليه، وهو مطلب أخلاقي يفرضه علينا رحمتنا بالآخرين، وحرصنا على هدايتهم، واستنقاذهم من أوضار الكفر والعقاب الأخروي.

النقطة الرابعة: شروط الحوار.

والشروط الرئيسية التي تضبط مسار الحوار ما يلي:

- الأول: الوصول إلى الحق: فلا بد من التجرد في طلب الحق، والحذر من التعصب والهوى، وإظهار الغلبة والمجادلة بالباطل.

  يقول الإمام الغزالي عند ذكره لعلامات طلب الحق: "أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة، لا يفرّق بين أن تظهر الضالة على يده، أو على يد من يعاونه، ويرى رفيقه معينًا لا خصمًا، ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق".

- الثاني: تحديد الهدف والقضية التي يدور حولها الحوار، وإلا تتحول الحوار إلى جدل عقيم سائب ليس له نقطة محددة ينتهي إليها.

- الثالث: الاتفاق على أصل يرجع إليه، والمرجعية العليا عند كل مسلم هي: الكتاب والسنة، والضوابط المنهجية في فهم الكتاب والسنة. وقد أمر الله بالرد إليهما فقال سبحانه: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾ النساء: ٥٩

  فالاتفاق على منهج النظر والاستدلال قبل البدء في أي نقاش علمي يضبط مسار الحوار ويوجهه نحو النجاح، إذ إن الاختلاف في المنهج سيؤدي إلى الدوران في حلقة مفرغة لا حصر لها ولا ضابط.

[H34] Comment: انقل هذه الفقرات إلى النقطة السابقة (الموقف الشرعي للحوار) ولا تتناسب مع نقطة أساليب الحوار في القرآن،

[H35] Comment: هذه النقطة أيضاً لا تتطابق مع ما تحتها، فأرى أن يغير الباحث عنوان هذه النقطة إلى (شروط الحوار) وإلاَّ فيزيل كل ما تحته ويأتي بما هو مناسب.

[H36] Comment: وثق

- الرابع: عدم مناقشة الفرع قبل الاتفاق على الأصل فلا بد من البدء بالأهم من الأصول وضبطها والاتفاق عليها، ومن ثم الانطلاق منها لمناقشة الفروع والحوار حولها.

هناك نقطة مهمة قبل الخاتمة قد أهملها الباحث، وهي: آثار الحوار، فيجب أن يأتي بها وذلك أن لكل حدث أثر إما إيجابي أو سلبي.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين يعد الحوار من الأمور المهمة التي يجب على الأمة الاهتمام به، والتركيز عليه، وقد تنوع الحوار في القرآن الكريم بأشكال متعددة، وجاء حوار موسى عليه السلام مع فرعون في أكثر من موضع في كتاب الله تعالى؛ وذلك لأهميته وكثرة الأساليب المستخدمة. وهذا البحث جاء لينهل من هذا النبع الصافي، ويستقي ليفيد الداعية المسلم في حياته الدعوية، وبخاصة الحوارية، سواء مع مسلم مثله، أو كافر وملحد. مستخدمًا أصولًا وأهدافًا وأساليب صحيحة موصلة إلى الحق والصواب، ومحاولة المساهمة في تأصيل عملية الحوار من أهدافه وأهميته خلال هذه المقالة والله المستعان وبالله التوفيق والسلام والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

قائمة المصادر والمراجع

ابن القيم، **أحكام أهل الذمة**، تحقيق: يوسف البكري وشاكر العاروري، ط1، دار رمادي للنشر، 1418هـ

ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب العربي، 1413هـ

أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، **شرح النووي على صحيح مسلم**، ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1393هـ

أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، تحقيق صبح المدني، ن مكتبة المدني، مصر.

أبو الطيب محمد العظيم آبادي، **عون المعبود، شرح سنن أبي داود**، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ

القيم الإنسانية بين **حضارتين عوامل الالتقاء وكيف ننميها**، تأليف الأنبا د. يوحنا قلته، بحث شارك فيه في المؤتمر الدولي السابع للفلسفة الإسلامية، المنعقد في جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، 7-1423/2/8هـ

د أحميدة النيفر، والأب موريس بورمانس، **مستقبل الحوار الإسلامي المسيحي**، ن دار الفكر، ط1، 1426هـ

[H37] Comment: إذا كبرت عنوا الكتاب فلا تحتاج وضع الخط تحته

[H38] Comment: أين بلد النشر ؟

جايردنر في مؤتمر أدنبره للتنصير الدولي بالقاهرة، **الوثيقة الإسلام الخطر، نص الخطاب الذي ألقاه** و.هـ.ت. عام 1910م.ن المختار، مصر.

خالد القاسم، **الحوار مع أهل الكتاب أسسه ومناهجه في الكتاب والسنة**، ط1، ن دار المسلم، الرياض.

علي بن حزم، **الإحكام في أصول الأحكام**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1405هـ

علي الجرجاني، **التعريفات**، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1405هـ

علي ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ

محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، دار الفكر، بيروت، 1405هـ

Comment [H39]: ملاحظات حول المراجع:

1- يقدم الباحث مطبعة على بلد النشر، إلاّ أن العكس هو الصحيح.

2- إذا كبر الباحث عنوا الكتاب فلا يحتاج إلى وضع الخط تحته.

3- خلت بعض المراجع عن دار النشر أو البلد أو كلاهما.

4-هناك بعض المراجع استعملها الباحث ولم يدرجها في قائمة المراجع، مثل الحوار الإسلامي المسيحي لبسام داود عجك، ومجموع الفتاوى لابن تيمة وغيرهما. فيجب على الباحث إدراجها كلها.

الهوامش:

((1)) أخرجه الترمذي في سننه، 497/5، وابن ماجه في سننه1279/2، والبيهقي في السنن الكبرى،248/5، وابن حبان في صحيحه، 138/4. وقيل معنى الحديث: نعوذ بك من النقصان بعد الزيادة، وقيل من القلة بعد الكثرة، وقيل نعوذ بك من النقصان والفساد بعد الصلاح والاجتماع.

((2)) الجرجاني علي بن محمد بن علي الشريف الحسيني، التعاريف، 299/1. ومجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي الفيروز آبادي المتوفى سنة (817 ه). واسم الكتاب بالكامل) القاموس المحيط، والقابوس الوسيط، الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط، ج:1 ص:486.

((3)) ابن منظور لسان العرب،218/4.

(((4))) أصول الحوار ص 9.

((5)) - بسام داود عجك الحوار الإسلامي المسيحي ص:(20).

((6)) - محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن أو جامع البيان في تأويل القرآن، ج:7 ص:267، وابن ابي حاتم في تفسيره ح (7630).

((7)) - ذكره ابن هشام في سيرته (511/1)،، ونقل مثله ابن القيم في زاد المعاد عن أبي أمامة (630/3-631)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (5/4).

((8)) - الإمام عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المعروف بابن كثير (المتوفى 774هـ) تفسير القرآن العظيم المشهور بـ» تفسير ابن كثير، ص:603

((9))- المرجع السابق ابن جرير في تفسيره (163/3)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (258/2).

((10)) نفس المرجع الطبري في تفسيره (177/3).

((11)) نفس المرجع الطبري في تفسيره (305/3).

((12)) أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوري، في صحيحه ح:2135، وسيأتي بيانه.

((13)) الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أُمور رسول الله صلى الله عليه وسلّم وسننه وأيامه«، الشهير بِآسم »صحيح البخاري ح 3595.

((14)) ذكره الطبراني في معجمه الكبير ح (2108)، ونقله ابن حجر عن ابن إسحاق في الإصابة (441/1).

((16)) أبو علي السكوني، عيون المناظرات ص: 185.

((17)) أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت ٤٦٣هـ) المحقق: علي محمد البجاوي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، ج:1 ص:315.

((18))- وهو مُحَمَّد بن عمر بن وَاقد الْوَاقِدِيّ الْأَسْلَمِيّ الْمَدِينِيّ قَاضِي بَغْدَاد كنيته أَبُو عبد الله يروي عَن مَالك وَأهل الْمَدِينَة مَاتَ سنة سبع وَمِائَتَيْنِ أَو بعْدهَا بقريب بِبَغْدَاد يَوْم الثُّلَاثَاء لِاثْنَتَيْ عشرَة خلت من رَجَب كَانَ مِمَّن يحفظ أَيَّام النَّاس وسيرهم عيون المناظرات (207-208).

((19)) المرجع السابق عيون المناظرات (213).

((20))- شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، م:17 ص:191-192، وعيون المناظرات (248-249).

((21))- المرجع السبق، عيون المناظرات (217).

((22))- درء تعارض العقل والنقل (127/3).

((23))- مناظرة في الرد على النصارى، الرازي، تحقيق: عبد المجيد النجار، كما أثبت مقاطع منها في تفسيره لسورتي آل عمران والنساء.

((24)) ذكر طرفاً منها ابن القيم في هداية الحيارى (384- 385).

((25)) انظر: رسالة راهب فرنسا للأمير المقتدر بالله، ورد الباجي عليها، تحقيق: محمد الشرقاوي.

((26)) حققه محمد شامة، ونشره بعنوان: بين الإسلام والمسيحية.

((27)) - نفس المرجع ذكر طرفا منها بن القيم في هداية الحياري نفس الصفحة.

((28)) - عضو المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، الحوار مفهومه وأهدافه وموضوعه، بحث مقدم إلى دورة الواحدة والعشرين للمجلس، دبلن .إيرلندا 28 يونيو إلى 02 يوليو 2011 ص:20

((29)) الإحكام في أصول الأحكام (26/1).

((30)) الإحكام في أصول الأحكام (26/1).

((31)) مجموع الفتاوى (20/164-165).

((32)) انظر: الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية (287)، وقد نقله عن جزء مخطوط لم يطبع من كتاب "أعيان العصر وأعوان النصر" للصفدي.

((33)) زاد المعاد (639/3).

((34)) جامع البيان (301/3).

((35)) رواه أحمد ح (23464)، وصححه الألباني في موارد الظمآن ح (1764).

((36)) رواه مسلم ح (351).

أثر الحسبة في وقاية المجتمع من الانحراف الفكري ومواجهته
THE IMPACT OF HISBAH IN PROTECTING SOCIETY FROM INTELLECTUAL DEVIATION AND COMBATING IT

كتبه
د/ علي يونس ﷺ
المحاضر بكلية التربية الفدرالية، ولاية كنو، نيجيريا

الملخص:

اعتنى الإسلام بحفظ الضروريات الخمس التي اتفقت الشرائع الإلهية على حفظها، وهي: حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، وبحفظها يتحقق الأمن، ويسعد المجتمع. ويقدم حفظ الدين من الضروريات على ما عداه، لأنه المقصود الأعظم. قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: 56]، وإن مما يتناقض مع مقصد حفظ الدين الانحراف الفكري، ومن ثم يجب إيجاد وسائل للتصدي له، وممن أنيط هذه المسؤولية على عاتقه ولاية الحسبة، فليس من واجب الحسبة حماية المجتمع من الفوضى الأخلاقية فحسب، بل وحمايته من الفوضى الفكرية، فيهدف هذا البحث إلى بيان أثر الحسبة ودورها في وقاية المجتمع من الانحراف الفكري وطرق مواجهته، ويقترح الدور الذي ينبغي أن تلعبه الحسبة في التعامل مع هذه الظاهرة وعلاجه، لوقاية المجتمع من هذا المرض الخطير الذي يؤدي به إلى التفكك والانحلال، وقد اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، وقد توصل الباحث بأن الانحراف الفكري هو الفكر الذي خرج من جادة الصواب، وابتعد عن الوسط المعتدل، وترك الاتزان، ومن أسبابه التربية الدينية الخاطئة، والجهل وعدم الفقه في الدين وسنن الله تعالى، وربما الفقر والبطالة، ويجب على الحسبة مواجهة تلك الأسباب حتى يتسنى لها القضاء على هذه الظاهرة بالاعتماد على مراتب الاحتساب من التعريف، ثم الوعظ، ثم التعنيف، ثم باستعمال اليد ثم التهديد ثم الضرب، وبإعداد دعاة متخصصين في مواجهة التيارات المنحرفة فكريا.

الكلمات المفتاحية: الانحراف الفكري، الحسبة، مواجهة الانحراف.

المقدمة

لقد كرم الله تعالى بني آدم وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ومن أكبر نعم الله تعالى على الإنسان أن وهبه العقل يهتدي به إلى طريق الحق، ويحقق الغاية من وجوده في هذه الحياة وهي إفراد الله تعالى بالعبادة، والعقل بالتأكيد هو مصدر الفكر ومنبعه، وهو مناط التفكير والتمييز

والموازنة بين النفع والضر، وهو موضع الإرشاد والتوجيه لعمل الإنسان وبناء الحياة، وعندما يحدث خلل في المفاهيم والقناعة العقلية يحدث خلل في بناء الفكر مما يؤدي إلى الانحراف الفكري، والإنسان عندما يقتنع بشيء فهو مستعد للتضحية في سبيل تحقيق قناعته بغض النظر عن مدى صحته أو خطئه، ومن هنا تبدو نقطة الخطر التي تنتج عنها، فانحراف الفكر أخطر أنواع الانحراف، بل الأنواع الأخرى من الانحرافات إنما تنشأ من صلب هذا الانحراف، ومن هنا يظهر حاجة المجتمع إلى حفظ أمنه الفكري، وكل مجتمع يفقد الأمن الفكري ويسود فيه الانحراف الفكري فهو آيل إلى الانهيار، لأن الانحراف الفكري أحد الأسباب التي أدت إلى هلاك الأمم السالفة.((1))

وتعتبر الحاجة للأمن الفكري من أبرز الحاجات وأهمها في عصرنا الحاضر لوجود الدوافع المتعددة لانتشار الانحراف الفكري، مع ازدياد المؤثرات الفكرية بعد التقدم الكبير في تقنيات الاتصال والإعلام ووسائل التواصل الإلكترونية والتي مهدت للتقارب بين المجتمعات والشعوب وأدت إلى انفتاح الثقافات على بعضها متبادلة التأثير والتأثر فيما بينها مما يسهل من دخول مختلف التيارات الفكرية بما تحمله من إيجابيات وسلبيات.((2))

ومهمة التصدي للانحراف الفكري تقع على عاتق كل مكونات المجتمع، وينبغي أن يشارك فيها الجميع، وتتضافر فيها الجهود، وتتبناها كل قطاعات الدولة، وبخاصة الجهات المسؤولة عن الشؤون الدينية، والشرعية، والعلمية، والفكرية، والحسبة من أخص من تقوم بهذا الواجب لمكانة عملها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والانحراف الفكري من أكبر المنكرات.

تعريف الحسبة

الحسبة لغة: من مادة (حَسِبَ) والتي من معانيها العدُّ ومن ذلك قوله تعالى {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ} سورة الرحمن، الآية 5، والحَسَبُ هو تعديدُ الآباء افتخاراً بهم، ومنه احتساب الأجر الذي هو انتظاره وطلبه كقوله سبحانه {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} سورة الطلاق، الآية 3، أي من حيث لم يعُد ويضعُه في حسابه، ومن المعاني أيضاً الكفاية ومن ذلك (حسبي الله)، وفي الحسبة كفاية وصدٌ للشر وحفظ المجتمعات.((3))

أما الحسبة اصطلاحا: فقد عرف الفقهاء الحسبة بعدة تعريفات منها:

"أنها ولاية دينية يقوم ولي الأمر - الحاكم - بتعيين من يتولى مهمة الأمر بالمعروف إذا أظهر الناس تركه، والنهي عن المنكر إذا أظهر الناس فعله، صيانة للمجتمع من الانحراف، وحماية للدين من الضياع، وتحقيقا لمصالح الناس الدينية والدنيوية وفقا لشرع الله تعالى".((4))

وعرفها الإمام أبو الحسن الماوردي بأن الحسبة: " هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله ".((5))

فالحسبة إذًا هي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والمعروف اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فيشمل الاعتقاد وهو الإيمان بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، ويشمل العبادات من الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، والنكاح، والطلاق، والرضاع، والحضانة، والنفقة، والعدة، وما إلى ذلك.

ويشمل النظم والتشريعات من المعاملات المالية، والحدود، والقصاص، والعقود والمعاهدات، ونحوها، ويشمل أيضًا الأخلاق من الصدق، والعدل، والأمانة، والعفة، والوفاء، ونحوها، وسمي المعروف معروفًا؛ لأن الفطر المستقيمة والعقول السليمة تعرفه، وتشهد بخيره وصلاحه. ومعنى الأمر بالمعروف: الدعوة إلى فعله، والإتيان به مع الترغيب فيه، وتمهيد أسبابه وسبله بصورة تثبت أركانه، وتوطد دعائمه، وتجعله السمة العامة للحياة جميعًا.

وأما المنكر: فهو سم جامع لكل ما يبغضه الله تعالى ولا يرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فيشمل الشرك بكل ألوانه وصوره، ويشمل الأمراض القلبية من الرياء والحقد والحسد والعداوة والبغضاء ونحوها، ويشمل تضيع العبادات من الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد ونحوها، ويشمل المنكر أيضًا الفواحش كالزنا والسرقة وشرب الخمر والقذف وقطع الطريق، والكذب، والحرابة، والبغي، ونحوها، ويشمل الكذب والجور والظلم، والخيانة والخسة ونحوها، وإنما سمي المنكر منكرًا؛ لأن الفطر السليمة المستقيمة والعقول السليمة تنكره، وتشهد بشره وضرره وفساده، ومعنى النهي عن المنكر التحذير من إتيانه وفعله، مع التنفير منه والصد عنه، وقطع أسبابه، وسبله بصورة تقتلعه من جذوره وتطهر منه الحياة جميعًا.((6))

أسباب تسمية الحسبة

(1) من معاني الاحتساب والحسبة طلب الأجر وسميت الحسبة بالحسبة لأن القائم بها لا يريد أو يجب أن لا يريد من وراء احتسابه إلا الأجر

(2) ومن معاني الحسبة والاحتساب الإنكار وسميت الحسبة بالحسبة لأن القائم بها ينكر تارك المعروف تركه وعلى فاعل المنكر فعله.

(3) ومن معاني الحسبة التدبر وسميت الحسبة بالحسبة لأن القائم بها يسعى إلى تدبير أمر خلق الله وفق شرع الله تعالى.((7))

أهمية الحسبة

يهدف الإسلام إلى بناء مجتمع آمن مستقر تسوده المحبة، ويجتمع أفراده في التعاون على البر والتقوى، حتى يتمكن الجميع من القيام بواجب الخلافة في الأرض وتحقيق الغاية الأساسية من

خلق الإنسان، وهي عبادة الله تعالى وحده، كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} سورة الذاريات، الآية 56، ولأن الناس محتاجون دائما إلى نظام يسيرون على هديه، وسلطة تحرص على تحقيق هذا النظام في حياة الناس، لزم أن يكون هناك من يذكر الناس بذلك، ويتابع التزامهم به، ومن هنا جاءت أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تتمثل في:

(1) إقامة حجة الله على خلقه، كما قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } [النساء: 165].

(2) خروج الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر عن عهدة التكليف والمسؤولية، كما قال تعالى في قصة أصحاب السبت عن الفرقة الناهية، أنهم قالوا لمن قال لهم: {وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الأعراف: 164]، وقال تعالى: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ} [الذاريات: 54]، فدلت الآية بمفهومها على أنه لو لم يخرج من العهدة بأمرهم ونهيهم لكان ملوما. وقال النبي ρ: "الدين النصيحة ثلاثا، قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: "لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"،[(8)] فمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فقد أدى النصيحة التي هي الدين، بعد استقامته هو على ما يأمر به وينهى عنه، وامتثاله لذلك.

(3) رجاء انتفاع المأمور والمنهي بتقوى الله تعالى باجتناب المنهيات وفعل المأمورات، كما قال تعالى عن الفرقة الناهية في قصة أصحاب السبت: {مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الأعراف: 164]، وقال تعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات: 55].[(9)]

غايات الحسبة

الحسبة في الإسلام لها العديد من الغايات والأهداف، حيث إن من صفات الشريعة الإسلامية الشمول، بمعنى أن لها حكما في كل شيء بلا استثناء، وغايات الحسبة تصير كثيرة جدا بحيث تشمل إصلاح جميع تصرفات الإنسان وأفعاله، ولا يخرج من ذلك إلا مل لا تتوفر فيه شروط الاحتساب، ولا يدخل في ولاية المحتسب، ومن الأمثلة على ما تشمله غايات الحسبة:

- أولا: الحسبة في الاعتقاد: فعمليه الاحتساب تجري في أمور العقيدة، فكل من أظهر ما يتناقض مع العقيدة الإسلامية الصحيحة، أو دعا الناس إليها، أو حرف النصوص، أو ابتدع في الدين بدعة منع من ذلك، وجرت الحسبة عليه، لأن التقول على الله ودينه بالباطل لا يجوز، قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: 33]. ويدخل في ذلك رواية الحاديث المقطوع ببطلانها وكذبها، فإن النبي قال: "إنَّ كَذِباً علَيَّ ليسَ ككَذِبٍ على أَحدٍ، مَن كذَبَ علَيَّ متَعمِّداً؛ فلْيتَبوَّأْ مقعَدَهُ منَ النارِ".[(10)] فلا تجوز رواية الأحاديث المقطوع ببطلانها إلا لبيان بطلانها وكذبها.

- ثانيا: الحسبة في العبادات: ويشمل عمل الحسبة مجال العبادة، فمن مثاله ترك الجمع من قبل أهل قرية أو بلد مع توفر شرط إقامتها، وترك الأذان أو الزيادة فيه بما لم يأت به الشرع، فلو اتفق أهل بلد وجبت الجمعة على تركها، وجب على المحتسب أمرهم بها، وحثهم على إقامتها، وكذلك لو تركوا الأذان، فإن النبي ρ جعل الأذان علامة الإسلام، وكان إذا أراد ان يغزو قوما بات خارج البلد حتى يصبح، فإن سمع أذانا كف عنهم، وإلا أغار عليهم.[(11)] ومثاله أيضا الإفطار في رمضان، وكالامتناع من إخراج الزكاة، فإن هذا كله داخل في موضوع الحسبة.
- ثالثا: الحسبة في المعاملات: فيشمل عمل الحسبة منع العقود المحرمة، وأكل أموال الناس بالباطل من الربا والرشوة وغيرهما، فإن على المحتسب أن ينكرها على أهلها، وأن يحول بينهم وبينها. ويدخل الحسبة في الغش في الصناعات والبيوع، فإن النبي ρ قد دخل السوق وأنكر على من غش في الطعام، ففي الحديث المشهور عن أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ρ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ مِنْ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا، فَقَالَ: «يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ، مَا هَذَا؟»، قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ»، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا»[(12)]، فيدخل عمل المحتسب في الغش في البيوع بكتمان العيوب والتدليس في السلع وغير ذلك.[(13)]

الانحراف الفكري

الانحراف لغة مصدر انحَرَفَ بمعنى الميل والعدول، يقال: انحرف إلى فلان، أي مال إليه، وعن فلان: أي انصرف، ويقال: انحرف مزاجه: أي مال عن الاعتدال، ويقال: حَرَفَ الشيء عن وجهه أي صرفه، وحرّف الكلام أي غيّره لفظاً وصياغة أو معنى، أو هما معاً ومنه قوله -تعالى- في وصف اليهود: {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ...}[المائدة: 13].[(14)]

وعليه فإن معنى الانحراف في اللغة يدور حول الميل والعدول عن الشيء والانصراف، ومدلول الانحراف له وجه الشبة بمدلول الغلو والافراط، وهو تجاوز حد الاعتدال وعدم التوسط.[(15)]

والفِكْرُ لغة: من فَكَرَ في الأمر فِكراً أي أعمل العقل فيه ورتّب بعض ما يعلم ليصل به إلى معرفة مجهول، وفكّر في الأمر مبالغة فكر، وفكَّر في المشكلة تفكيراً أي أعمل عقله فيها ليتوصل إلى حلّها، فهو مفكر، وافتكر: تذكر، وتفكر في الأمر: أعمل عقله فيه.[(16)]

والفكر في الاصطلاح لا يخرج معناه عن المعاني السابقة، فهو: إعمال العقل للوصول إلى معرفة مجهول، أو حل مشكلة، أو التوفيق بين المفاهيم الفلسفية والمفاهيم الدينية.[(17)]

إذن فإن عملية التفكير والفكر نشاطٌ عقلي، وفهمُ وتصورات تختلف من شخص إلى آخر، ومن جماعة إلى أخرى.[(18)]

مفهوم الانحراف الفكري

فالمراد بالانحراف الفكري في الاصطلاح المعاصر هو الخروج عن الحد الشرعي الذي حده الله تعالى في كتابه، أو على لسان رسوله محمد ρ، وأجمع العلماء على حرمته، وذلك مثل الإلحاد، والتفكير بغير علم، والبغي، وإجازة المحرمات وغيرها.((19))

وهو بالاختصار: كل ما يؤدي إلى ميل العقل عن الحق، ولا سيما في مجال الارهاب والغلو والتطرف. ((20))

ضوابط الانحراف الفكري

يمكن استنباط ضوابط الانحراف الفكري على ما سبق من تعريفه في الآتي:

(أ) كل فكر ورأي مخالف أو مناقض لنص الكتاب والسنة،

(ب) كل تأويل للنصوص المتصلة بالاعتقاد لم يقره الأئمة من أهل السنة والجماعة في القرون الثلاثة المفضلة.

وبهذين الضابطين يتحدد ما يمكن وصفه بالانحراف الفكري.((21))

أنواع الانحراف الفكري

الانحراف الفكري يشمل جميع أنواع ميل العقل عن الحق والعدل والمنهج الوسطي الإسلامي إفراطاً وتفريطاً، وبالتالي فهو يشمل ما يأتي:

أولاً: الانحراف العقدي، حيث يقع هذا النوع في أولى درجات الانحراف وهو أمّ الانحرافات الأخرى، ولهذا الانحراف العقدي مراتب ودرجات حسب التسلسل الآتي:

1- مرتبة الكفر بمعناه الشامل، وتشمل:

(أ) الإلحاد، وعدم الإيمان بالله تعالى.

(ب) الارتداد عن الإسلام والخروج منه خروجاً كاملاً.

(ج) الشرك بالله Ψ وعبادة غيره من الأوثان، كما هو الحال في الوثنيين وعبدة الأصنام ونحوهم من المشركين.

والتحقيق أن هذه الأنواع الثلاثة بمثابة درجة واحدة، أو أنها متقاربة جداً من حيث الخطورة.

(د) الانحراف المتعلق بعقيدة بعض أهل الكتاب من اليهود والنصارى مما ذكره القرآن الكريم من التثليث وتعظيم البشر، والصفات غير اللائقة لربّ العالمين، كل ذلك انحراف خطير يجعل من يؤمن به خارجاً عن الصراط المستقيم صراط الأنبياء والمرسلين.

2- مرتبة الانحراف الذي يخرج صاحبه عن المنهج الوسط المعتدل، ولكن لا يخرجه عن الملة والإسلام، وهذا الانحراف يشمل كما قال أبو يوسف بن أسياط: أصول البدعة في العقيدة، وهي: الخوارج: والروافض، والقدرية، والمرجئة.((22))

ويدخل في عالمنا المعاصر الجماعات المتطرفة المنتسبة إلى الإسلام مثل القاعدة، وداعش، ونحوهم من التكفيريين، وكذلك الجماعات المتطرفة الشيعية، والعلمانيون الذين يصلّون ويصومون ولكنهم لديهم غبش كثير حول الحكم بما أنزل الله.

ثانياً: الانحراف الخلقي والسلوكي، فمن رحمة الله -تعالى- بعباده أنه لم يجعل ترك العبادات وفعل المنكرات كفراً ما دام الإيمان بالله -تعالى- وبما أنزله قائماً، فقال تعالى: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً}[النساء: 48].((23))

الأسباب الرئيسية للانحراف الفكري

يمكن أن تقسم أسباب وعوامل الانحراف الفكري إلى قسمين: أسباب داخلية، وأسباب خارجية. فأما الأسباب الداخلية فمنها:

- السبب الأول: التربية الدينية الخاطئة السائدة في المجتمع: في البيت والمدرسة والجامعة والجامع (أي البيئة الصانعة والحاضنة)
- السبب الثاني: القهر السياسي ومضايقة الداعين إلى الإصلاح وسجنهم، والاستبداد الحكومي التي منعت حرية الآراء والأفكار، وقمعت المعارضين بالقوة والسلاح، وأنواع التعذيب وألوان الأذى، والسجون التي خرجت عن دائرة كرامة الإنسان وحقوقه.
- السبب الثالث: الجهل وعدم الفقه في الدين وسنن الله تعالى، فقد يظن المرء أنه قد بلغ مرتبة الاجتهاد فيجتهد، ولكنه في الحقيقة لم يبلغ تلك الدرجة، وقد نبّه على ذلك الإمام الشافعي، حيث جعل أول أسباب الابتداع والاختلاف المذموم المؤدي إلى تفرق الأمة شيعاً.
- السبب الرابع: ترأس الجهال الضلال: وهذا ما أشار إليه الرسول -ﷺ- في حديث صحيح يرويه الإمام البخاري ومسلم وغيرهما بسندهم أن رسول الله -ﷺ- قال: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا).((24))
- السبب الخامس: الفقر والبطالة، والمشاكل الاقتصادية والاجتماعية، حيث إن لهذه الأمور دوراً، يشتغلها أصحاب الفكر المنحرف لزرع الكراهية، ولكسب الفئة المحتاجة.((25))

أثر الحسبة وقاية المجتمع من الانحراف الفكري ومواجهته

جاءت الشريعة الإسلامية بأحكام كي تحفظ على الناس الكليات الخمس أو المصالح العليا الخمس، وهي الدين والنفس والعقل والنسل والمال، فكل الأحكام الشرعية في هذا الخصوص إنما هي أوامر ونواه للحفاظ على هذه الكليات، ولا بد للتصدي لكل ما يؤدي إلى المساس بهذه الكليات، والانحراف الفكري مما يؤدي إلى المسماس بأمن المجتمع ويسبب إلى تعطيل هذه المصالح كلها، فيجب تفعيل دور مؤسسات المجتمع المختلفة للتصدي لهذا المرض الفظيع والقضاء عليه، والحسبة إحدى تلك المؤسسات وهي تسعى إلى التحقق ممن تطبيق هذه أوامر الشرع، والالتزام بالنواهي والتي يترتب عليها الكثير من المصالح على الفرد والمجتمع المسلم، فولاية الحسبة مقصدها الأعظم هو إصلاح دين الخلق، الذي متى ما فاتهم خسروا خسرانا مبينا، ولم ينفعهم ما نعموا به في الدنيا، ويكون أثر الحسبة في وقاية المجتمع من الانحراف الفكري ومواجهته بالتالي:

- **إعتماد مراتب الاحتساب في القضاء على الفكر المنحرف**

ويقصد بذلك التعريف، ثم الوعظ، ثم التعنيف، ثم باستعمال اليد ثم التهديد ثم الضرب، وقد دلنا النبي ρ على ذلك فقال: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" فقد صرح الحديث الشريف بدرجات تغيير المنكر فبدأ بأقوى درجات التغيير له ثم بالأدنى، فلا تعارض بين ملاحظة درجات التغيير، وبين اعتماد مراتبه مرتبة مرتبة، فعلى الناصح أو الداعية أو المحتسب عند قيامه بدرجة من درجات التغيير أن يلاحظ ترتيب المراتب، وتجاوز هذه المراتب يُعد خروجاً عن الحكمة في الدعوة، يقول الله تعالى: {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا} سورة النساء: 34، فقد أشارت الآية الكريمة إلى مراتب الدعوة والنصيحة وتغيير المنكر، ولذلك فإن استخدام الشدة في الدعوة في بعض الأحوال يكون بعد النظر والتدبر فيما يترتب عليه، فإن تأكد لدى المحتسب حدوث منكر أعظم من المنكر الذي أراد إزالته أو ترك معروف أهم منه بسبب دعوته بالشدة فليس له أن يلجأ إليها.((26))

- **إعداد دعاة متخصصين في مواجهة التيارات المنحرفة فكريا**

فينبغي لولاية الحسبة إيجاد مكتب لعلماء المتخصصين يعملون على مجابهة الأفكار المنحرفة بشتى الأساليب العلمية،

- إقامة ندوات توعوية لمختلف فئات المجتمع من معلمي مدارس الابتداعية والثانوية والجامعات، وخطباء المساجد وقيادات المجتمع من أمراء وسياسيين حول الانحراف الفكري،
- إعداد برامج توعوية تلفزيونية وفي الإذاعات المحلية لتوعية المسلمين من خطورة الانحراف الفكري وآثاره السيئة،

- إقامة مسابقات لتأليف الكتب والمقالات في بيان معالم الانحراف الفكري وآثره السلبية في المجتمع.

خاتمة

إن تصحيح المسار العقدي هو ما يكفل الأمن الفكري في الأمة، ويضمن لها النهوض ومواجهة التحديات التي تعرقل مسيرها نحو التقدم، وتتعاون كافة مؤسسات المجتمع في التصدي لكل ما يكون شوكا في ظهرها،

وأختم هذا البحث بذكر بعض النتائج التي توصلت إليها، وبعض التوصيات المهمة،

ومما توصلت إليها من النتائج:

(1) أن الفكر المنحرف هو الفكر الذي خرج من جادة الصواب، وابتعد عن الوسط المعتدل، وترك الاتزان، فهو عدول عن المألوف سواء كان عرفاأو شرعا، وبهذا فإن كل ميل عما هو مألوف يعدّ انحرافا، لاسيما الميل عن جادة الدين الإسلامي وصراطه المستقيم الذي هو المنهج السوي للبشرية.

(2) أن أسباب الانحراف الفكري كثيرة، من أهمها الجهل بالوحي والعقل السليم و بِنهج السلف الصالح وبدلالات النصوص، وبحقيقة الإيمان، مع اتباع المتشابه من النصوص والاجتهاد من غير أهله مع ضعف دور العلماء ورجال الحسبة.

(3) أن مسؤولية الحسبة تكمن في حماية المجتمع من جميع أنواع الانحرافات وعلى رأسها الانحراف الفكري.

(4) أن الاحتساب على مظاهر الانحراف بصوره المتعددة يؤدي إلى الحفاظ على صفاء العقيدة ومنع تسلل العقائد المنحرفة في المجتمع، فإذا تعاون المجتمع على تحقيق الحسبة حُوصِرَتْ الأفكارُ الرديئة والأعمال الفاسدة، فيصبح المجتمع آمناً مطمئناً متكاملاً.

(5) لابد من تعدد الوسائل والأساليب في الحسبة حتى تؤتي ثمارها وتتصدى لكل ما يطرأ من تحديات.

(6) أن الحسبة كي تتصدى وتقضي على الانحراف الفكري لا بد أن يكون لها أثرا في: الاعتماد على مراتب الاحتساب الثلاث، وتعدُّ دعاةً متخصصين لمواجهة الأفكار المنحرفة الواردة إلى المجتمع، وإقامة ندوات توعوية لمختلف فئات المجتمع حتى يتسنى لهم معرفة هذه التيارات وإبلاغ الحسبة عن كل نشاط مخالف للمعروف شرعا وعرفا، وإعداد برامج إذاعية وتلفزيونية لتوعية المسلمين من خطر الانحراف الفكري، وتحث الباحثين عن يخصوا الكتابة في الموضوع الانحراف الفكري باللغات المحلية في الجرائد والمجلات وكذا يؤلفوا كتبا في ذلك الموضوع.

توصيات

ويوصي الكاتب بالآتي:

(1) يجب تفعيل دور الحسبة للقيام بمجابهة الانحرافات الفكرية في المجتمعات الإسلامية لحمايتها من آثارها السيئة.

(2) يجب العمل الجاد على إصلاح مؤسسة الحسبة لتكون أكثر اتساقاً مع مطالب العدالة ومجابهة التحديات،

(3) يجب على الحسبة التصدي للوسائل التي تنشر الأفكار المنحرفة بمنع نشاطها لتحصين المجتمع من تسلل تلك الأفكار إليه وتطهيره من الفكر الدخيل،

(4) إشاعة مفهوم الاحتساب وفقهه بين الناس، بحيث يمارس جميع أفراد المجتمع واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خصوصا فيما يتعلق بمحاربة الانحرافات الفكرية، فيبدأ مجابهته من داخل الأسرة في البيوت وحتى يسري في سائر مؤسسات المجتمع.

(5) إنشاء قسم خاص في ولاية الحسبة للقيام بواجب التوعية في الإذاعة والتلفزيون، وكذا في المدارس والمساجد للحد من انتشار الأفكار المنحرفة.

المصادروالمراجع

ابن الحجاج، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ

البخاري، محمد بن إسماعيل، **الجامع الصحيح المختصر**، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، الطبعة الثالثة، 1407 – 1987، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة - جامعة دمشق

الجرجاني، علي بن محمد بن علي، التعريفات، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الأولى، 1405هـ

الحسبة، منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات،
https://shamela.ws/book/30956

داود، داليا محمد شوقي محمد الصادق، **الانحراف الفكري ووسائل الوقاية والعلاج**، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، ص831،
https://bfda.journals.ekb.eg

الدوسري، محمد بن راجس عبد الله الخضاري، **الأساليب الوقائية من الانحراف الفكري، لدى طلاب المرحلتين المتوسطة والثانوية**، بحث مقدم استكمالا لمتطلبات الحصول على

الماجستير في الإدارة التربوية والتخطيط، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1433هـ/2012م، ص5

الراجحي، عبد العزيز بن عبد الله، **شرح المختار في أصول السنة، المكتبة الشاملة الذهبية**، https://ketabonline.com › books

الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي، تحقيق يوسف الشيخ محمد، **مختار الصحاح**، لمكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة الخامسة بدون تاريخ

الزايدي، عبد الله بن عبد العزيز، **حماية المجتمع المسلم من الانحراف الفكري**، مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٧٧، ص ٢٣٩ الرئاسة العامة للبحوث والافتاء، المملكة العربية السعودية، https://ketabpedia.com

السحيباني، عبد الحميد بن عبد الرحمن، **الانحراف الفكري وأثره في الأمن في ضوء القرآن الكريم**، مجلة العدل، العدد 41، المحرم 1430هـ. 2009 م، https://ketabpedia.com

الفيروزأبادي، محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثامنة 2005م، ص 95.

الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، **المصباح المنير**، مكتبة لبنان 1987، 1434، بن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى بدون تاريخ

القحطاني، جلوس بنت فرج، **دور الحسبة في المحافظة على ثوابت العقيدة الإسلامية**، مجلة أبحاث العدد الرابع عشر، عدد 14 (2019)، ص 14، https://ojs.abhath-ye.com/index.php/OJSABAHATH-YE/article/view/152

القره داغي، علي، **أسباب الانحراف الفكري وعلاجه الشامل في الإسلام**، دراسة شرعية تحليلية، https://www.alabasirah.com/node/469

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، **الأحكام السلطانية**، دار الحديث – القاهرة، بدون تاريخ.

المحضار، رجاء بنت سيد علي بن صالح، **الأمن الفكري في الكتاب والسنة ومدلولاته التربوية**، المجلة التربوية بجامعة سوهاج، المجلد 5، العدد 55 (30 نوفمبر/تشرين الثاني 2018). https://search.emarefa.net

مذكرة الحسبة، مناهج جامعة المدينة العالمية، https://app.turath.io/book/8496

مذكرة الحسبة، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، https://drive.uqu.edu.sa › mkbagassi › files

النجار، إبراهيم مصطفى . أحمد الزيات . حامد عبد القادر . محمد، والمعجم الوسيط، طبعة دار الدعوة، تحقيق مجمع اللغة العربية، بدون تاريخ

الهاشمي، عفاف بنت حسن بن محمد مختار، **دور الحسبة في وقاية المجتمع من الانحراف الفكري ومواجهته**، الجمعية العلمية السعودية لعلوم العقيدة والأديان والفرق والمذاهب، https://aqeeda.sa › books

الهوامش:

((1))الدوسري، محمد بن راجس عبد الله الخضاري، الأساليب الوقائية من الانحراف الفكري، لدى طلاب المرحلتين المتوسطة والثانوية، بحث مقدم استكمالا لمتطلبات الحصول على الماجستير في الإدارة التربوية والتخطيط، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1433هـ/2012م، مكتبة الملك فهد الوطنية، ipac ‹ ipac20 ‹ http://ecat.kfnl.gov.sa، ص5

((2)) المحضار، رجاء بنت سيد علي بن صالح، الأمن الفكري في الكتاب والسنة ومدلولاته التربوية، المجلة التربوية بجامعة سوهاج، المجلد 5، العدد 55 (30 نوفمبر/تشرين الثاني 2018).ص 389 https://search.emarefa.net

((3)) الفيروزأبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثامنة 2005م، ص 95، الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، المصباح المنير، مكتبة لبنان 1987، 1؟134، بن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى بدون تاريخ، 1/314

((4)) الحسبة، منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية، بدون بيانات، https://shamela.ws/book/30956

((5)) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الأحكام السلطانية، دار الحديث – القاهرة، بدون تاريخ.

((6)) مذكرة الحسبة، مناهج جامعة المدينة العالمية، https://app.turath.io/book/8496

((7)) مذكرة الحسبة، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، https://drive.uqu.edu.sa › mkbagassi › files

((8)) ابن الحجاج، مسلم، صحيح مسلم، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، 174/1

((9)) القحطاني، جلوس بنت فرج، دور الحسبة في المحافظة على ثوابت العقيدة الإسلامية، مجلة أبحاث العدد الرابع عشر، عدد 14 (2019)، ص 14، 152 https://ojs.abhath-ye.com/index.php/OJSABAHATH-YE/article/view/152

((10)) البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح المختصر، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، الطبعة الثالثة، 1407 – 1987، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة - جامعة دمشق، 152/1

((11)) البخاري، المرجع السابق، 1074/3، ومسلم، صحيح مسلم، المرجع السابق، 288/1

((12)) ابن الحجاج، مسلم، صحيح مسلم، المرجع السابق، 27/2

((13)) القحطاني، دور الحسبة دور الحسبة في المحافظة على ثوابت العقيدة الإسلامية، المرجع السابق، ص 16

((14)) ابن منظور، لسان العرب، المرجع السابق، 9/ 42- 45، الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي، تحقيق يوسف الشيخ محمد، مختار الصحاح، لمكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة الخامسة، 1420هـ / 1999م، 1/ 55، النجار، إبراهيم مصطفى . أحمد الزيات . حامد عبد القادر . محمد، والمعجم الوسيط، طبعة دار الدعوة، تحقيق مجمع اللغة العربية، بدون تاريخ، 1/ 167

((15)) الدوسري، محمد بن راجس عبد الله الخضاري، المرجع السابق، ص21

((16)) القاموس المحيط، المرجع السابق، ولسان العرب، المرجع السابق، والمعجم الوسيط، المرجع السابق، 201/1، الجرجاني، علي بن محمد بن علي، التعريفات، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى، 1405هـ، 217/1

((17)) بكار، عبد الكريم، فصول في التفكير الموضوعي ط. دار القم ص(13)، الموسوعة الحرة، ويكيبيديا، مصطلح (فكر)، https://ar.wikipedia.org/wiki/فكر

((18)) القره داغي، علي، أسباب الانحراف الفكري وعلاجه الشامل في الإسلام، دراسة شرعية تحليلية، https://www.alabasirah.com/node/469

((19)) السحيباني، عبد الحميد بن عبد الرحمن، الانحراف الفكري وأثره في الأمن في ضوء القرآن الكريم، مجلة العدل، العدد 41، المحرم 1430هـ.2009 م، https://ketabpedia.com/تحميل/الانحراف-الفكري-وأثره-في-الأمن-في-ضوء-ا/

((20)) القره داغي، المرجع السابق، https://www.alabasirah.com/node/469

((21)) الزايدي، عبد الله بن عبد العزيز، حماية المجتمع المسلم من الانحراف الفكري،، مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٧٧، ص ٢٣٩ الرئاسة العامة للبحوث والافتاء، المملكة العربية السعودية، https://ketabpedia.com

((22)) الراجحي، عبد العزيز بن عبد الله، شرح المختار في أصول السنة، المكتبة الشاملة الذهبية، https://ketabonline.com › books

((23)) القره داغي، المرجع السابق، https://www.alabasirah.com/node/469

((24)) البخاري، الصحيح الجامع، المرجع السابق، 31/1، ومسلم، صحيح مسلم، المرجع السابق، 2058/4

((25)) القره داغي، المرجع السابق، https://www.alabasirah.com/node/469، داود، داليا محمد شوقي محمد الصادق، الانحراف الفكري ووسائل الوقاية والعلاج، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، ص831، https://bfda.journals.ekb.eg

((26)) الهاشمي، عفاف بنت حسن بن محمد مختار، دور الحسبة في وقاية المجتمع من الانحراف الفكري ومواجهته، جامعة الملك عبد العزيز، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الشريعة والدراسات الإسلامية، المؤتمر العلمي للحسبة، ص 10

آثار الأفلام الهوساوية على المجتمع الهوساوي المسلم

صفـيـة أبـا سـافـانـا
(Safiya Abba Safana)
قسم الدراسات الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية
جامعة عمر موسى يرأدوا كشنة نيجيريا
2348036985455; +2348036985455
safiya.safana@umyu.edu.ng; safiyyasafana@gmail.com

ملخص البحث:

لقد تأثر المجتمع الهوساوي بسلوكيات الفنانين الذين تفرغوا للفن، تأثيرا مخوفا الأمر الذي خلف الانهيار السرح التربوي للأمة، وإن لم يؤخذ بيد الأمة لإصلاح ما أفسده الفن الهوساوي، سيقود ذلك إلى أزمات تربوية في المستقبل.وقد بت بعض ملامح ذلك الأثر السيئ في بعض المجتمعات. يهدف هذا البحث إلى معرفة ماهية الأفلام الهوساوية، وكيف أصبحت ذات أثر بليغ في صياغة أخلاقيات المجتمع الهوساوي المسلم، كما يهدف إلى إبراز بعض من آثار الأفلام الهوسوية المدمرة لحياة الأطفال والمرأة في المجتمع الهوساوي، ليكون تحذيرا للغافل وتعليما للجاهل، وبيانا للحق في هذه المسألة التي تشغل قلوب المربين. ويهدف أيضا إلى إبراز قليل من الأفلام البناءة بالنسبة للمرأة في المجتمع الهوساوي. اتبعت الباحثة المنهج التاريخي التحليلي في بحثها، حيث إن الموضوع وطيد الصلة بعلمي التربية والاجتماع. توصل البحث إلى نتائج، منها أن هذه الأفلام هوساوية في لغتها، لكنها نصرانية أو يهودية في شكلها ومضمونها، لذلك غدت هذه الأفلام مستغلة لهدم القيم الإسلامية في المجتمع الهوساوي المسلم. وأن الأفلام الهوساوية قد أثرت تأثيرات بينة على المرأة وأطفال المجتمع الهوساوي في سلوكهم وأخلاقهم.

مقدمة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلي يوم الدين. وبعد:

هذا البحث محاولة متواضعة حول الأفلام الهوسوية وتأثيرها على المجتمع الهوساوي المسلم. لا شك أن الأفلام الهندية والأمريكية من الظاهرة الواضحة بالنسبة لمجتمعنا المسلم الهوساوي في جانب الترفيه، مع ما لها من الخلاف البين على تقاليدنا، فهي على تقاليدهم السيئة، وتحتوي هذه الأفلام على أنواع الفجور، ومع ذلك، لا يستهان بتأثير هذه الأفلام في مجتمعنا، لأنها أفلام مخالفة

تماما عن ثقافتنا وديننا، وسلوكنا، وطبيعتنا ولغتنا. لذلك إذا شاهدن الممثلين يرقصون ويغنون في الأفلام أدركنا أن هذا من عاداتهم وتقاليدهم، بخلاف مشاهدتنا للهوساوي المسلم يرقص ويغني، ويتحدث بلغتنا الهوسا في الأفلام. ولا شك أن الأفلام الهوساوية أكثر تأثيرا من الأفلام الأجنبية.

وفي عصرنا هذا أصبح إنتاج الأفلام سوقا ضخما، يلقى رواجا كبيرا في المجتمعات المختلفة، وتعتبر هوليود (Hollywood) الرائدة في مجال الإنتاج السينمائي للأفلام على مستوى العالم، أما على صعيد العالم العربي فتعتبر السينما المصرية هي الأقوى في الإنتاج السينمائي. أما هنا في نيجيريا فهناك شركتان قويتان، هما: نوليوود Nollywood للجنوبيين، وكانيوود Kannywood للشماليين.

مرحلة الطفولة كانت من أهم المراحل التربوية في نمو الطفل، وهي مرحلة تشكيل البناء النفسي والخلقي:

وتعتبر المرأة العنصر الأساسي في اكتشاف السلوك، والفكر المنحرف لدى الأبناء. لذلك تحدثت الباحثة على تأثير هذه الأفلام السلبي على الأطفال وعلى المرءة في مجتمعنا كي يتجنبها المجتمع الهوساوي المسلم.

وتضمن هذا البحث خمسة نقاط، وهي:

- ماهية الأفلام الهوساوية
- نبذة عن المجتمع الهوساوي المسلم
- آثار الأفلام الهوساوية على الأطفال
- آثار الأفلام الهوساوية على المرأة
- الخاتمة

ماهية الأفلام الهوساوية

الفيلم الهوساوي تجسيد لحكمة يراد إيصال مضمونها عن طريق أفلام سينمائي لصور الناس من ذكور وإناث، كبارا وصغارا، أو هو صور سينمائيا عن طريق الكاميرا، ولكل من أفراد الفيلم دور تمثله لأنه ترفيه للمشاهدين، وللفيلم أغراض منها التحذير، والوعظ، والحب والغرام، والتاريخ وغير ذلك، وكل ذلك تمثيل لا حقيقة.((1))

الأفلام الهوساوية هي وسيلة من وسائل الإعلام والتعليم والترفيه في الإعلام المرئي، أو يسمعها في الإعلام المسموع.((2))

إن الأفلام الهوساوية عبارة عن إرسال الرسالة، أو عن بيان الهدف في شكل من أشكال الترفيه[(3)].

والفيلم الهوساوي هو فن من وسائل الإعلام الكهربائية، الذي يشاهد الإنسان فيه صورًا متحركة، ويكون هذا لاستفادة كثير من الناس، وهو كلهجة عالمية يستطيع أن يفهمها الإنسان أيا كان نوعه وجنسه.[(4)]

إن الأفلام الهوساوية نوع من الكيمياء، الواصفة للسامع والناظر كيفية حياة الإنسان الممثل الفردية والاجتماعية، وكيف كانت علاقته بالآخرين في المجال العلمي والتجاري، والصناعي والسياسي والاقتصادي، كما تبين من الأفلام حياة الفرد والمجتمع، الطبيعية والعادية من حيث المأكل والمشرب والمسكن وما إلى ذلك. وصناعة الأفلام الهوساوية وغيرها تعد صناعة تعود بالفوائد والأرباح لصناعها.[(5)]

وفيما سبق ذكره، علمنا أن الأقلام في تعريف الأفلام الهوساوية قد اختلفت، إلا أن الاختلاف يكون في العبارة لا في المعنى. والأفلام الهوساوية لا تخرج عن ثلاثة أنواع منذ نشأتها، فهي إما مكتوبة أو تمثيليات إذاعية، ثم مسلسلات تلفازية بعد تطور تكنولوجية الإعلامية.

نبذة عن المجتمع الهوساوي المسلم

إن أصل كلمة هوسا ولغتها كما قال بعض المؤرخين المحليين: "هي الأصوات التي تتحدث بها القبائل الساكنة في بلاد السودان الغربي كما سماها العرب سابقا"[(6)]

تعتبر لغة الهوسا أولى اللغات التواصلية في غرب أفريقيا، حيث يتحدث بها أكثر من ثمانين مليون نسمة، كثير منهم ينتمي عرقيا إلى قبائل أخرى غير هوساوية الأصل، ولكنها تهوست بمرور الزمن، وصارت لا تعرف هوية غير الهوسا، لذلك بدأ الباحثون منذ فترة يتعاملون مع الهوسا باعتبارهم أمة، وليست قبيلة بالمعنى الضيق للكلمة، وهم في ذلك أشبه بالأمة العربية[(7)].

ومما لا شك فيه أن لغة الهوسا هي إحدى اللغات الكبرى في القارة الأفريقيا، ويقول المؤرخون إن قبائل الهوسا كانت مجموعات زراعية، تسكن في أراض خصبة، كل مجموعة مستقلة عن الأخرى، وتجمعهم لغة الهوسا، وبعد مرور فترة طويلة من الزمن تكاثرت وتجمعت، ثم تطورت إلى ولايات عدة.[(8)]

يمتد الوطن الأصلي لقبائل الهوسا من جيل الهواء في النيجر، إلى منطقة جُوسْ بِلَاتُو في وسط نيجيريا، ومن بحيرة تشاد مرورا بإمبراطورية السونغاي القديمة، على طول وادي نهر النيجر. وهي المنطقة التي تعرف حاليا باسم جمهورية مالي التي عرفت من قبل باسم إقليم السودان الأوسط. إن أبناء قبائل الهوسا الموزعين على مساحة جغرافية واسعة، يعتبرون المجموعة العرقية الكبرى

بالأقاليم الشمالية لنيجيريا، أو كما يشار إليها عادة باسم 'الشمال الأقصى' أو 'مسلموا الشمال'.[(9)]

فأخلاق المجتمع الهوساوي بعد دخولهم الإسلام تحولت تماما إلى الأخلاق التي حث عليها الإسلام، وتخلقوا بهذه الأخلاق اقتداء بالنبي محمد ﷺ، الذي هو أكمل البشر خَلقًا وخُلُقًا، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[(10)]

لقد كانت الحياة الاجتماعية في شمال نيجيريا مبنية على دعائم الدين، لأن هذا الشعب من أشد شعوب السودان حفاظا على الدين، يؤدون الصلاة في أوقاتها ويحافظون على الزكاة والصيام والحج، وهو أمر ملموس مشاهد في هذه البلاد.[(11)]

كما تظهر شعائر الدين والصحوة الإسلامية في شباب وشيوخ هذا الشعب منذ الثورة الفودية الإصلاحية، فقد سعوا لإحياء السنن وإخماد البدع، فقد أرخووا اللحي، وأطالوا ذوائب العمائم، واعتنوا بالسنة أيما اعتناء. فالمسلمون في نيجيريا الشمالية على الأخص، ينظرون إلى الزي الهوساوي الوطني، على أنه هو الزي الإسلامي الذي يتعين على المسلم أن يتزين به، لكونه ساترا واسعا مانعا، أما الذي يلبس الزي الإفرنجي الضيق المظهر للعورات، فإنه يعتبر كافرا، ويستدلون على كفره بحديث رسول الله ﷺ: "من تشبه بقوم فهو منهم"[(12)] لأن الزي الإفرنجي، لم يكن معروفا ولا مألوفا قبل دخول الإنجليز إلى البلاد في أوائل القرن العشرين.[(13)] وعلى نظر الباحثة، تغير الأمر الآن، يمكن أن تجد إنسانا مسلما يلبس الزي الإفرنجي الضيق، وتجد كافرا متلبس بالزي الهوساوي الوطني الذي هو ساترا واسعا.

وقد كان هناك الاحترام البالغ للأزواج في الشعب الهوساوى، فإن الزوج يعتني بزوجته ويخدمها، كما تقوم الزوجة بدورها في خدمته، تتواضع له كل التواضع، لا تستطيع أن تمد إليه طعاما أو شرابا إلا وهي جاثية على ركبها، اعتقادا منها أنه سر سعادتها في الدنيا والآخرة، وقد بلغ الأمر بها أنها لا تستطيع أن تناديه بأي اسم أحبه، أو لقب به، بله أن تنادي اسم والده أو والدته لشدة الحياء، أو ابنه الأول منها، وإن كان ذلك مخالفا للشرع الإسلامي، ولكن تغير الأمر الآن أصبح الممنوع جائزا بفضل تغيرات الزمن، وتقلبات الدهر، واتساع العلم، جعلت الزوجة تنادي الزوج أمام أصهارها بأسماء ودية غريبة، وتجالس زوجها أمامهم بدون مضايقة.[(14)] لكن الأمر الآن يزداد قبحا لوجود الأفلام الهوساوية التي تعلم منها بعض الشباب والشابات في مجتمعنا كيف يقودون حياتهم.

آثار الأفلام الهوساوية على الأطفال

تعتبر"مرحلة الطفولة" من أهم المراحل التربوية في نمو الطفل، اللغوي والعقلي والاجتماعي، وهي مرحلة تشكيل البناء النفسي، الذي تقوم عليه أعمدة الصحة النفسية والخلقية، وتتطلب

هذه المرحلة من الأبوين إبداء عناية خاصة في تربية الأطفال، وإعدادهم ليكونوا عناصر فعالة في المحيط الاجتماعي، وليساعدوا في نهضة الأمة في المستقبل بإذن الله تعالى.

إن الأفكار البناءة المنتجة في أي أمة من الأمم، هي أعظم ثروة تنالها في حياتها، وأعظم هبة يتسلمها الجيل من سلفه، إذا كانت الأمة عريقة في الفكر المستنير. أما الثروة المادية والاكتشافات العلمية، والمخترعات الصناعية، فإن الاحتفاظ بها يتوقف على الأفكار، ولاشك في أن التقدم العلمي والتكنولوجي مرهون بالتقدم الفكري وليس المعرفي وحده، والتقدم الفكري هو حصيلة لأعمال العقل، والتنور بما يؤدي إلى الإبداع والابتكار، وحسن التدبر.

ولم يعد دور الإنسان في هذا العصر منحصرا على التكيف مع الواقع، وإنما تعداه إلى ضرورة تغيير هذا الواقع بما يتناسب مع تطلعاته المحدودة، وهذا يقودنا إلى ضرورة استبدال أفكار ولعب دور المتلقي إلى تنمية التفكير والإبداع والعطاء، أي عدم لعب دور المتأثر بالأشياء إلى المؤثر بها، وهنا لعبت التكنولوجيا ووسائل الإعلام دورها الخطير في تغيير شخصية الفرد كبيرا وصغيرا لا سيما الأطفال في سلوكياتهم واتجاهاتهم وأفكارهم.[(15)]

ومن آثار هذه الأفلام على الأطفال: غرس السلوكيات السيئة في أذهان الأطفال. وكما نعلم جميعا قبل مجيء الأفلام الهوساوية، أينما وجدنا الأطفال في الطريق عند الذهاب أو الرجوع من المدرسة نسمعهم يرددون ما درسوا في المدرسة، سواء كان ذلك قرآنا أو سنة نبوية الشريفة أو درس من دروس المدرسة الغربية التي تسمى ببوكو Boko، لأن الدراسة بالنسبة للأطفال كانت على شكل الألحان أو الأغاني، ولكن مع ظهور هذه الأفلام التي كثر فيها الأغاني، استبدلوا القراءة بالأغاني الأفلامية في أذهان أطفالنا. وأول أغنية فيلمية تصاب الأمة الهوساوية بها هي أغنية في فيلم:Ki yarda da ni ،[(16)] و 'Sangaya'[(17)] وهي أغان لا معني لها.

وهذه الأفلام غرست السلوكيات السيئة الرذيلة في أذهان الأطفال بشكل مباشر أو غير مباشر، كالكذب، والغش، وعدم الاحترام، والوقاحة، والعصيان، كل ذلك أثر تدريجيا في عقول أطفالنا.

إن مقصد منتجي هذه الأفلام من هذه السيناريوهات، هو تنبيه المجتمع عما يحدث من تدهور التربية، وأن الحاصل في هذه الأزمنة من الجيل الحاضر غير مألوف في المجتمع الهوساوي، المعلوم عن المجتمع الهوساوي في الأجيال السابقة هو الطاعة المطلقة للآباء، لكن تغير الزمن حيث أصبح الآباء غير متحكمين على أبنائهم، هذا ما يقصده منتجو الأفلام إلا أنهم بدل التصحيح يفسدون، وبدل البناء يهدمون، حيث أصبح الأطفال يقتدون بأبطال الأفلام، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا. جولة عن هذا النوع من الأفلام تؤكد ما ذكرته الباحثة.

ففي فيلم: Sawun Giwa،[(18)] أصبح نجم الفيلم عاقا لوالدته، ووصل به الأمر أن سجن أمه في السجن بنفسه، إضافة إلى ارتكاب الكبائر والخمور والزنا، وعلى عكس عمله فقد كانت ابنته بارة

له، ولم يكن ثمة ما يشير إلى إنابته، فيحسب المشاهد أن عمله صحيح، وقد قال تعال:﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠ ﴾[19]

وهو نفس ما حصل فى فيلم Suwaga،[20] أهان النجمان أبويهما، وانتهى الفيلم بدون إشارة إلى ندمهما وصلاح أمرهما. وأبشع ما أنتجته السينما الهوساوية، هو فى أفلام ثلاثة:

(1) Dan-tijara[21]: حكاية عن أم، منعت ابنها أن يزنى بإمرأة فى غرفتها، فأبى أن يطيع أمه، بل بلغ به الأمر أن رفع صوته قائلا بأنه مستعد أن يدفع لأمه ثمن متاعبه التي تحملت من حمله إلى ولادته، وفطامه وكبره. سبحان الله، هل هذا أمر يستحق أن تصرف فيه أموال، وطاقات، وأوقات لإنتاج فيلم عليه، فمثل هذا لا ينبغى أن يبث فى الأمة. علما بأن الأفلام الغربية ودعاياتهم الإعلامية قد نشرت مثل هذه الخلق السيء بين أوساط المسلمين بحجة حقوق الفرد.

(2) Gidan Dadi Duniya[22]: كان نجم الفيلم جالسا في غرفته في بيت أبيه بين عاهرات نديمات له، فناداه والده ليرسله إلى مهمة له، فامتنع أن يستجيب لنداء أبيه، فأمر واحدة من صديقاته أن تجيب، ومن بداية الفيلم إلى آخره لم يكن بينه وبين والده أى احترام، مالفائدة فى إنتاج هذا الفيلم؟ قد يقول قائل: الفيلم يشير إلى قصور الأب فى تربية الولد غير مؤدب، ولكن ما الذى يستفيد منه المجتمع إذا شاهد هذا الفيلم رغم كون هذا السيناريو نادرًا فى المجتمع. وقد يكون شبه منعدم.

(3) Kona Gari[23]: سيناريو عن بنت، كانت بغيا، فدخل عليها والدها يعظها وينصحها، فما كان جوابها إلا أن تبرأت من أبوته لها، ما الذى يستفيد المجتمع من هذه النوادر؟

ومن آثار هذه الأفلام على الأطفال أيضا: ترديد الكلمات الفاسدة. وإذا نظرنا إلى أفلام 'طَنْ إِبْرُوْ' Ibro -Dan وأصحابه، مثل 'طن دولو' Dan-dolo و'طن أوتا' Dan-auta و'بابا آري' Baba Ari وغيرهم، وجدناها أثرت تأثيرًا ظاهرًا في صياغة سلوكيات الأطفال على الأخص، وأكثر هذه الأفلام تحتوي على الشتم والإختلاط، وعقوق الوالدين، والسرقة، والرقص والغناء الماجن، والكلام الفاسد ونحو ذلك.

وهذا التأثير لم يقف على الأطفال في البيت أو المدارس النظامية، بل وصل إلى المدارس الأهلية غير النظامية التي تخرج القراء وحفظة القرآن، فترى 'الماجر' يرقص ويغني في قارعة الطريق مرددا أبيات الفنانين، ويتشاتم مع أصدقائه بالشتائم التي يحفظها من أفواه الفنانين

ومن الكلمات الفاسدة التي يرددها الأطفال من أجل مشاهدة هذه الأفلام السباب والشتائم. فالمجتمع الهوساوي مجتمع مسلم، والشتائم ليس من دأب المسلمين، فنبينا ﷺ ليس صخّابا ولا فحاشا؟ فلا ينبغي أن ينتج أفلام تعلم السباب والشتائم والبذاءة.

وهو ما شاهدت الباحثة فى فيلم Ibro Tsohon Kwando،[(24)] حيث يسب Dan-Ibro زوجاته وبناته، ويأمر بناته بمعاملة رجال أجانب عنهن، بل وبالفاحشة الكبرى، و كان يقول لبناته فى هذا الفيلم: "ما دام الشباب أعطاكن المال فلا عيب من زيارتهم فى غرفهم" أى أب يقول هذا فى المجتمع الهوساوى، هذه إساءة لمجتمعنا ولا أحد يأبه، ما ظنكم لو أخذ بعض الشعوب هذا الفيلم، بم يفسرون المجتمع الهوساوى، ما هذا إلا إفك مبين، هذا الفنان يبالغ جدا فى إهانة أطفال المجتمع الهوساوى.

ومثله فيلم: Goje،[(25)] بطولة Dan-Dolo، ليس فيه إلا السب والشتم، وكذلك Karangiya[(26)] فيلم آخر ل Dan-Ibro، وهو عبارة عن شتائم بين Dan-Ibro وأبنائه، كل هذا افتراء على الشعب الهوساوى، على أمور غير حاصلة، بل يريد بفعله ذلك أن يقدم الشعب الهوساوى إلى هذه الرذيلة، لذلك يمهد بهذه الأفلام، كما رأينا أيضا فى فيلمه الآخر Gwari Gwari،[(27)] حيث يسبه إبنه معاينا له بين يدى أمه. لا شك أن هذا يأثر على الأطفال لذلك تراهم يتشاتمون مع أصدقائهم بالشتائم التي يحفظونها من أفواه هؤلاء الفنانين.

آثار الأفلام هوساوية على المرأة

وإذا نظرنا إلى حياة المرأة في مجتمعنا هذا، وجدناها تشتغل بأمور الدنيا وتعلقت بتعليقات كثيرة سيئة من مشاهدة هذه الأفلام التي تمنعها عن الإتيان بالواجبات التي أوجبها الله عليها على أولادها وزوجها، وهي مسئولة عن ذلك كله كما أخبرنا الرسول ﷺ:

> "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهل بيته ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ومسئولة عن رعيتها، والولد راع في مال أبيه ومسئول عن رعيته، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته." [(28)]

لا شك أن دور الأم دور كبير في إدارة أسرتها، وإخراج نماذج حسنة من أبنائها، ومن هذا المنطلق تعتبر المرأة العنصر الأساسي في اكتشاف السلوك، والفكر المنحرف لدى الأبناء، ولهذا أصبح من الضروري إسهام المرأة في معرفة مؤثرات على السلوك التطرفي وعلاماته، ومن أهم واجبات الأم نحو أبنائها أن تركز نفسها على القدوة الحسنة لنفسها ولأبنائها، وأن تكون على دراية بالثقافة التربوية الشاملة لجميع مراحل العمر، كما أن عليها أن تجعل مصادر ثقافة أبنائها نقية لا يشوبها شيء من الباطل والمغالطات، وأن تجعل القرآن والسنة مصدراً لثقافتهم، كما أن عليها أن تكون على دراية بتقنيات العصر، فالأم هي الحضن والحصن الأول لتهيئة الأبناء للحياة السعيدة، وبداية الطريق نحو الخير أو الشر، فهي تحمل وتربي، وتسهر وترضع، فهي المصدر الأول لإشباع احتياجات الطفل ورغباته، واهتماماته النفسية، والتربوية والفكرية.[(29)]

وما لهذا الجهاز من السيطرة على عقول المجتمعات، وما له من الآثار على المرءة المسلمة، وهي الشخصية التي نرجو أن تسود العالم بما تحمله من الأهداف النبيلة.

ومن آثار هذه الأفلام على المرأة: إثارة وتحريض في سياق الإختلاط. وكما كانت الأفلام الهوساوية ليست من تقاليدنا، فيها نقل لعادات وتقاليد البلاد الكافرة، المناقضة للإسلام في العلاقات الاجتماعية، والتربوية حقا إنها موائد الكفار، ومكرهم، وتخطيطهم، وغيهم وضلالهم، يقتنها المسلم ليتربى عليها ويربي أبناءه عليها، لينهلوا من أخلاقهم وأفكارهم.

فمثلا إذا لاحظنا إلى كيفية الزواج في مجتمعنا الهوساوي وجدناه مغايرًا تمامًا لما يعرض في هذه الأفلام، وهكذا حفلات الزفاف اليوم تجري على قدم وساق لما يعرض في هذه الأفلام، الإختلاط والرقص والغناء هما سيدا الموقف. والحفل الزفافي الجامع للفنانين ومغني الأفلام الهوساوية يعد الحفل المثالي الذي يكون حديث الشارع ومفخرة المتزوجين.

كانت ملابس النساء فى المجتمع الهوساوى سابغة ساترة، لم يعرف عن نساء المجتمع ألبسة ضيقة، شفافة، المظهرة لمفاتن النساء، إلا فى نهاية الثمانينات وبداية التسعينات إلى اليوم، بل الأمر يزداد قبحا بظهور الأفلام الغربية والهندية، ثم الأفلام المحلية التى تتأسى بالأفلام العالمية، فتأثرت المرأة الهوساوية بهذه الأزياء الجديدة الضيقة الغير ساترة.

فالأفلام الهوساوية مليئة بالتبرج والسفور، فالبنات يخرجن شبه عاريات، فتراهن كاشفات لرؤوسهن، مستوصلات لشعرهن، لابسات أقمصة مظهرة لنهودهن، وتنانير أو سراويل ضيقة مبينة خصرها وأكفالها، كل ذلك لتلفت أنظار المشاهد، ما هو إلا ترويج للزنا عبر هذه الأفلام، وهدم لأخلاقنا وقيمنا.

مشاهدة لفيلم:A Cuci Maza [(30)] ينبئك عما كانت عليه الفتيات فى هذا الفيلم من الألبسة شبه العارية، وعلى رؤوسهن ما يوحى بطول شعرهن، وهو أن تحشو خمارها كوبا طويلا فنسجم مع تناغم شعرها من القفا, فتبدو كأنها زاخرة شعر الرأس. وقد قال ﷺ: "رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها"[(31)]

وانظر كذلك الفيلم Gidan Dadi Duniya نفس الحكاية، وفليم: Ina Mafita Ga 'Ya'yanmu [(32)] وغيرها الكثير.

فما أعظمها من بلية، وما أشدها من خيانة، أن يربي المسلم نفسه وأهله على أعمال الفجور، يبيع دينه وأخلاقه، وعرضه وحياءه من أجل شهوة عارضة، أو تقليد مقيت، فإن لم يكن هناك خوف من الله وحياء منه، فأين العزة والشهامة والغيرة على العرض؟ وربنا أخبرنا عن الكافرين فقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾[(33)] إنهم أضل من الحمير والبهائم، فكيف نقلدهم ونرضع من أفكارهم، وندنس قلوبنا وبيوتنا وأبناءنا بخبثهم

ومجونهم، وهم ساقطون في الرذيلة لأنهم يعتبرونها هي المدنية والحرية والتحضر، وهم قبل ذلك كفار ملعونون، فليس بعد الكفر ذنب.((34))

ومن تأثير هذه الأفلام على المرأة أيضا: المكر والخيانة، ولعل هو الذى يستفيد منه المجتمع الهوساوي، بحيث يكشف عن مشكلات الحياة الزوجية فى المجتمع الهوساوى من جانب. إن العادة فى المجتمع الهوساوى التعدد فى الزواج، وهو المعهود عند أسلافنا، ولكن أصبح التعدد اليوم أمرا صعبا فى طبقة المثقفين خصوصا، فتجد زوجة الرجل تمانع أن يتزوج زوجها عليها، فإما أن تلجأى إلى إضرار الزوج، وإن كان ذلك يؤدى إلى هلاكه، أو تقصد ضرتها بأضرار تمنعها السكون والطمأنينة فى البيت، وقد تصل بعض الضرات إلى قتل ضراتهن لشدة غيرتهن.

فمنتجو الأفلام الهوساوية هنا حاولوا كشف هذه المشكلات ولو كان الهدف الربح المادي، ليتخذ المجتمع الخطوات اللازمة فى حل هذه المشكلات والأزمات الزوجية. ولعل أبرز الأسباب المؤدية لهذه المشكلة هو جمع الزوجات فى بيت واحد، فى غرف متجاورة، فلو أن الأزواج يقتدون بالنبى ﷺ لما حصلت هذه المشكلات، حيث كان لأزواجه ﷺ بيوت متفرقة فى مجمّع سكني واحد، فلا تعرف الضرة ما يحصل فى بيت ضرتها.

فمن هذه الأفلام على سبيل المثال Dakin Amarya،((35)) أى بمعنى: غرفة العروسة. كان نجم الفيلم متزجا فتزوج بالثانية، فاغتاظت الأولى وتضايقت من زواجه، ولم تهدأ يوما وتطالبه بفراق الثانية، واستعملت كل الحيل إلا أنها لم تنجح، فماستطاعت أن تملك نفسها، فدخلت على الزوج مع عروسته وحطمت كل ما فى الغرفة من الأثاث والمتاع، وأرادت أن تشعل حريقا فى الغرفة لولا أن أخذ بيدها.

وهى الحكاية فى فيلم Wata Mace،((36)) لما تزوج على زوجته العقيمة، فهمت الأولى بقتل الثانية الحامل في الليل، فطلقها الزوج طلاقا بائنا، فعادت فى الليل لتقتل الزوج إلا أنها لم تنجح.

وفى فيلم Da Kishiyar Gida،((37)) منعت الزوجة الزوج من الزواج، وهى عاقر، وكلما أراد أن يتزوج ذهبت وخاصمت المخطوبة، فيمتنع أبوى المخطوبة من تزويج زوجها خشية ما قد يحصل بعد الزواج من الفتن، فقد ذهبت يوما إلى بيت مخطوبته فضربت المخطوبة مع أمها. وكانت هذه المرأة تصارح زميلاتها بأنها لن تترك زوجها يتزوج عليها، وأنها تفضل أن يعاشر البغايا خارج البيت، بدل أن يزف فى بيتها زوجة ثانية.

وبالفعل لما لم يستطع أن يتزوج نجم الفيلم لجأ اضطرار إلى العاهرت، وفى النهاية أصيب بداء الإيدز، ولم يكتشف إلا بعد أن مرضت زوجته وذهبت للفحوصات الطبية، فا كتشف أنها مصابة بالإيدز، وهناك وقعت الواقعة، فمكر هذه المرأة أرداهما، ففى الفيلم عبر يعتبر بها الأزواج.

وعلى شاكلة المذكور أفلام كثيرة، مثل Labarin Dare[(38)] و Uwar Miji[(39)] و Matan Gida[(40)] الذى يكشف عن خيانة الأزواج خارج بيوتهم، والزوجات خارج البيوت الزوجية، وخيانة الأصدقاء فى بناتهم.

ومن الآثار السيئة من مشاهدة هذه الأفلام، دفع المرءة إلى مقاربة المعاصي وإلى إضاعة الوقت، ولذلك علىها أن تبتعد عنها حتى تسلم بدينها، وتحتفظ بوقتها.

الخاتمة:

بعد التحدث عن آثار الأفلام الهوسوية على المجتمع الهوساوي المسلم، يمكن للباحثة تلخيص أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال كتابة هذا البحث، وهي في النقطات التالية:

(1) أن المجتمع الهوساوي المسلم مجتمعا متمسكا بعاداته الطيبة وسلوكياته العريقة، متمثلا للآداب الإسلامية.

(2) أن هذه الأفلام هوساوية في لغتها، لكنها نصرانية أو يهودية في شكلها ومضمونها، لذلك غدت هذه الأفلام مستغلة لهدم القيم الإسلامية في المجتمع الهوساوي المسلم.

(3) أن الأفلام الهوساوية قد أثرت التأثيرات السلبية الواضحة على مرءة وأطفال المجتمع الهوساوي في سلوكهم وأخلاقهم. وأثرت أيضا التأثيرات الإيجابية على المرءة في المجتمع الهوساوي بوجه خاص.

وفي الختام قامت باحثة بتنبيه المجتمع الهوساوي المسلم على خطر هذه الأفلام التي تبث السموم في مجتمعنا. وفي الأخير فإن الباحثة توصي بإصدار الأفلام الهوساوية وفق عادات وتقاليد المجتمع الهوساوي الإسلامي، لأن منتجي الأفلام الهوساوية لم يكن همهم في إصدار الأفلام إلا التقليد. وتوصي الباحثة أيضا بأن لا تشتمل الأفلام الهوساوية على أنواع الفجور كالتبرج والسباب والشتائم، والخلاعة وغيرها الكثير. وتوصي أيضا بمشاهدة الأفلام البناءة لقيمنا.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أبو داوود، سليمان بن الأشعث السجستان، سنن أبي داود. دار السلام، مكتبة العربية السعودية، (د- م) الطبعة الثالثة، 1421هـ.

أبيكن، موسى عبد السلام مصطفي، الأدب الإسلامي بغرب إفريقيا مصادره ومناحيه، (د- ت) بتصرف.

الإلوري، آدم عبد الله، موجز تاريخ نيجيريا، دار مكتبة الحياة، بيروت لنان، الطبعة الثانية، 1965م.

البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري. دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 1427هـ-2006م.

القشيري، مسلم بن حجاج صحيح مسلم. مكتبة الإيمان بالمنصورة. (د- م-ت)

إبراهيم بن ناصر الحمود (الدكتور)، جريدة الرياض، بعنوان: الأسرة ودورها في حماية أبنائها من الإنحراف، 13 فبرير 2009.

غلادنثي، شيخو أحمد سعيد، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا. المكتبة الإفريقية، الطبعة الثانية، 1414هـ – 1993م.

علي أبوبكر (الدكتور)، الثقافة العربية في نيجيريا. مؤسسة عبد الحفيظ البساط، بيروت لبنان، الطبعة الأولي، 1972م. بتصرف

خطبة الجمعة للشيخ عبد الله بن فهد السلوم، بعنوان: خطر الأفلام، من الشاشة الإنترنيت من موقع: www.islamdoor.com/k/276.htm.

Tanimu Musa Yar'adua, Wasan Kwaikwayo na Hausa Nau'o'insa da Sigoginsa, Benchmark Publishers Limited Kano Nigeria, 2007.

Yahaya I.M.Y. Nazari a kan yanayin wasan kwaikwayo na Hausa, Studies in Hausa Language, Literature and Culture Kano. Cibiyar Nazarin Harsunan Nigeria Jami'ar Bayero Kano.

Alhaji Haruna Danjuma, Brief History of Drama in Northern Nigeria, Hausa Home Videos: Technology Economy and Society, Center for Hausa Cultural Studies Kano Nigeria, 2004.

Ado Ahmad Gidan Dabino and Bashir Mudi Yakasai, Matsaloli da Nasarorin masu shirya Fina-Finan Hausa, Hausa Home Videos: Technology Economy and Society.

Schuh, Russell G, Lawan D. Hausa Handbook of the International Phonetic Association, Cambridge University Press, 2007.

الهوامش:

((1)) Tanimu Musa Yar'adua, Wasan Kwaikwayo na Hausa Nau'o'insa da Sigoginsa, Benchmark Publishers Limited Kano Nigeria, 2007. p.30

((2)) Alhaji Haruna Danjuma, Brief History of Drama in Northern Nigeria, Hausa Home Videos: Technology Economy and Society, Center for Hausa Cultural Studies Kano Nigeria, 2004. P15

((3)) Yahaya I.M.Y. Nazari a kan yanayin wasan kwaikwayo na Hausa, Studies in Hausa Language, Literature and Culture Kano. Cibiyar Nazarin Harsunan Nigeria Jami'ar Bayero Kano.

((4)) Ado Ahmad Gidan Dabino and Bashir Mudi Yakasai, Matsaloli da Nasarorin masu shirya Fina- Finan Hausa, Hausa Home Videos: Technology Economy and Society, P332

((5)) المصدر السابق، والصفحة نفسها.

((6)) الإلوري، آدم عبد الله، موجز تاريخ نيجيريا، دار مكتبة الحياة، بيروت لنان، الطبعة الثانية، 1965م، ص27

((7)) أبيكن، موسى عبد السلام مصطفي، الأدب الإسلامي بغرب إفريقيا مصادره ومناحيه، (د- ت) ص: 22 بتصرف.

((8)) غلادنثي، شيخو أحمد سعيد، مرجع سابق، ص 37

((9)) Schuh, Russell G, Lawan D. Hausa Handbook of the International Phonetic Association, Cambridge University Press, 2007. 90-95

((10)) سورة القلم، الآية: 4

((11)) علي أبوبكر (الدكتور)، الثقافة العربية في نيجيريا. مؤسسة عبد الحفيظ البساط، بيروت لبنان، الطبعة الأولي، 1972م.ص 235 بتصرف

((12)) أخرجه أبو داوود، كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، برقم: 4031، سنن أبي داوود، بتحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار السلام، مكتبة العربية السعودية، الطبعة الثانية، 1421هـ. الجزء الثاني، ص 441.

((13)) علي أبوبكر، مرجع سابق، ص 236 بتصرف

((14)) المصدر السبق، ص 239-240 بتصرف

((15)) أحمد سيد كردي، أثر الإعلانات والبرامج التلفيزيونية من مجلة الباحثون الإلكترونية من موقع: kenanaonline.com، 12 أكتوبر 2011.

((16)) أصدرته شركة: Mandawari Enterprises سنة: 1999

((17)) أصدرته شركة: Sarauniya Films Production سنة: 1999

((18)) أصدرته شركة: Saira Movies سنة: 2006

((19)) سورة الأنعام، الآية: 160

((20)) أصدرته شركة: Royal Film Industries سنة: 2011

((21)) أصدرته شركة: Kaz Motion Picture سنة: 2008

((22)) أصدرته شركة: Hamrahz Film Production سنة: 2012

((23)) أصدرته شركة: T.M.A Productions سنة: 2012

((24)) أصدرته شركة: I.U.I Films Production سنة: 2004

((25)) أصدرته شركة: I.U.I Films Production سنة: 2005

((26)) أصدرته شركة: Al'umma Motion Pictures سنة: 2012

((27)) أصدرته شركة: Kabugawa Production سنة: 2008

((28)) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القري والمدن، برقم: 893، صحيح البخاري، المصدر السابق، ص 183.

((29)) إبراهيم بن ناصر الحمود (الدكتور)، جريدة الرياض، بعنوان: الأسرة ودورها في حماية أبنائها من الإنحراف، 13 فبرير 2009. ص8

((30)) أصدرته شركة: Effects Empire 2 سنة: 2012

((31)) أخرجه مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب النساء الكسيات العاريات المائلات المميلات، برقم: 2128، صحيح مسلم، المصدر السابق، ص 1081.

((32)) أصدرته شركة Abnur Entertainment سنة: 2012

((33)) سورة الفرقان، الآية: 44

((34)) خطبة الجمعة للشيخ عبد الله بن فهد السلوم، بعنوان: خطر الأفلام، من الشاشة الإنترنيت من موقع: www.islamdoor.com/k/276.htm.

((35)) أصدرته شركة Asnanic Movietone سنة: 2012

((36)) أصدرته شركة: Soso Productions سنة: 2009

((37)) أصدرته شركة: Abul-Aziz Dan Small سنة: 2012

((38)) أصدرته شركة: 3sp International Limited سنة: 2011

((39)) سبق البيان عنه ص: 100

((40)) أصدرته شركة Mai Kwai Movies سنة: 2012

الحسبة وأثرها في تحقيق الأمن النفسي والاجتماعي

د/ محمد مسلم إبراهيم
الأستاذ المشارك بقسم الدراسات الإسلامية بجامعة القلم كتشنا

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الصادق الأمين. صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته الغر الميامين وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين.

أما بعد ؛ فهذه وريقة علمية لدورة "الحسبة في الإسلام" المنعقدة في مركز الحضارات والحوار بجامعة بايرو بالتعاون مع مؤسسة النصيحة، بتاريخ 2023/12/17م. والورقة بعنوان: "الحسبة وأثرها في تحقيق الأمن النفسي والاجتماعي" وزعتها على مقدمة وخاتمة بينهما مطلبان، كالتالي:

- المقدمة في مفهوم الحسبة وأهميتها.
- المطلب الأول: مفهوم الأمن النفسي وأثر الحسبة في تحقيقه
- المطلب الثاني: مفهوم الأمن الاجتماعي وأثر الحسبة في تحقيقه
- الخاتمة.

سائلا المولى جل في علاه أن يفيدنا بما كتبنا ويجعله شاهدا لنا لا علينا ويرزقنا العمل بما علمنا ويجنبنا الفتن والآثام ما ظهر منها وما بطن. كما أسأله أن يجزي القائمين على إعداد هذه الدرة خير الجزاء ويوفقهم لمواصلة الجهود نحو كل ما يدعم الحياة الإسلامية ويصحح مسيرتها إلى بر الأمان. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

المقدمة: مفهوم الحسبة ومشروعيتها وأهميتها

تعريف الحسبة في اللغة:

الحسبة مصدر من الاحتساب، وهو طلب الأجر، والاسم حسبة بالكسر وهو الأجر. وجذر الكلمة: الحاء والسين والباء، له أصول أربعة:

- أولها: الْعَدُّ. تَقُولُ: حَسَبْتُ الشَّيْءَ أَحْسُبُهُ حَسْبًا وَحُسْبَانًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: 5]. وَمِنْ قِيَاسِ الْبَابِ الْحِسْبَانُ الظَّنُّ،...

وَمِنَ الْبَابِ الْحَسَبُ الَّذِي يُعَدُّ مِنَ الْإِنْسَانِ. قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: مَعْنَاهُ أَنْ يَعُدَّ آبَاءً أَشْرَافًا.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُمْ: احْتَسَبَ فُلَانٌ ابْنَهُ، إِذَا مَاتَ كَبِيرًا. وَذَلِكَ أَنْ يَعُدَّهُ فِي الْأَشْيَاءِ الْمَذْخُورَةِ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى. وَالْحِسْبَةُ: احْتِسَابُكَ الْأَجْرَ. وَفُلَانٌ حَسَنُ الْحِسْبَةِ بِالْأَمْرِ، إِذَا كَانَ حَسَنَ التَّدْبِيرِ وَلَيْسَ مِنَ احْتِسَابِ الْأَجْرِ. وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَابِ ; لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ حَسَنَ التَّدْبِيرِ لِلْأَمْرِ كَانَ عَالِمًا بِعِدَادِ كُلِّ شَيْءٍ وَمَوْضِعِهِ مِنَ الرَّأْيِ وَالصَّوَابِ. وَالْقِيَاسُ كُلُّهُ وَاحِدٌ.

- وَالْأَصْلُ الثَّانِي: الْكِفَايَةُ. تَقُولُ شَيْءٌ حِسَابٌ، أَيْ كَافٍ. وَيُقَالُ: أَحْسَبْتُ فُلَانًا، إِذَا أَعْطَيْتَهُ مَا يُرْضِيهِ ; وَكَذَلِكَ حَسَّبْتُهُ.
- وَالْأَصْلُ الثَّالِثُ: الْحُسْبَانُ، وَهِيَ جَمْعُ حُسْبَانَةٍ، وَهِيَ الْوِسَادَةُ الصَّغِيرَةُ. وَقَدْ حَسَّبْتُ الرَّجُلَ أُحَسِّبُهُ، إِذَا أَجْلَسْتَهُ عَلَيْهَا وَوَسَّدْتَهُ إِيَّاهَا.
- وَالْأَصْلُ الرَّابِعُ: الْأَحْسَبُ الَّذِي ابْيَضَّتْ جِلْدَتُهُ مِنْ دَاءٍ فَفَسَدَتْ شَعَرَتُهُ، كَأَنَّهُ أَبْرَصُ.

زاد الفيروزآبادي معنى آخر، حيث قال رحمه الله: "احْتَسَبَ عليه: أنْكَر، ومنه: المُحْتَسِبُ"، ولعل هذا المعنى المقصود ههنا، وهو معنى فرعي من معاني الأصل الأول – احتسب فلان ابنه وذلك أن يعده في الأشياء المذخورة له عند الله – وهو من قبيل تخصيص العام، أي طلب الأجر بالإنكار ومقابله الأمر.. ويمكن أن يدخل تحت المعنى الآخر من هذا الأصل هو حسن التدبير.. فالحسبة تدبير إقامة الشرع في ديار الإسلام[1].

الحسبة في الاصطلاح:

عرفها الماوردي "أمر بالمعروف إذا ظهر تَرْكُه، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله"[2].

الحسبة عبارة عن المنع عن منكر لحق الله صيانة للممنوع عن مقارفة المنكر[3].

وقد عرفها جمهور الفقهاء بأنها:ولاية دينية يقوم ولي الأمر - الحاكم - بمقتضاها بتعيين من يتولى مهمة الأمر بالمعروف إذا أظهر الناس تركه، والنهي عن المنكر إذا أظهر الناس فعله، صيانة للمجتمع من الانحراف، وحماية للدين من الضياع، وتحقيقا لمصالح الناس الدينية والدنيوية وفقا لشرع الله تعالى[4].

وعند التأمل في التعريفات السابقة وغيرها يظهر أن الحسبة هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن كانت عن ولاية حكومية فتتخصص بما ظهر تركه من المعروف وما ظهر فعله من المنكرات ونحو ذلك من الحقوق والواجبات. وإن كانت عن تدين وشعور بالمسؤولية والذي يسمى: التطوع فهي شاملة لكل خير بالحث عليه وتعليمه ولكل منكر بتقليله والزجر عنه والإبلاغ عنه للمسؤولين وما إلى ذلك[5].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وَإِذَا كَانَ جِمَاعُ الدِّينِ وَجَمِيعُ الْوِلَايَاتِ هُوَ أَمْرٌ وَنَهْيٌ؛ فَالْأَمْرُ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ هُوَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ الَّذِي بَعَثَهُ بِهِ هُوَ النَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ وَهَذَا نَعْتُ النَّبِيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ سورة التوبة (71). وَهَذَا وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ قَادِرٍ، وَهُوَ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ، وَيَصِيرُ فَرْضَ عَيْنٍ عَلَى الْقَادِرِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ بِهِ غَيْرُهُ، وَالْقُدْرَةُ هُوَ السُّلْطَانُ وَالْوِلَايَةُ فَذَوُو السُّلْطَانِ أَقْدَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ؛ وَعَلَيْهِمْ مِنْ الْوُجُوبِ مَا لَيْسَ عَلَى غَيْرِهِمْ. فَإِنَّ مَنَاطَ الْوُجُوبِ هُوَ الْقُدْرَةُ: فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ إنْسَانٍ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [سورة التغابن، الآية:16].

مشروعيتها في الكتاب الكريم:

دلت نصوص عدة من القرآن الكريم على مشروعية الحسبة، ونصت على ذلك بشكل واضح وصريح، ومن تلك النصوص الكريمة:

(1) قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

(2) وقوله سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

(3) وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(4) وقوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

(5) وقوله تعالى: ﴿يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

مشروعيتها في السنة المطهرة:

جاء عدد من أحاديث المصطفى ﷺ تنص بشكل واضح وصريح على مشروعية الحسبة، وتأمر بالقيام بها على أفراد المجتمع المسلم، ومن تلك الأحاديث:

(1) قول النبي ﷺ: ((من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)).

(2) وقوله ﷺ: ((ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا

يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)).

(3) وقوله ﷺ: ((إياكم والجلوس في الطرقات)) فقالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: ((فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها)) قالوا: وما حق الطريق ؟ قال: ((غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر)).

مشروعيتها من الإجماع:

أجمعت الأمة الإسلامية ممثلة بعلماء السلف المعتبرين على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، استنادا منهم لنصوص الكتاب والسنة.

ومن أقوال العلماء التي توضح إجماع الأمة على مشروعية الحسبة ووجوبها: قول النووي رحمه الله: (وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - الكتاب والسنة وإجماع الأمة..).

وقال أبو بكر الجصاص - رحمه الله -: (أكد الله تعالى فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مواضع من كتابه، وبينه رسول الله ﷺ في أخبار متواترة عنه فيه، وأجمع السلف وفقهاء الأمصار على وجوبه...).

وقال ابن حزم - رحمه الله -: (اتفقت الأمة كلها على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا خلاف من أحد منها...).

وبهذا يتضح أن الحسبة تقوم على أسس وركائز متينة في الإسلام هي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع الأمة، وهذا كله مما يؤكد على أهميتها وفضلها.

حكمها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب إما على الأعيان وإما على الكفاية، كما تقدم في النقل عن شيخ الإسلام قريبا، وفيه يقول رحمه الله: "هُوَ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ، وَيَصِيرُ فَرْضَ عَيْنٍ عَلَى الْقَادِرِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ بِهِ غَيْرُهُ، وَالْقُدْرَةُ هُوَ السُّلْطَانُ وَالْوِلَايَةُ فَذَوُو السُّلْطَانِ أَقْدَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ؛ وَعَلَيْهِمْ مِنْ الْوُجُوبِ مَا لَيْسَ عَلَى غَيْرِهِمْ. فَإِنَّ مَنَاطَ الْوُجُوبِ هُوَ الْقُدْرَةُ..".

أهميتها: يهدف الإسلام إلى خلق مجتمع آمن مستقر تسوده المحبة ويجتمع أفراده في التعاون على البر والتقوى، حتى يتمكن الجميع من القيام بواجب الخلافة في الأرض وتحقيق الغاية الأساسية من خلق الإنسان وهي عبادة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ ولأن الناس محتاجون دائما إلى نظام يسيرون على هديه، وسلطة تحرص على تحقيق هذا النظام في حياة الناس، لزم أن يكون هناك من يذكر الناس بذلك ويتابع التزامهم به، ومن هنا جاءت أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال أبو حامد الغزالي رحمه الله شارحا لأهمية ومكانة الحسبة:

((أما بعد فإن الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ هُوَ الْقُطْبُ الأعظم في الدين وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد وهلك العباد ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد وقد كان الذي خفنا أن يكون فإنا لله وإنا إليه راجعون إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه فاستولت على القلوب مداهنة الخلق وانمحت عنها مراقبة الخالق واسترسل النَّاسُ فِي اتِّبَاعِ الْهَوَى وَالشَّهَوَاتِ اسْتِرْسَالَ الْبَهَائِمِ وعز عَلَى بِسَاطِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ صَادِقٌ لَا تَأْخُذُهُ فِي الله لومة لائم فمن سعى في تلافي هذه الفترة وسد هذه الثلمة إما متكفلاً بعملها أو متقلداً لتنفيذها مجدداً لهذه السنة الداثرة ناهضاً بأعبائها ومتشمراً في إحيائها كان مستأثراً من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها ومستبداً بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها))[6].

المطلب الثاني: الأمن النفسي وأثر الحسبة في تحقيقه

الأمن النفسي اصطلاحاً: اختلفت مفاهيم الأمن النفسي باختلاف الباحثين واختلاف وجهة نظر كل منهم لهذا المفهوم وسنعرض بعضها فيما يلي:

((الأمن النفسي - يقال أيضا " الأمن الانفعالي،" و "الأمن الشخصي،" و" الأمن الخاص،" و"السلم الشخصي". والأمن النفسي من المفاهيم الأساسية في مجال الصحة النفسية، ويرتبط الأمن النفسي والأمن الاجتماعي و الصحة النفسية، وتوجد علاقة جوهرية بين الاتجاه الديني ومشاعر الأمن كعامل من عوامل الشخصية الذي يحدد الصحة النفسية. فالأمن النفسي هو الشعور بالاستقرار، وضمان الحصول على الحاجات، والرغبات، وعدم توقع الحرمان والأخطار، وهو شعور الفرد بتقبل الذات والآخرين، والتحرر من الاعتمادية والخوف والتردد، ووضوح الأهداف، وعكس ذلك يؤدي إلى عدم الشعور بالأمن النفسي.

وأضاف آخر "بأن الأمن النفسي شعور الفرد بتقبل الآخرين له وحبهم إياه وبأنهم يعاملونه بدفء وشعوره بالانتماء إلى الجماعة وأن له دوراً فيها، وإحساسه بالسلامة، وندرة شعوره بالخطر والتهديد والقلق. والأمن النفسي هو الطمأنينة النفسية و الانفعالية وهو الأمن النفسي الشخصي أي أمن كل فرد على حدة،وهو حالة يكون فيها إشباع الحاجات مضمونا وغير معرض للخطر) مثل الحاجات الفسيولوجية، والحاجة إلى الحب والمحبة، والحاجة إلى الانتماء والمكانة، والحاجة إلى احترام الذات، والحاجة إلى تقدير الذات. (والأمن النفسي مركب من اطمئنان الذات، والثقة في الذات، والتأكد من الانتماء إلى جماعة آمنة[7].

ويرى "ماسلو") (Maslowأن الأمن النفسي يعني شعور الفرد بأنه محبوب و متقبل من الآخرين، وله مكان بينهم، ويدرك أن بيئته صديقة ودودة غير محبطة، ويشعر فيها بندرة الخطر والتهديد والقلق، والإحساس بالأمن هو حالة من الطمأنينة والسكينة و الاستقرار بكافة أشكالها النفسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية وغيرها، وهو من الحاجات المهمة التي تؤثر في السلوك البشري، فهي تأتي من الحاجة إلى عدم الشعور بالخوف من العوز أو نقص أو حاجة أو فقر بمعنى الخوف من المخاطر الاقتصادية أو نتيجة الشعور بالحرمان من حاجات نفسية أساسية.

ويرى "عبد الرحمن العيسوي"أن مؤدى الأمن النفسي، أن يكون الفرد خاليا من التوترات والتأزمات وأن لا يعاني من الصراعات والآلام النفسية، وأن يتحرر من المشكلات والأزمات التي تطحنه وتبدد شعوره بالأمن، وأن يكون خاليا من الانفعالات العنيفة والحادة، وأن يكون واثقا من نفسه، وراضيا عنها، ذلك أن رضا الفرد عن نفسه أساس شعوره بالرضا عن المجتمع المحيط به[8].

أثر الحسبة على الأمن النفسي:

يقول الله تعالى: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾. نستشف من هذه الآية أن الطمأنينة نابعة من ذكر الله تبارك وتعالى، والطمأنينة درجة من الأمن ظاهرة، كما أن الحسبة نوع عملي من أنواع الذكر لله تعالى.

وكما في قوله جل وعلا: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾. فالإيمان كله – وهو قول وعمل – مرتبط بالأمن والاستقرار. قال تعالى: ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم﴾

هذا في الإجمال، وبالتفصيل نستبين أثر الحسبة على الأمن النفسي في النقاط التالية:

(1) الشعور بالأمن من عقاب الله ؛ فإن القائم بالحسبة ناج من عذاب الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ سورة هود الآية (116) وتفسير الآية كما في التفسير الميسر: "فهلاَّ وُجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير والصلاح، ينهون أهل الكفر عن كفرهم، وعن الفساد في الأرض، لم يوجد من أولئك الأقوام إلا قليل ممن آمن، فنجَّاهم الله بسبب ذلك مِن عذابه حين أخذ الظالمين. واتَّبع الذين ظلموا أنفسهم ما مُتِّعوا فيه من لذات الدنيا ونعيمها، وكانوا مجرمين ظالمين باتباعهم ما تنعموا فيه، فحقَّ عليهم العذاب"[9].

(2) الشعور النفسي بالثقة بالنفس والشجاعة: من مقومات الأمن النفسي ثقة الفرد بنفسه ورضاه عنها وتشجعه وعدم الخوف من التهديدات والأخطار، ولا يخفى أن المحتسب لا بد أن

يكون كذلك واثقا بما يقوم عليه من المأمورات وما يزجر عنه بل ويعاقب عليه من المنهيات، ولا بد أنه يستشعر بالأمن في مغبة ما يحتسب عليه وبذلك يتشجع ويقتحم العقبة في ذلك، والله ناصره بفضله.

(3) الشعور بالاحترام وأنه قدوة للآخرين؛ المحتسب ما دام قائما على الناس آمرا وناهيا فإنه يعلم أنه لا بد أن يكون ممتثلا لما يقوم به ويحمله ذلك على احترام نفسه أن يرى مخالفا لما يأمر به بل يكون قدوة لهم فيما يأمر به أو ينهى عنه، وهذا يزيده أمنا نفسيا واستقرارا عاطفيا وفي ذلك يحكي الله تعالى عن شعيب: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله﴾.

(4) الشعور بالراحة من الحصول على الأجور الكبيرة والفضائل الإلهية؛ من مقومات الأمن النفسي الشعور بالراحة النفسية والطمأنينة الداخلية ولا شك أن المحتسب موعود من عند الله تعالى بمضاعفة الأجور، مما قد سبقت الإشارة إليه في فضائل الحسبة. ومن ذلك حديث: "يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة... وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة"[10].

(5) الشعور بأنه عضو نافع للمجتمع الذي يعيش فيه وأنه جزء لا يتجزأ من المجتمع سعادته وشقاوته ؛ لا يخفى أن الشعور بالفاعلية والفائدة في المجتمع يزيد النفس أمانا ويشعرها بالسعادة. كما لا يخفى أن المحتسب غارق في نفع الأمة وخدمتها والرقي بها نحو درجات مصالحها وذب الفساد والخراب عنها، وهذا يجعله يتحمل كل أنواع الشدائد في سبيل الرقي به من خلال الأمر والنهي ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله﴾. وكما في قصة أصحاب السبت: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (163) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (165). فهم لم يزالوا ساعين في إرضاء ربهم "معذرة إلى ربكم" جاهدين في الرقي بقومهم ومحاولة إنقاذهم: {ولعلهم يتقون﴾.

هذه بعض الأوجه التي من خلالها يتحقق الأمن النفسى للمحتسب، وهذا وحده كاف في شد عزائمنا وتقوية إيماننا على الاستمرار والمواصلة في مشروعنا الإسلامي الرفيع بالاحتساب المنيف، فكيف إذا كان هناك أنواع أخرى من الأمن، وهو الأمن الاجتماعي.

المطلب الثالث: مفهوم الأمن الاجتماعي

عن مفهوم الأمن الاجتماعي نستفيد من الماوردي رحمه الله تعالى حين حصر قواعد صلاح الدنيا وانتظام عمرانها في ستة أشياء (دين متبع، وسلطان قاهر - دولة قوية - وعدل شامل، وأمن

عام، وخصب دائم، وأمل فسيح) حيث جعل " الأمن العام " القاعدة الرابعة من قواعد صلاح الدنيا وانتظام العمران، وشرحها بقوله رحمه الله: "وأما القاعدة الرابعة فهي أمن عام تطمئن إليه النفوس، وتنتشر به الهمم، ويسكن فيه البرىء، ويأنس به الضعيف، فليس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة، وقد قال بعض الحكماء: الأمن أهنأ عيش، والعدل أقوى جيش، لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قِوام أوَدِهم، وانتظام جملتهم... والأمن المطلق: ما عَمَّ والخوف قد يتنوع تارة ويعم، فتنوعه بأن يكون تارة على النفس، وتارة على الأهل، وتارة على المال، وعمومه أن يستوجب جميع الأحوال.)"[(11)].

فالأمن الاجتماعي "تعبير عن طمأنينة النفوس وزوال الخوف في المجتمع الإنساني المرتبط برباط الأخوة الإيمانية دون النظر إلى جنس أو لون أو لغة".

أو هو: "اطمئنان الإنسان على دينه ونفسه وعقله وأهله وسائر حقوقه، وعدم خوفه في الوقت الحالي أو في الزمن الآتي، في داخل بلاده ومن خارجها، ومن العدو وغيره، ويكون ذلك على وفق توجيه الإسلام وهدي الوحي، ومراعاة الأخلاق والأعراف والمواثيق".

((ويمكن تعريف الأمن الاجتماعي حسب النظرة القرآنية بأنه (اطمئنان يجده الفرد وما يمنع خوفه في حاضره، ويمنع قلقه على مستقبله، ويحرص على تبادله مع الآخرين عبادة لله، بممارسة ذاتية منه يحقق بها مشاركة إيجابية مجتمعية وحضورا فاعلا، وبممارسات وواجبات منوطة بالحاكم يكلف بها مؤسسات عاملة في المجتمع، وبرقابة ومتابعة من النظام السياسي لتحقيق غاية خلق الله للإنسان ومقاصد الشريعة"[(12)].

أثر الحسبة على الأمن الاجتماعي:

بم أن الأمن الاجتماعي هو ما تقدم ذكره - من أمن الأفراد حكاما ومحكومين في مجتمعات ذات أنظمة مرتبة ومؤسسات عاملة تحت الأخوة الإيمانية والروابط المجتمعية - فإن الحسبة تكون كفيلة بتحقيق ذلك كما لا يخفى؛ وذلك أن جميع المصالح التي جاءت الشريعة لتحقيقها وعليها انبنى جميع مصالح الحياة وعليها يتوقف الأمن والأمان - وهي الضرورات الخمس المعروفة حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال – كل هذه المصالح وما والاها لا تقوم ولا تتحقق في واقع الأمة إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (الحسبة) ؛ فإن فيهما إقامة الشرائع وتحقيق تلك المصالح من جانب، كما فيهما المحافظة على الشرائع والمصالح ودرأ ما يؤدي إلى رفضها أو الإخلال بها من قريب أو بعيد. وتحقيق ذلك في قوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ آل عمران 104 ؛ إذ جعل الله حماية العقيدة وصيانة الفضيلة وعز الأمة والفلاح للمؤمنين منوطا بالقيام بهذا الواجب. وإذا فقد ذلك فلا أمان ولا عز ولا فلاح!

وأيضا فإن قضية الحسبة من أخطر القضايا التي تتحكم في مصاير الأمم وتحدد معالم المجتمعات أمنا وخوفا سعادة وشقاء ؛ فالمجتمع المضطرب الخائف هو الذي تغلَّب فيه المنكر وقوي واستفحل وصار له الغلبة والظهور ولأهله العز والتمكين والسلطان وإن كان لا يخلو من الخير والأخيار... والمجتمع المستقيم الآمن هو بعكس ذلك ؛ الذي تغلّب فيه المعروف وقوي أمره وصارت له الدولة والظهور ولأهله العز والتمكين وإن كان لا يخلو من الشر والأشرار. وفي هذا حديث زينب بنت جحش ﷺ أن النبي ﷺ دخل عليها فزعا يقول لا إله إلا الله! ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه (وعقد سفيان تسعين أو مائة) قيل: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال نعم ؛ إذا كثر الخبث"![13]

ولهذا فإن الحسبة هي التي تضمن الأمان للمجتمعات وبعدمها تفشل المجتمعات في إقرار الأمن والاستقرار فيها[14].

ومن وجوه تأثير الحسبة على الأمن الاجتماعي ما تثمره من عفو الله عن الخلق برفع العقوبات العامة التي تنزل بسبب المعاصي والمخالفات. قال تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ (الشورى: 30) وقال أيضا في الجواب عن سبب مصاب المؤمنين يوم أحد: {قل هو من عند أنفسكم} (آل عمران: 165).

ثم قال تعالى: في موضع آخر: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ سورة هود الآية (116). وقال في موضع آخر: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ (هود: 117). "وهذه الإشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم. فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله، في صورة من صوره، فيجد من ينهض لدفعه هي أمم ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير. فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد، فإن سنة الله تحق عليها، إما بهلاك الاستئصال. وإما بهلاك الانحلال..والاختلال! فأصحاب الدعوة إلى ربوبية الله وحده، وتطهير الأرض من الفساد الذي يصيبها بالدينونة لغيره، هم صمام الأمان للأمم والشعوب.. وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لإقرار ربوبية الله وحده، الواقفين للظلم والفساد بكل صوره.. إنهم لا يؤدون واجبهم لربهم ولدينهم فحسب، إنما هم يحولون بهذا دون أممهم وغضب الله، واستحقاق النكال والضياع.."[15].

وبالعكس من ذلك ؛ فإن الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تسبب نزول الرحمة من الله تعالى لأن الطاعة والمعروف سبب للنعمة. قال تعالى: {وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم} وقال: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا

اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148)﴾

وقال أيضا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (65) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (66)﴾.

ومن هذه النعم التي تسببها الحسبة وهي نعمة عظيمة جدا: النصر على الأعداء فإن الأمة لا تنتصر بعدد ولا عدة، وإنما تنتصر بهذا الدين، ولذا كانت مخالفة أمر رسول الله ﷺ وإرادة الدنيا من بعض أصحابه سببا لوقوع الهزيمة في أحد ﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم﴾. قال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ الحج: 40، 41.

هذه بعض الوجوه التي تظهر فيها آثار الحسبة في تحقيق الأمن الاجتماعي. ولا شك أن العبادات لا حصر لخيراتها ولا نهاية لفوائدها، وذلك أن غايتها رضا الله والجنة، وإنما الفوائد المادية مشجعة للعزائم ومحرضة للهمم، وكل ذلك من فضل الله علينا فالحمد لله رب العالمين.

الخاتمة:

بحمد الله تعالى اكتملت هذه الوريقة بما فيها من مقدمة عن الحسبة ومطلبين عن الأمن النفسي والاجتماعي وأثر الحسبة في تحقيقهما. ويمكن تلخيص المضامين في النقاط التالية:

(1) الحسبة هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن كانت عن ولاية حكومية تخصصت بما ظهر تركه من المعروف وما ظهر فعله من المنكرات ونحو ذلك من الحقوق والواجبات. وإن كانت عن تدين وشعور بالمسؤولية والذي يسمى: التطوع شملت كل خير بالحث عليه وتعليمه وكل منكر بتقليله والزجر عنه والإبلاغ عنه للمسؤولين وما إلى ذلك، وهي فرض على الكفاية في حق الأمة وتصير فرض عين على القادر الذي لَمْ يَقُمْ بِهِ غَيْرُهُ.

(2) وقد ثبتت مشروعيتها بالكتاب والسنة وإجماع الأمة.

(3) جاءت أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الناس محتاجون دائما إلى نظام يسيرون على هديه، وسلطة تحرص على تحقيق هذا النظام في حياة الناس، فلزم أن يكون هناك من يذكر الناس بذلك ويتابع التزامهم به.

(4) الأمن النفسي هو أن يكون الفرد خاليا من التوترات والتأزمات وأن لا يعاني من الصراعات والآلام النفسية، وأن يتحرر من المشكلات والأزمات التي تطحنه وتبدد شعوره بالأمن، وأن

يكون خاليا من الانفعالات العنيفة والحادّة، وأن يكون واثقا من نفسه، وراضيا عنها، ذلك أن رضا الفرد عن نفسه أساس شعوره بالرضا عن المجتمع المحيط به.

(5) إذا قام الفرد بواجب الحسبة قدر استطاعته أنتج له ذلك أنواعا من الأمن النفسي من الشعور بالأمن من عقاب الله، والشعور النفسي بالثقة بالنفس والشجاعة الأدبية، والشعور بالاحترام وأنه قدوة للآخرين، والشعور بالراحة من الحصول على الأجور الكبيرة والفضائل الإلهية، والشعور بأنه عضو نافع للمجتمع الذي يعيش فيه وأنه جزء لا يتجزأ من المجتمع سعادته وشقاوته.

(6) الأمن الاجتماعي عبارة عن طمأنينة النفوس وزوال الخوف في المجتمع الإنساني المرتبط برباط الأخوة الإيمانية دون النظر إلى جنس أو لون أو لغة.

(7) والمجتمع الذي يقوم بمسؤولية الحسبة يتحقق فيه من مظاهر الأمن الاجتماعي أنواع منها: الحفاظ على الضرورات الخمس المعروفة حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال – كل هذه المصالح وما والاها تتحقق في واقع الأمة عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (الحسبة)، كما أن القيام بالحسبة ينتج الأمن والسعادة في المجتمعات ؛ فالمجتمع المستقيم الآمن هو الذي تغلّب فيه المعروف وقوي أمره وصارت له الدولة والظهور ولأهله العز والتمكين وإن كان لا يخلو من الشر والأشرار، وبسبب مراعاة ذلك عفو الله عن الخلق برفع العقوبات العامة التي تنزل بسبب المعاصي والمخالفات، وكذا نزول الرحمات من الله تعالى والنصر على الأعداء من مسببات القيام بالحسبة.

ويوصي كاتب الوريقات القائمين على هذا البرنامج أن يدربوا الدعاة على الاحتساب بالوسائل المعاصرة عن طريق النقابات والاتحادات والروابط ومجموعات الضغط وما إلى ذلك بالطرق السلمية حسب الأنظمة الديمقراطية المعمول بها في بلادنا لكن بمنهج إسلامي ومنطق شرعي.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين.

الهوامش والمراجع:

(1) ينظر: ابن فارس، أحمد القزويني، مقاييس اللغة 59/2-61، الفيروزآبادي، مجد الدين، محمد بن الحسين، القاموس المحيط (ص: 74)، ابن منظور، محمد بن مكرم جمال الدين، لسان العرب 314/1، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (أصوله وضوابطه وآدابه) لخالد بن عثمان السبت ص 28 – 32، نشر المنتدى الإسلامي – لندن، ط 1: 1415هـ = 1995م.

(2) الأحكام السلطانية للماوردي ص 240.

(3) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين 327/2.

(4) من قسم تحقيق كتاب الحسبة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، تحقيق الشيخ علي بن نايف الشحود، ط الثانية، جمادى الأولى 1425 هـ - الموافق 5/ 7/ 2004 م، وعدل تعديلا جذريا بتاريخ 19 جمادى الآخرة /1428هـ -الموافق لـ 4/ 7 /2007 م.

(5) ينظر: زروقي، علي، مفهوم الحسبة من الولاية الدينية إلى المهمة الاجتماعية، منصة المنهل الإلكترونية، https://platform.almanhal.com/Files/2/36088 تم الاطلاع عليه بتاريخ 2023/12/12م، السبت، مرجع سابق ص 34.

(6) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين (2/ 306).

(7) ينظر: حامد زهران عبد السلام، دراسات في الصحة النفسية والإرشاد النفسي، ص 85-87، نشر: عالم الكتب لنشر والتوزيع و الطباعة ط 1، 2003م،، القاهرة.

(8) بن السايح، مسعودة، القرآن الكريم ودوره في تحقيق الأمن النفسي، مجلة آفاق العلوم، 2020، https://doaj.org/article/ed0fb892692a4bbb930db35515ce3cea مجلد 3، رقم 1، تم الاطلاع بتاريخ 2012/12/12م.

(9) التفسير الميسر (1/ 234)

(10) أخرجه مسلم برقم 720.

((11)) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري(450هـ)، **أدب الدنيا والدين**، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1407هـ- 1987م، ص119.

(12) ينظر https://islamonline.net / تم الاطلاع عليه بتاريخ 2023/12/12م.

(13) أخرجه البخاري في الفتن برقم 6650.

(14) ينظر: العودة، سلمان بن فهد، من وسائل دفع الغربة، ص 75-100، ط 1 1412هـ = 1992م، نشر دار ابن الجوزي بالمملكة العربية السعودية.

(15) قطب، سيد، في ظلال القرآن 1933/4.

فقه الأولويات عند السلف: دروس وعبر

Khadijah Tukur Batagarawa, PhD
Islamic Studies Department
Umar Musa Yar'adua University, Katsina
Phone No. 08037335323; Email. khadijahtukur404@gmail.com

المستخلص:

فأولويات الأعمال عبارة عن تقديم ما حقه التقديم حسب الترتيب الشرعي، وتحديد الأولويات ومعرفتها يحتاج إلى العلم وإعمال العقل، فهذه المقالة عبارة عن نموذج أولويات الأعمال وكيفية تحديدها في حياة السلف رحمهم الله تعالى. وتهدف هذه المقالة إلى استخراج دروس وعبر في تطبيقات فقه الأولويات في سيرتهم رحمة الله عليهم التي تم احتواؤها في كتاباتهم وما أُثِر عنهم رحمهم الله تعالى. وتأتي أهمية هذه المقالة في إظهار الدروس والعبر حتى يقتدي بها المسلمون في مثل هذا العصر الذي كثر فيه خلط المصالح والمفاسد لكي يوجد حلول لكثير من المشكلات التي سببها الجهل بترتيب الأولويات وغياب تطبيقاته. وتعتمد المقالة على المنهج الاستقرائي التحليلي. وأخيرا عقبت المقالة بالخاتمة التي تحتوي على التوصيات البسيطة والنتائج.

المقدمة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم. وبعد:

يطلق فقه الأولويات على العلم بفاضل الأعمال ومفضولها وحسن التصرف بالبدائل من خير أو شر، وذلك بمعرفة خير الخيرين وشرّ الشرّين. ومما ابتلي هذه الأمة به غياب تطبيقات هذا العلم، سواء في أمور حياتها الدينية أو الدنيوية، وسواء على مستوى الفرد أو الجماعة أو الدولة، وهذا بسبب بُعْدِ معرفتها بما كانت عليه سلف هذه الأمة في تطبيقهم للأولويات من دروس وعبر. فهذه المقالة عبارة عن هذه الدروس والعبر المشتملة في حياة السلف رحمة الله تعالى عليهم.

جُعِل السلف نموذجا لأنهم شخصيات تمتلك الفهم المكتمل، والمرجعية الصافية، بعيداً عن ذوي الأفكار المشوشة، والنفوس المريضة، كما ثبت في مدح النبي ﷺ لهم فيما رواه عبد الله بن مسعود ﷺ: "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته..."[1] ويظهر فقههم لأولويات في أعمالهم العبادية واجتهادهم فيها

والزهد في الدنيا، واهتمامهم وسعيهم في طلب العلم على حساب المال خلافا لأحوال كثير من الناس في هذا العصر.

وتشتمل الورقة على المقدمة والمطلبين. المطلب الأول في ماهية الأولويات وأهميته، والثاني في نماذج من صور فقه الأولويات عند السلف مع دروس وعبر المستنبطة فيها. ثم أخيرا الخاتمة والتي فيها النتائج والتوصيات.

المطلب الأول: ماهية فقه الأولويات وأهميته

الفقرة الأولى: مفهوم فقه الأولويات

الأولويات لغة: تعود كلمة أولويات إلى أصل (و، ل، ي) ولي، وهو مصدر من أفعل التفضيل "الأَوْلى"، ومثنى: الأَوْلَيَان، وجمعه: الأَوْلَوْن والأَوالي. ويقال في المرأة هي الوُلْيا، وهما الوُلْييان، وهنّ الوُلى أو الوُلْييات مثل الكبرى والكبريان والكبر أو الكبريات.[2] وقد أخطأ من أرجع الأولوية إلى الأول، لأن المصدر الصناعي من الأول أولية وليس أولوية.[3]

والأولويات اصطلاحا: الأولويات هي الأعمال الشرعية التي لها حق التقديم على غيرها عند الإمتثال أو عند الإنجاز. أو الأولويات هي الأسبقيات الشرعية المراد انجازها.[4]

واستعمال لفظ الفقه هنا جاء بمعنى الفهم، أي فهم الأولويات بأن تُرتّب وِفق الأهم.

مفهوم فقه الأولويات: فقه الأولويات عبارة عن وضع كل شيء في مرتبته بالعدل من الأحكام والقيم والأعمال بناءً على معايير صحيحة يهدي إليها نور الوحي ونور العقل.[5]

أما الوكيلي قد عرف فقه الأولويات بأنه:" العلم بالأحكام الشرعية التي لها حق التقديم على غيرها بناء على العلم بمراتبها وبالواقع الذي يتطلبها."[6]

وغاية ما تشير إليه التعاريفان السابقان هو الأحقية في التقديم والتأخير في ضوء المسالك الشرعية مختلطة بين فقه الشارع وفقه الواقع.

الفقرة الثانية: أهمية فقه الأولويات

مراعاة الأولويات سنة ربانية من سنن الله عز وجل في الدين والحياة والكون، والمتتبع لمسيرة هذا الدين والمتبصر في المنهج الرباني في إتمام هذا الدين وفي سيرة النبيّ ﷺ في تطبيق الشرع وفي دعوته لا بدّ أن يصل إلى ثبات مراعاة الأولويات.[7]

فقه الأولويات من العلوم المهمة التي تجب على أهل العلم، لأنه يساعد في:

(1) معرفة التفاضل بين الأحكام الشرعية لتقديم بعضها على بعض وبذلك يعالج اختلال الموازين الذي شاع بين المسلمين في هذا العصر في كثير من أمورهم بسبب كثرة التداخل والتعقيد والتزاحم في المسائل والقضايا والأحكام. والتقصير في ذلك يسبب الخلط في الأفهام والأحكام كما يورث الإفراط والتفريط في فهم الأشياء والحكم عليها.

(2) إن مراعاة الأولويات وإدراك كيفية تطبيقها يؤدي إلى رفع مستوى التفكير بأسلوب يتكيف مع الواقع.

(3) فقه الأولويات يساعد في تمكين الأمة من القدرة على مواجهة المتغيرات بحكمة دون المعاناة من التعميمات والمتناقضات.

(4) تتمثل أهمية هذا الموضوع أيضا في المجال الدعوة، إذ به يعرف الداعية الخطوات المهمة التي يسلكها في الدعوة، سواء في العبادات أو المعاملات، وبهذا يقف على نتيجة فعّالة في دعوته.

(5) أنه يساعد في الترجيح بين الأقوال عند الاختلاف والتعارض بين المذاهب في المسألة الواحدة.

(6) هذا الفقه ضروري لمن يبتغي رضوان الله تعالى ويبتعد عن سخطه سبحانه وغضبه، من خلاله يتميز مراتب الطائعين والعاصين. فاللبيب الفطن هو الذي يغتنم وقته بأفضل الطاعات وأعظمها درجة ولا ينشغل بالفاضل في الوقت عن الأفضل.[8]

المطلب الثاني: فقه الأولويات عند السلف رحمهم الله: دروس وعبر

الفقرة الأولى: مفهوم السلف

يرجع معنى السلف في اللغة إلى السبق والتقدم. سَلَفَ يَسْلُفُ سَلَفاً، أي مضى. والقومُ السُلاَّفُ: المتقدِّمون. وسَلَفُ الرجل: آباؤه المتقدّمون، والجمع أَسْلافٌ وسُلاَّفٌ.[9]

والسلف عند العلماء هم السابقون من صحابة رسول الله ﷺ ومن سلك سبيلهم خاصة أهل القرون المفضلة من أعيان التابعين وأتباعهم وأئمة الدين ممن شهد لهم بالإمامة وعرف عظم شأنهم في الدين وتلقى الناس كلامهم خلفا عن سلف دون من رمى ببدعة أو شُهِر بلقب غير مرضي مثل الخوارج والروافض والقدرية والمرجئة والجهمية والمعتزلة والكرامية ونحو هؤلاء...[10] فهم السلف بلزومهم منهج الرسول ﷺ وصحابته وأئمة الدين والهدى الذين تضافرت النصوص بلزوم منهجهم. ومن تلك النصوص قوله تعالى: ﴿ لخ لم لى لي □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ نم نى □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ يم يى □ □ ﴾ (التوبة: ١٠٠) فالآية دلّت على أن السلف هم من اتبع منهج النبي ﷺ والصحابة بعده. وقد أوجب اتباع منهجهم في القرآن والسنة، منها قوله تعالى: ﴿ □ □ □ □ □ □ □ □ بر □ □ بن بى بيتر □ □ تن ﴾ (النساء: ١١٥) فالآية دلت على وجوب لزوم سبيل المومنين كما دلّت على استحقاق الوعيد على المخالف لسبيلهم، لأنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريفا لهم وتعظيما لنبيهم.[11]

ومن السنة ما رواه عبد الله بن مسعود ﷺ قال أن رسول الله ﷺ قال: "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يجئ أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته..."[12] فهذه الخيرية مخصوصة بالمومنين المتبعين لسنته ﷺ السائرين على منهجه في هذه القرون المفضلة.

لكن ليس الزمن بغاية، إذْ يوجد من عاصر النبي ﷺ وهو كافر به، ومن عاصر الصحابة ولم يكن على منهجهم. وبناءا على ما ذُكِر، فليس معنى السلف مقيّدة بزمن مخصوص ولا بقوم معينة، وإنما السلف من التزم بما كان عليه النبي ﷺ والصحابة بعده.

الفقرة الثانية: نماذج من فقه الأولويات عند السلف رحمهم الله تعالى

وفيما يلي صور من مواقف بعض السلف رحمة الله عليهم مع تطبيق فقه الأولويات اقتصارا لا احتياطا.

الأول: مصعب بن عمير ﷺ:

هو أَبُو عبد الله مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرِ بنِ هَاشِمِ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ القُرَشِيُّ العَبْدَرِيُّ البَدْرِيُّ، من بني عبد الدار، هو فَتَى مَكَّةَ شَبَابًا وَجَمَالًا، وَكَانَ أَبَوَاهُ يُحِبَّانِهِ، وَكَانَتْ أُمُّهُ مَلِيئَةً كَثِيرَةَ الْمَالِ، تَكْسُوهُ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الثِّيَابِ وَأَرَقَّهُ، وَكَانَ أَعْطَرَ أَهْلِ مَكَّةَ يَلْبَسُ الْحَضْرَمِيَّ مِنَ النِّعَالِ. صحابي شجاع من السابقين للإسلام، أول سفير في الإسلام كما روى البراء بن عازب[13] أسلم في مكة وكتم إسلامه، فعلم أهله فوثقوه وحبسوه، فهرب مع من هاجر إلى الحبشة، ثم رجع إلى مكة، وهاجر إلى المدينة، فكان أول من جمع الجمعة فيها، وعرف فيها بالمقرئ، وكذا كان يلقب مصعب الخير. وأسلم على يده أسيد بن حضير وسعد بن معاذ، وشهد بدراً، وحمل اللواء يوم أحد، فاستشهد سنة 3هـ - 625 م.[14]

الدروس والعبر:

قدم دعوته على رغباته: الفتى الشاب الثري يضحي بكل شيء ويصبح آية من آيات الجهاد والتضحية للشباب المسلمين، يضحي برغباته كشاب في كمال فتوته من أجل مصلحة دعوته ورفعة وطنه. فالمسلم الحق أولويته هي أن يبيع لله نفسه وماله ووقته ووطنه فليس له فيها شيء، وإنما هي وقف على رفع راية دينه ووطنه. لما دعي النبي ﷺ ليصلي عليه بعد أن استشهد في أحد وجد عليه ثوباً إذا غطوا به وجهه ظهرت رجلاه، وإذا غطوا رجليه ظهر وجهه، فقال: غطوا رأسه واجعلوا على رجليه الإذخر.[15] فتذكر الحبيب ﷺ أيامه وبكى ﷺ. وقد كان قبل الإسلام يسمى الشاب المعطر.[16] وكانت أمه تستقدم ملابسه الداخلية من حرير اليمن الخالص. فكانت أم مصعب بن عمير من الغنى تأتي له بالملابس الداخلية من الحرير اليمني. فلما دخل في الإسلام منعته أمه من المال، وعاش على شظف العيش وبانت عليه الشدة. فقد نجح في الاختبار الصعب الذي قامت به أمه معه، ورفض الدنيا من يد أمه، واختار الله ورسوله وجهاد في الله حتى استشهد.[17] ففي هذا دروس وعبر بأن الآخرة خير من الأولى، فكأن مصعب ﷺ قال لأمه: ﴿ □ □ □ □ بر □ □بن بى بي تر □ □ تن تى تي □ ﴾ (النحل: ٩٦)

الثاني: عبد الله بن مبارك:

هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي مولاهم أبو عبد الرحمن المروزي. عن العباس بن مصعب قال: كانت أم عبد الله بن المبارك من خوارزم ووالده من الترك.. مولى بني حنظلة، ثقة ثبت فقيه عابد مجاهد، صاحب التصانيف. ولد سنة ثمان عشرة ومائة هجرية. قدم بغداد وَطَلَبَ الْعِلْمَ، فَرَوَى رِوَايَةً كَثِيرَةً، وَصَنَّفَ كُتُبًا كَثِيرَةً فِي أَبْوَابِ الْعِلْمِ وَصُنُوفِهِ، حَمْلَهَا عَنْهُ قَوْمٌ وَكَتَبَهَا النَّاسُ عَنْهُمْ، وَقَالَ الشِّعْرَ فِي الزُّهْدِ وَالْحَثِّ عَلَى الْجِهَادِ، وَقَدِمَ الْعِرَاقَ وَالْحِجَازَ وَالشَّامَ وَمِصْرَ وَالْيَمَنَ، وَسَمِعَ عِلْمًا كَثِيرًا، وَكَانَ ثِقَةً، مَأْمُونًا، إِمَامًا، حُجَّةً، كَثِيرَ الْحَدِيثِ، وَمَاتَ بِهِيتَ مُنْصَرِفًا مِنَ الْغَزْوِ سَنَةَ إِحْدَى وَثَمَانِينَ وَمِائَةٍ، وَلَهُ ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً.[18] وقبره معلوم وقد شيد الناس على قبره.[19]

كان عبد الله بن المبارك ﷺ يحج عاماً ويغزو في سبيل الله عاماً آخر. وفي العام الذي أراد فيه الحج.

الدروس والعبر:

خرج ليلة ليودّع أصحابه قبل سفره، وفي الطريق وجد منظراً ارتعدت له أوصاله واهتزت له أعصابه، وجد سيدة في الظلام تنحني على كومة أوساخ وتلتقط منها دجاجة ميتة تضعها تحت ذراعها وتنطلق في الخفاء. فنادى عليها وقال لها: ماذا تفعلين يا أمة الله؟ فقالت له: يا عبد الله اترك الخلق للخالق فلله تعالى في خلقه شؤون. فقال لها ابن المبارك: ناشدتك الله أن تخبريني بأمرك. فقالت المرأة: أما وقد أقسمت عليّ بالله فلأخبرنَّك. فأجابته دموعها قبل كلماتها: إن الله قد أحل لنا الميتة، أنا أرملة فقيرة وأم لأربع بنات، غيب راعيهم الموت واشتدت بنا الحال ونفد مني المال وطرقت أبواب الناس فلم أجد للناس قلوبا رحيمة، فخرجت ألتمس عشاء لبناتي اللاتي أحرق لهيب الجوع أكبادهن فرزقني الله هذه الميتة... أفمجادلني أنت فيها؟ وهنا تفيض عينا ابن المبارك من الدمع وقال لها: خذي هذه الأمانة، وأعطاها المال كله الذي كان ينوي به الحج، وأخذتها أم اليتامى، ورجعت شاكرة إلى بناتها. وعاد ابن المبارك إلى بيته. وخرج الحجاج من بلده فأدوا فريضة الحج، ثم عادوا، وكلهم شكر لعبد الله ابن المبارك على الخدمات التي قدمها لهم في الحج. يقولون: رحمك الله يا ابن المبارك ما جلسنا مجلسا إلا أعطيتنا مما أعطاك الله من العلم ولا رأينا خيرا منك في تعبدك لربك في الحج هذا العام. فعجب ابن المبارك من قولهم، واحتار في أمره وأمرهم، فهو لم يفارق البلد، ولكنه لايريد أن يفضح عن سره. وفي المنام يرى رجلا يشرق النور من وجهه يقول له: السلام عليك يا عبد الله ألست تدري من أنا؟ أنا محمد رسول الله أنا حبيبك في الدنيا وشفيعك في الآخرة جزاك الله عن أمتي خيرا... يا عبد الله بن المبارك، لقد أكرمك الله كما أكرمت أم اليتامى.. وسترك

كما سترت اليتامى، إن الله تعالى خلق ملكاً على صورتك كان ينتقل مع أهل بلدتك في مناسك الحج وإن الله تعالى كتب لكل حاج ثواب حجة وكتب لك أنت ثواب سبعين حجة.[20]

ففي هذه الحادثة دلالة على تطبيق الأولويات عند ابن المبارك فإنه يقدم الإنفاق على الأرملة واليتامى على حساب حجته رحمه الله تعالى.

الثالث: عبدالله ابن عمر ﷺ:

هو عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي. لد قبل البعثة بعام، وأسلم عبد الله بن عمر بمكة مع أبيه، ولم يكن بلغ يومئذ، وكانت هجرته قبل هجرة أبيه. توفى بمكة وعمره أربعة وثمانون، وقيل سبعة وثمانون سنة، ودفن بفخ في مقبرة المهاجرين نحو ذي طوى وقيل بالمحصب وقيل بسرف. وهو آخر من مات من الصحابة بمكة مات.[21]

ومن صور تطبيقه لفقه الأولويات أنه رُوِي أنه دخل على عثمان ﷺ أثناء حصاره فقال له عثمان ﷺ: انظر إلى ما يقول هولاء، يقولون اخلعها ولا تقتل نفسك. فقال ابن عمر ﷺ: إذا خلعتها أمخلد أنت في الدنيا؟ فقال عثمان: لا. فقال ابن عمر: فإن لم تخلعها هل يزيدون على أن يقتلوك؟ قال: لا. قال: فهل يملكون لك الجنة أو النارا؟ قال: لا. قال: فلا أرى لك أن أن تخلع قميصا قمصكه الله فتكون سنة كلما كره قوم خليفتهم أو إمامهم قتلوه.[22]

الدروس والعبر:

في هذه النصيحة من ابن عمر ﷺ ترجيح لمصلحة العامة (عدم تنازل عثمان عن الخلافة) على مصلحة الخاصة (التنازل عن الخلافة أو القتل). فاستجابة لطلب السبئين المحاصرين ستكون لها آثار خطيرة على مسيرة الأمة وبذلك تهتز صورة الخلافة وعلاقة الراي والرعية.

الرابع: خالد بن الوليد:

هو خالد بن الوليد ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم سيف الله تعالى، وفارس الإسلام، قائد المجاهدين، أبو سليمان القرشي المخزومي المكي، وابن أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث هاجر مسلما في صفر سنة ثمان، ثم سار غازيا، فشهد غزوة مؤتة، واستشهد أمراء رسول الله - ﷺ - الثلاثة: مولاه زيد، وابن عمه جعفر ذو الجناحين، وابن رواحة، وبقي الجيش بلا أمير، فتأمر عليهم في الحال خالد، وأخذ الراية، وحمل على العدو، فكان النصر. وسماه النبي ﷺ سيف الله. عاش ستين سنة وقتل جماعة من الأبطال، ومات على فراشه، فلا قرت أعين الجبناء. توفي بحمص سنة إحدى وعشرين ومشهده على باب حمص عليه جلالة.[23]

يظهر تطبيقات فقه الأولويات عند الصحابي الجليل خالد بن وليد ﷺ في مواقف كثيرة من جهاداته، مثال ذلك ما وقع بينه وبين أمراء الحيرة سنة 12هـ حيث عرض على أهليهم واحدة من ثلاث فقال: إن تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم في دياركم، أو الجزية أو المنابذة والمناجزة، فقد والله آتيتكم بقوم هم على الموت أحرص على الحياة، فقالوا: بل نعطيكم الجزية، فقال خالد: تبًّا لكم ويحكم إن الكفر فلاة مضلة فأحمق العرب من سلكها.[24]

الدروس والعبر:

يتضح من القصة أن الأولويات في الجهاد هو دعوة الناس إلى الإسلام والسعي إلى الهداية البشرية ثم الحرص على الشهادة وابتغاء ما عند الله من الرضى والأجر. لأن خالدا وبّخهم على اختيار البقاء على الكفر مع أن في بقائهم على الكفر ودفع الجزية مصلحة مالية للمسلمين.

الخامس: الإمام أحمد بن حنبل:

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، الفقيه والمحدث، صاحب المذهب. ولد سنة 164هـ وتوفي بها سنة 241هـ.

هو الإمام الفقيه المحدث أبو عبد الله أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني ثم البغدادي أحد الأئمة الأعلام وصاحب المذهب الحنبلي. ولد ببغداد سنة أربع وستين ومائة للهجرة، ونشأ بها. ومن شيوخه: سفيان بن عيينة ويوسف بن الماجشون والشافعي وغيرهم. وحدث عنه البخاري ومسلم وأو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم. ومن مؤلفاته: المسند، العلل ومعرفة الصحابة، الزهد، الناسخ والمنسوخ، الفرائض وغيرها. توفي سنة 241هـ، وكان عمره يوم مات سبعا وسبعين سنة رحمه الله تعالى.[25]

الوقفة مع فقه الأولويات في المحنة:

وفي السنة (218 هـ) أعلَنَ المأمون رأيه بخَلْقِ القرآن، وأمر بامتحانِ العلماءِ فيه، وقد أجابه كثير إلى ما ذَهَب إليه خوفاً من الضرب والموت، وظَلَّ الإمامُ أحمدُ إمام أهل السنة والجماعة ثابتاً على موقفه بأن القرآن كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ.[26] وحينما تعرض لمحنته المشهورة جاءه الإمام الشعبي وقال له: يا أحمد إن الله قد أعطاك الرخصة فخذ بها ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾. فقال له الإمام أحمد انظر يا شعبي من خلف هذا الباب؟ فنظر الشعبي فرأى آلاف الطلاب يحملون الدواة والقلم والقرطاس ينتظرون قول الإمام أحمد لينشروه في الآفاق. وصمَّم الإمام على

موقفه وكان يستطيع أن يحظى بالنعيم والخير والرضى، إلا أنه آثر المصلحة العامة للعباد على مصلحته الخاصة حتى لو كان فيها من النغص ما فيها.[27]

الدروس والعبر:

أتعب الإمام أحمد نفسه وثبت في هذه القضية، وسجن وجلد وعذب حتى كاد يقتل والإمام أحمد رحمه الله وقف في هذه الفتنة لأن القضية ليست بالقضية الهينة، ولعدة مصالح.

أولاً: أنه لو وافق على أن القرآن مخلوق ففي هذا تحريف للنصوص الشرعية الواردة بأن القرآن كلام الله عز وجل.

ثانياً: أنه سينفتح على الأمة باب كبير من أبواب البدع، وهو تأويل صفات الله سبحانه وتعالى، واتخاذ العقل مصدراً لتلقي العقائد وحينئذ ستنحرف الأمة انحرافاً كبيراً، ولهذا قال كثير من أهل العلم: إن الله عز وجل حفظ هذه الأمة بـ أبي بكر يوم الردة وبـ أحمد بن حنبل يوم الفتنة، ولهذا سيبقى اسم الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله مرتبطاً بالسنة وبالعقيدة إلى قيام الساعة.

إذا استطاع الإنسان أن يصبر فيلزمه الصبر، وأما إذا كان لا يستطيع الصبر فعنده مندوحة ومجال لأنْ يتخلص، ويكون هذا بأن يفعل الشيء الذي أُكره عليه مع اطمئنان قلبه إلى كراهية ذلك، وأن ما جرى على لسانه مما يخالف ما كان عليه قلبه، بل هو كاره له ويعتبر نفسه مضطراً إلى ذلك. لكن الصابر أقوى أجراً. □ □ □ □ □ □ يم يى □ □ □ □ ّ ً ً ُ ً ٌ ْ □ □ □ □ □ □ □ بر □ □ بن بى بي تر □ □ تن تى تي □ ً (النحل: ١٠٤ - ١٠٦)

السادس: ابن تيمية:

هو أبو العباس أحمد بن تقي الدين بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني أبو البركات ابن تيمية، الحافظ، المفسر، الفقيه، المجتهد، المشارك في أنواع العلوم. ولد رحمه الله يوم الاثنين عاشر، وقيل: ثاني عشر من ربيع الأول بحران سنة ستمائة وواحد وستين، ثم هاجر مع والده إلى دمشق. نشأ في أسرة عريقة بالعلم، ومن شيوخه عبد الرحمن بن محمد بن أحمد ابن قدامة المقدسي. ومن طلابه الإمام ابن كثير والإمام ابن القيم والإمام ابن ال>هبي. ومن مؤلفاته كتاب: الاستقامة، واقتضاء صراط المستقيم، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، درء تعارض العقل والنقل، مجموعة فتاويه، القواعد النورانية، وغيرها. وتوفي الشيخ في ليلة الاثنين لعشرين من ذي القعدة من سنة 728هـ.[28]

صور من فقه أولويات شيخ الإسلام:

حكى ابن قيم الجوزية وهو أحد تلاميذ ابن تيمية قال: سمعت ابن تيمية يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر فأنكر عليهم من كان معي، فقلت له إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة وهؤلاء تصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم.[29]

الدروس والعبر:

اعتبر الشيخ الحال والمآل وإصدار الحكم على ذلك، إذ أن حكم الخمر بالتحريم باق إلى يوم القيامة، لكن اعتبر المقصد وهو أنها تمنع عن ذكر الله وإقام الصلاة في حق المومنين، وفي حق التتار تمنعهم عن قتال المسلمين، وعلى ذلك، فالأولى في حق التتار تركهم على معصية الخمر، لأن قتل المسلم أشد فتنة وأبغض عند الله من شرب الخمر.

سابعًا: الحسن بن عليّ بن أبي طالب وفقه الأولويات:

هو الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، أبو محمد الهاشمي القرشي وسيد شباب أهل الجنة وحفيد رسول الله ﷺ. ولد سنة ثلاث من الهجرة. حفظ أحاديث عن جده صلى الله عليه وسلم وعن أبيه وأمه. وحدث عنه ابنه الحسن بن الحسن والشعبي وغيرهم. بايعه الناس بعد مقتل أبيه وبقي في الخلافة سبعة أشهر وأحد عشر يوما ثم سلم الأمر إلى معاوية. توفي سنة تسع وأربعين للهجرة، ودفن بجوار أمه فاطمة ﷺ بالبقيع وكان عمره ستة وأربعين عاما.[30] ويعدّ الحسنُ بن عليّ ﷺ من الخلفاء الراشدين، أصبح الخليفة الشرعي عن طريق اختيار شورى بعد استشهاد أبيه في شهر رمضان سنة 40هـ، وقد استمر في خلافته ستة أشهر وتلك المدة تدخل ضمن الخلافة الراشدة التي أخبر عنها رسول الله ﷺ، فقد روى الترمذي بإسناده إلى رسول الله ﷺ قال: "الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك."[31] وقد علق ابن كثير على هذا الحديث فقال: إنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن علي، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول من سنة 41هـ وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ وبذلك يكون الحسن بن علي خامس الخلفاء الراشدين.[32]

دروس وعبر:

يظهر من تطبيقات الحسن بن عليّ ﷺ لفقه الأولويات في كثير من أموره في خلافته، وأشهرها تنازله عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ﷺ، نظرا لمسير الأمة ومصلحتها على حساب رغباته. لا شكّ أنه توفرت فيه ﷺ عوامل القوة وأحقية للخلافة وهو في وضع قوي وأتباعه على استعداد لمحاربة من يريد أو مسالمتهم، لأنه اشترط على أهل العراق عندما أرادوا بيعته فقال لهم: "إنكم سامعون مطيعون تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت."[33] فبايعوه على ذلك. كما كان رضي

الله عنه يملك من الملكات الخطابية والفصاحة البيانية وصدق العاطفة وقوة التأثير والقرب من رسول الله ﷺ ما يجعله أكثر قوة وتماسكاً. ومن جانب آخر كان يعرف أن مهمّته الإصلاحي أصعب من حربه لمعاوية خاصة بالنسبة لأهل العراق، ومع ذلك تغلب على الكثير من العوائق التي واجهته، فقد حاول بعض الناس قتله، ورفض بعضهم الصلح وغير ذلك من العوائق، إلا أنه تغلب عليها وحقق الأهداف التي رسمها من حقن الدماء ووحدة الأمة وأمن السبيل وعودة حركة الفتوح.[34]

وقد حرص ﷺ على وحدة الأمة وترك الفرقة، رُوي أنه قام الحسن بن علي ﷺ خطيباً ﷺ في إحدى مراحل الصلح فقال: أيها الناس، إني قد أصبحت غير محتمل على مسلم ضغينة وإني نظار لكم كنظري لنفسي، وأرى رأياً فلا تردوا على رأيي، إن الذي تكرهون من الجماعة أفضل مما تحبون من الفرقة. وقد تحقق بفضل الله ووحدت الأمة حتى سمّي ذلك العام عام الجماعة، وهذا يدل على فقه الحسن في معرفته لاعتبار المآلات ومراعاته التصرفات وتطبيقاته للأولويات.[35]

الخاتمة

يصل لختام هذه المقالة التي تناولت تطبيق الأولويات عند بعض السلف رحمة الله عليهم. وأهم ما تشير إليه المقالة هو إن اعتبار الأولويات وخاصة تغليب المصلحة العامة على الخاصة أمر رغب فيه الإسلام بل واجب وضرورة في بعض الحالات، وقد كان هذا هو سلوك السلف المخلصين من هذه الأمة، ولولا تغليبهم للمصلحة العامة ما ألفوا مؤلفاتهم ولا سهروا الليالي ولا أمضوا حياتهم كلها جهاد وحركة لنشر الدعوة والقيم والمبادىء والأخلاق، ولما كان أغلبهم يموت ويدفن خارج أرضهم ووطنهم بعيداً عن أزواجهم وذرياتهم، وما كان ذلك كله إلا من أجل مصلحة العباد واعتبارا بالأولويات.

النتائج:

يمكن استنتاج النتائج الآتية من خلال هذه المقالة:

(1) اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون مصالح العباد مصالح عامة ومصالح خاصة. مصلحة يعود نفعها على الفرد ومصلحة يعود نفعها على المجتمع والعباد. وقد بنى الإسلام تشريعاته على تأمين المصالح الخاصة والعامة. وقد فهم السلف هذا المعنى وبنوا عليه رسالاتهم. وإذا ما تعارضت المصلحة الخاصة مع مصلحة العباد فإن الإسلام يرغب في تقديم المصلحة العامة.

(2) ويفهم من خلال المقالة أن الإنسان إذا كان صادقاً ووقف لله سبحانه وتعالى في قضية حساسة تتعلق بأصول العقيدة أن الله عز وجل يثبته ويوفقه كما حصل لهؤلاء السلف رحمهم الله تعالى.

(3) أن حياة السلف لم تكن المنشغلة بأمور دنيوية من مال وشهرة ومنصب وكذلك لم يتملكها الكسل والفتور بل علم وعمل وتضحية.

التوصيات:

وفي الأخير توصي الباحثة بالتوصيات البسيطة الآتية:

(1) الرجوع إلى منهج السلف إذْ هو أحرى للصواب وأقوم للعلم والعمل، كما يميز بالاستقامة والسداد والصحة والاطراد، وأنه مقتضى المعقول الصريح والمنقول الصحيح، وأن من خالفه كان مع التناقض، خارجا عن موجب العقل والسمع.

(2) الاهتمام والعناية بالروح وبالاتباع في أمور الدين لا بالشكل.

المراجع:

-البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، الجامع الصحيح، المكتبة الإيمان بالمنصور، طبعة جديدة، 2003م.

-الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، منتخب من صحاح الجوهري (بدون تاريخ ولا دار الطبع).

- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، المكتبة التوفيقية، القاهة-مصر.

-السفاريني، محمد بن أحمد، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية (بدون تاريخ ولا دار الطبع).

-السيد طه أحمد، ترتيب الأولويات في الإسلام، موقع الدكتور سعيد بن عبد الله الحميدhttps://www.alukah.net/sharia/0/94010/ بتصرف

2015/11/2 م، 1437/1/19هـ، Accessed on 15th/10/2019

- الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، ط1، 2001 م.

-الصلابي، علي محمد محمد، عثمان بن العفان شخصيته وعصره، مكتبة الإيمان بالمنصور، ط1،2004 م.

-الصلابي، عليّ محمد محمد، الانشراح ورفع الضيق في سيرة أبوبكر الصديق شخصيته وعصره، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر- القاهرة، 2002م.

-القرضاوي، يوسف، فقه الأولويات دراسة جديدة في ضوء الكتاب والسنة، المكتبة الإسلامي، ط1، 1999م.

-ابن القيم، محمد بن أبي بكر الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار الغد الجديد -بيروت، 2017م.

-ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، مختصر تفسير القرآن العظيم، إختصار أحمد محمد شاكر، ط1، دار الوفاء، 2003م.

-ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، طبعة بولاق، القاهرة، 1300هـ.

-ملحم، محمد همام عبد الرحيم، تأصيل فقه الأولويات وتطبيقاته في مجال حفظ الدين في السياسة الشرعية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1436هـ.

-الوكيلي، محمد، فقه الأوليات دراسة في الضوابط، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن-فيرجينيا، 1996م.

الهوامش:

[1] البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، الجامع الصحيح، المكتبة الإيمان بالمنصور، طبعة جديدة، 2003م، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، رقم 2652

[2] ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، طبعة بولاق، القاهرة، 1300هـ، ج20، ص291

[3] ملحم، محمد همام عبدالرحيم، تأصيل فقه الأولويات وتطبيقاته في مجال حفظ الدين في السياسة الشرعية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1436هـ، ص30

[4] الوكيلي، محمد، فقه الأوليات دراسة في الضوابط، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن-فيرجينيا، 1996م، ص15.

[5] القرضاوي، يوسف عبد الله، فقه الأولويات دراسة جديدة في ضوء الكتاب والسنة، المكتبة الإسلامي، ط1، 1999م، ص9

[6] الوكيلي، المرجع السابق، ص16

[7] المرجع نفسه، ص48

[8] ملحم، المرجع السابق، ص47

[9] الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، منتخب من صحاح الجوهري، ج1، ص26

[10] السفاريني، محمد بن أحمد، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، ج1، ص20

[11] ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، مختصر تفسير القرآن العظيم، إختصار أحمد محمد شاكر، ط1، دار الوفاء، 1424هـ- 2003م، ج1، ص573

[12] البخاري، المرجع السابق، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، رقم 2752

[13] ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1990م، ج3، ص86

[14] الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، المكتبة التوفيقية، القاهرة-مصر، ج3، ص86، بتصرف

[15] البخاري، رقم 4082

[16] الأصبهاني، إسماعيل بن محمد، سير السلف الصالحين، تحقيق كرم بن حلمي بن فرحات بن أحمد، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، ج1، ص659

[17] السيد طه أحمد، ترتيب الأولويات في الإسلام، موقع الدكتور سعيد بن عبد الله الحميد

https://www.alukah.net/sharia/0/94010/ بتصرف

2015/11/2 م، 1437/1/19هـ، Accessed on 15th/10/2019

[18] الطبقات الكبرى لبن سعد تحقيق إحسان عباس، ط1، دار صادر – بيروت، 1968 م، ج7، ص342

[19] الذهبي، المرجع السابق، ج7، ص583

[20] السيد، المرجع السابق

[21] الذهبي، المرجع السابق، ج4، ص318

[22] الصلابي، علي محمد محمد، عثمان بن العفان شخصيته وعصره، مكتبة الإيمان بالمنصور،2004م-1424هـ، ط1، ص411

[23] الذهبي، المرجع السابق، ج3، ص217-218

[24] الصلابي، عليّ محمد محمد، الانشراح ورفع الضيق في سيرة أبوبكر الصديق شخصيته وعصره، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر- القاهرة، 1423هـ-2002م، ص317-318

[25] الذهبي، المرجع السابق، ج9، ص336

[26] الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، ط1، 2001 م، ج، ص42

[27] السيد، المرجع السابق

[28]الإعلام، ج1، ص664

[29] ابن القيم، محمد بن أبي بكر الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار الغد الجديد -بيروت، 1438هـ- 2017م، ج3، ص15.

[30]سير أعلام النبلاء، ج3، ص247

[31]الترمذي، رقم 2226

[32] الدولة الأموية للصلابي، ص145-146.

[33]الصلابي، علي محمد، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، المكتبة العصرية، بيروت- لبنان، 2007م-1428هـ، ط1، ج1، ص145-148، بتصرف

[34]المرجع نفسه

[35]المرجع نفسه، ص150-151

الحسبة في الحضارة الإسلامية

الدكتور إبراهيم عبد الله ثاني
مركز الحضارة الإسلامية وحوار الأديان
جامعة بايرو كنو نيجيريا

المقدمة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله، محمد وآله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن للإسلام حضارة راسخة تتميز عن غيرها من الحضارات في كمالها ومواكبتها لكل عصر وعهد، مع مر الدهور، فلقد تشبعت نواحي حضارتها، ومنها الاحتساب، وهو الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، والنهي عن المنكر إذا ارتكب.

إن الحسبةَ من الموضوعات التي اعتنى بها العلماء قديمًا وحديثًا، لارتباطها بحياة النّاس الدينيّة والدنيويّة، وتتمثّل في الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، والنّهي عن المنكر إذا أُظهر فِعلُه، والحسبة بهذا المفهوم، تدخل في جميع جوانب الحياة العمليّة، من أجل حماية المجتمع من سلبيّات المعاملات، والانحرافات السلوكيّة، ويظهر دور الحسبة في كونها مبدأً إسلاميًّا بها تستقيم الحياة البشرية؛ اجتماعيًّا واقتصاديًّ ودينيًّا، الأمر الذي به تتحقّق التنمية المستدامة في المجتمع، ويتمتّع كل فرد من أفراد المجتمع بالأمن، وبالحسبة ينتشر الإصلاح والصلاح، وتسود المحبّة والتّناصح والتّعاون والتّناصر بين أفراد المجتمع، وبالتالي يسود العدل ويعلو الحق، ويضمحل الفساد والظلم في المجتمع.

وهذه دراسة موجزة عن الاحتساب في الحضارة الإسلامية مع بيان مفهومه وأدلة مشروعيته ومكانته، وأهميته والحكمة من مشروعيته، وتاريخ نشأته مصاحبا بعض نماذج الحسبة عبر العهود والعصور، بصفة موجزة. والله ولي التوفيق.

التمهيد

نشأت وظيفة الحسبة إلى جانب وظيفة القاضي؛ نتيجة تضخُّم ظروف الحياة في الخلافة الإسلامية، وهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين، يُعَيِّنُ لذلك مَنْ يراه أهلاً له، فيتعيَّن فَرْضُه عليه بحُكْمِ الولاية، وإن كان على غيره من فروض الكفاية[1]، قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ ﴿١٠٤﴾ ﴾[2].

وفي تطوُّرها فقد تَعَدَّتِ الحسبة هذا المعنى الديني في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى واجبات عملية مادِّيَّة تتَّفق مع المصالح العامَّة للمسلمين؛ فقد تناولت أمورًا اجتماعية متعدِّدة؛

مثل: المحافظة على النظافة في الطرق، والرأفة بالحيوان بأن لا يُحَمَّل ما لا يطيق، ورعاية الصحَّة بتغطية الروايا، ومنع معلِّمِي الصبيان من ضرب الأطفال ضربًا مبرحًا، ومراقبة الحانات وشاربي الخمر، وتبرُّج النساء، وبعبارة عامَّة كل ما يَتَعَلَّق بالمجتمع وأخلاقه، والظهور فيه بالمظهر اللائق، كما تناولت أمورًا اقتصادية؛ وذلك لتضخُّم المدن الإسلامية بأرباب الحرف والتجارات، فكان عمل المحتسب الأساسي منع الغش في الصناعة والمعاملات، وبخاصة الإشراف على الموازين والمكاييل وصحَّتها ونسبها[3].

الدين الإسلامي كجسد واحد صحيح وقوي، يزداد قوته وتماسكه بالغذاء والقوت الصحي مع الاعتناء به، وكذلك الحسبة في الدين تحفظ الدين داخليا وخارجيا، حتى يكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴿٣٦﴾ ﴾[4].

ولم تعرف الأمم والحضارات السابقة وكذا اللاحقة هذه الوظيفة في مجتمعاتها وأعرافها، والحق أن هذه الوظيفة في غاية الأهمية؛ لأنها تمثِّل المراقبة الأخلاقية على الشعوب، فمن المعلوم أن الحضارة الإسلامية اهتمت بعاملين مهمين؛ فالأول: العامل المادي. والثاني: العامل الروحي، ومن ثَمَّ كانت وظيفة الحسبة بمنزلة التطبيق الرائع لأخلاقيات الإسلام وأوامره السلوكية. فشعيرة الحسبة مما تميزت بها خير أمة وهي أمة محمد ﷺ به، ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿١١٠﴾ ﴾[5].

وقد رسخ الرسول ﷺ دولة الإسلام بعواصر الحسبة، وذلك في البيعة العقبة الثانية، لما ورد عن جابر بن عبد الله ﷺ في مسند الإمام أحمد رحمه الله:" أن المبايعين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم: علام نبايعك؟ فقال: تبايعونني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون لومة لائم..... وقاموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبايعوه على ما اشترطه من هذه الشروط"[6].

تعريف الحسبة لغة واصطلاحا:

الحسبة لغة: يدور مفهوم مادة "حسب" حسب مصدره في اللغة، حول التعرف على الأشياء، والتحري، والإنكار، والشرف وحسن التدبير في الأمر والنظر فيه، وطلب الأمر عند الله، والصبر على المصيبة عند فقدان الولد وهو كبير[7].

الحسبة اصطلاحا: كما عرفها جمهور الفقهاء:" أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله"[8].

وقد أضاف الشيرازي وغيره :"وإصلاح بين الناس"[9]، ولا تخلو الإضافة من التكرار لأن الإصلاح بين الناس داخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن القائم به إما أنه يأمر بمعروف تركه

الناس فيما بينهم بسبب العداوة والبغضاء، وإما أنه ينهى عن المنكر الناتج عن العداوة بينهم من الحقد والحسد والتشفي الذي يحصل بين المتخاصمين، وعلى أية حال فإن تعريف الجمهور أولى بالاعتبار.

بيان أدلة مشروعيتها:

مشروعيتها في القرآن الكريم:

لقد دلت نصوص عديدة من القرآن الكريم على مشروعية الحسبة، ونصت على ذلك بشكل واضح وصريح، ومن تلك النصوص الكريمة :

(1) قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ ﴿١٠٤﴾ ﴾[10].

(2) وقوله سبحانه ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ ﴿١١٠﴾ ﴾[11]

(3) وقوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾[12].

(4) وقوله عز وجل: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[13].

(5) وقوله تعالى: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾[14].

مشروعيتها في السنة المطهرة :

ورد عدد من أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم تنص بشكل واضح وصريح على مشروعية الحسبة، وتأمر بالقيام بها على أفراد المجتمع المسلم، ومن تلك الأحاديث:

قول النبي صلى الله عليه وسلم: " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"[15].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (إياكم والجلوس في الطرقات) فقالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: (فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها) قالوا: وما حق الطريق؟ قال: (غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر "[16]

مشروعيتها من الإجماع:

أجمعت الأمة الإسلامية ممثلة بعلماء السلف المعتبرين على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، استنادا منهم لنصوص الكتاب والسنة، وقد حكى العلماء إجماع الأمة على مشروعية الحسبة ووجوبها، منهم: يقول النووي رحمه الله: (وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر -الكتاب والسنة وإجماع الأمة[17]. وقد حكى القرافي الإجماع على وجوب الحسبة أيضا[18].

وبهذا يتضح أن الحسبة تقوم على أسس وركائز متينة في الإسلام هي كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع الأمة، وهذا كله مما يؤكد على أهميتها وفضلها.

حكمها:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على كل مسلم قادر، وهو فرض كفاية، ويكون فرض عين على القادر إذا لم يقم به غيره، ومحل الوجوب هو القدرة، فيجب على كل إنسان بحسب قدرته كما قال الله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴿١٦﴾ ﴾[19] والقدرة والسلطان والولاية، فذووا السلطان أقدر من غيرهم؛ فعليهم من الوجوب ما ليس عل غيرهم، والقرآن قد دل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجب على كل أحد بعينه بل هو على الكفاية كما قال تعالى: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ ﴿١٠٤﴾ ﴾[20] وقوله ﷺ:{ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ}[21].

مكانتها:

إن الحسبة في الدين بمثابة الروح التي تسري في شرايين الدين، وهي قاعدة من قواعد الدين الإسلامي، إذ بها تحفظ الدين كله، حتى يكون صافيا كما أراده الله تعالى لعباده، لقد كان من أهداف الحضارة الإسلامية إيصال المصالح إلى العباد فردا وجماعة لتحقيق أسمى الغاية من الخلق وهي العبادة، ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾، ليكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هي العليا ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ ﴿١٩٣﴾ ﴾، وتنزل بركات الله على الأرض، ويعيش الناس في غاية السعادة، وتعطل المفاسد وتقللها.

أهميتها: يهدف الإسلام إلى خلق مجتمع آمن مستقر تسوده المحبة ويجتمع أفراده في التعاون على البر والتقوى، حتى يتمكن الجميع من القيام بواجب الخلافة في الأرض وتحقيق الغاية الأساسية من خلق الإنسان وهي عبادة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ ولأن الناس محتاجون دائما إلى نظام يسيرون على هديه، وسلطة تحرص على تحقيق هذا النظام في حياة الناس، لزم أن يكون هناك من يذكر الناس بذلك ويتابع التزامهم به، ومن هنا جاءت أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الحكمة من مشروعيتها:

لمشروعة الحسبة حكم كثيرة نذكرها على سبيل الإيجاز، منها:

(1) إقامة حجة الله على خلقه: قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴿١٦٥﴾ ﴾.

(2) براءة الذمة من عهدة التكليف والمسئولية: كما قال تعالى في قصة أصحاب السبت عن الفرقة الناهية أنهم قالوا لمن قال لهم: ﴿ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

(3) رجاء انتفاع المأمور والمنهي بتقوى الله تعالى باجتناب المنهيات وفعل المأمورات: كما قال تعالى عن الفرقة الناهية في قصة أصحاب السبت ﴿ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ وقال تعالى في بيان من ينتفع ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾.

وقد لخص لنا الشيخ حسن الباشا الصفات التي تأهل المحتسب حتى يؤدي ما عليه من الوظيفة من خلال الجمل التالية:

"وكان المحتسِب يُختار مِن بين علماء الدين والقلم، الملمّين بأحكام الشريعة، والأشدَّاء في الحق، وذوي الثقة والأمانة، وربما كان من القضاة أو أعيان المعدَّلين، وربما أضيفت أعمال الحسبة إلى القاضي، أو إلى الوالي، أو صاحب الشرطة، وقد يجمع المحتسب بين نظر الحسبة ونظر الوقف، وكان المحتسب يولي عنه نوابًا في سائر المدن والأقاليم التابعة له، وكانت اختصاصاتُ المحتسب تُوجِب مراقبة ما يتعلق بتأدية العبادات؛ بتأدية صلاة الجمعة، والمحافظة على الصلاة جماعةً، وأداء الزكاة، ورَدْع أهل البدع، ومراقبة الأسواق، ومعاملة التجَّار للناس، ومراقبة النقابات والحِرْفِيين[22]".

دور المحتسب في المجتمع :

كان كثير من المحتسبين يُقيم الحدود، ويُوقِّع العقوبات على الأمراء والسلاطين المخالفين؛ شأنهم شأن باقي الرعية؛ فقد ذكر نظام الملك في كتابه "سير الملوك" أن السلطان السلجوقي محمود بن ملكشاه "كان قد شرب الخمر مرَّة مع خاصَّته وندمائه طوال الليل... وكان علي بن نوشتكين ومحمد العربي (من قُوَّاده ومُقَرَّبيه) ممن حضروا المجلس، وممن ظلُّوا يسهرون ويشربون مع مَحْمود الليلة بكاملها، ومع إشراقة الصباح أُصيب علي بدوار، وبدا عليه أثر إرهاق السهر والإفراط في الشراب، فاستأذن السلطان بالذهاب إلى منزله، فقال له مَحْمود: ليس صوابًا أن تذهب في وضح النهار وأنت سكران هكذا، ابقَ هنا واسترح في إحدى الحجرات حتى العصر، ثم اذهب آنذاك وأنت صاحٍ؛ فإنني أخشى إذا ما ذهبتَ الآن بهذه الحال أن يراك المحتسب في السوق، فيأخذك، ويُقيم عليك الحدَّ، فيُراقُ ماء وجهك، وينتابُني الغمُّ، دون أن أستطيع التفوُّه بشيء. غير

أن علي بن نوشتكين الذي كان قائدًا لخمسين ألف فارس، وصنديدَ زمانه، والذي كان يُعدُّ بألف رجل، لم يخطر له على بال أن المحتسب سيجرؤ حتى على مجرَّد التفكير في الأمر، فلم يَنْثَنِ عن عزمه، بل أصرَّ على أن لا بُدَّ من الذهاب، فقال مَحْمود: الرأي رأيك، دعوه يذهب. وركب علي بن نوشتكين في موكب عظيم من فرسانه وغلمانه وخدمه؛ قاصدًا منزله، وشاء الله تعالى أن يكون المحتسب مع مائة من رجاله بين خيَّال وراجل في وسط السوق، فلما رأى عليًّا سكران، أمرَ بإنزاله عن فرسه، ونزل هو أيضًا، ثم أمرَ بأن يجلس رجلٌ على رأسه، وآخر على رجليه، وجلَدَهُ بيده -دون أدنى محاباة-أربعين جلدة، حتى التهم الأرض بأسنانه، وحاشيُته وعسكره ينظرون، دون أن يجرؤ أي منهم على أن يتفوه بكلمة واحدة!"[23].

هذه هي الحضارة الإسلامية، التي لا تُفَرِّق بين قائد يستطيع أن يُحَرِّك خمسين ألفًا بإشارة منه، وبين محتسب لا يملك من أمره إلا مائة رجل فقط، ورغم ذلك، يُنزل المحتسبُ العقوبة علانية على القائد أمام جنوده وفرسانه، ولا يستطيع أحد منهم أن يُحَرِّك ساكنًا؛ ذلك لأن الحقَّ كان مع المحتسب النابه، الذي جعل القائد عبرة لمن يعتبر!

ولذلك بحثَ الخلفاء والأمراء والسلاطين عن المحتسبين أصحاب المهارة والعلم والحزم، وقد حكى ابن الإخوة في "نهاية الرتبة" أن "أتابك طغتكين سلطان دمشق طلب له محتسبًا، فذُكِرَ له رجلٌ من أهل العلم، فأمر بإحضاره، فلمَّا بصُر به قال: "إنِّي ولَّيتك أمر الحسبة على النَّاس؛ بالأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر. قال: إن كان الأمر كذلك، فقُم عن هذه الطَّرَّاحة، وارفع هذا المسند؛ فإنَّهما حريرٌ، واخلع هذا الخاتم، فإنَّه ذهبٌ. فقد قال النبي r في الذهب والحرير: "إِنَّ هَذَيْنِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي، حِلٌّ لإِنَاثِهَا"[24]. قال: فنهض السُّلطان عن طَرَّاحته، وأمر برفع مسنده، وخلع الخاتم من أصبعه، وقال: قد ضممتُ إليك النظر في أمور الشُّرطة. فما رأى النَّاس محتسبًا أهيب منه"[25].

ولذلك كان منصب المحتسب في غاية الأهمية، خاصة في أوقات الأزمات والغلاء، ففي عام 307هـ غلت الأسعار في بغداد غلوًا فاحشًا حتى "ضجت العامة... وكسروا المنابر، وقطعوا الصلاة، وأحرقوا الجسور"[26]فكانت وظيفة المحتسب حينئذ -وهو إبراهيم بن بطحا- أن يُسَعِّر بعض السلع الضرورية، فسَعَّر كُرَّ الدقيق بخمسين دينارًا، وهو ما هدَّأ من الثورة واضطراب العامة[27].

تاريخ نشأة الحسبة:

الحسبة حسب تعريفها السابق كانت بداياتها في العصر النبوي تحوي الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وإن كانت جزئية لكون الدولة متماسكة تحت القيادة النبوية تحكم أعدل الأقوام وأرشدهم، فلم تكن ثمة شرطة نصبت لجميع الولايات كما كان في العصر العباسي

حين تدهورت أوضاع الناس دينيا وخلقيا، وابتعدت الأمة عن القرون الأول المفضلة، وأن موقف الإسلام من هذه الأوضاع وسياسة الرسول ﷺ في معالجتها بعد تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة المنورة كان لها تأثير حاسم في تحديد وجهة التطور في الأنظمة التي عرفتها الدولة الإسلامية ومنها نظام الحسبة[28].

وأول من احتسب في تاريخ الحضارة الإسلامية، هو رسول الله ﷺ، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ مرَّ على صُبْرة طعامٍ، فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً، فقال: "مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟". قال: أصابته السماء يا رسول الله. قال: "أَفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي"[29].

وكان النبي صلى الله عليه نفسه يباشر الحسبة بنفسه أو يكلف غيره، لإنكاره على النساء مشهن في قارعة الطريق، يقول ذلك وهو خارج المسجد للنساء:" استأخرن فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق عليكن بحافات الطريق"[30].

ومن حسبة النبي ﷺ حسبته في مجال الزينة، حين أنكر على رجل قد لبس خاتما من ذهب فنزعه النبي ﷺ وطرحه وقال: "يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده"، فقيل للرجل بعدما ذهب الرسول ﷺ: خذ خاتمك، انتفع به، قال: لا والله لا آخذه أبدا، وقد طرحه رسول الله ﷺ[31].

وقد احتسب النبي ﷺ في العبادة عند تسوية الصفوف، يقول النعمان بن بشير ﷺ: كان رسول الله صلى الله يسوي صفوفنا حتى كأنما يسوي بها القداح حتى رأينا قد عقلنا عنه، ثم خرج يوما فقام، حتى كاد يكبر فرأى رجلا باديا صدره من الصف، فقال:" عباد الله لتسون صفوفكم، أو ليخالفن الله بين وجوهكم"[32].

تكليف النبي ﷺ غيره وإسناده أمر الحسبة إلى الأخر:

حينما بدأت الدولة الإسلامية الأولى تأخذ في التشكل والاستقلال، عيّن رسول الله ﷺ أول محتسب في الإسلام، حيث استعمل سعيد بن سعيد بن العاص ﷺ بعد الفتح، على سوق مَكَّةَ[33]؛ مما يُدلل على أهمية هذه الوظيفة منذ فجر الإسلام.

ومن اللافت للنظر أن بعض النساء من الصحابيات قد استُعْمِلْنَ في هذه الوظيفة منذ عهد النبي رسول الله ﷺ، فقد ذكر ابن عبد البر أن سمراء بنت نهيك الأسدية ﷺ "أدركت رسول الله رسول الله ﷺ وعُمِّرَتْ، وكانت تمرُّ في الأسواق، وتأمرُ بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتضرب الناس على ذلك بسوط كان معها"[34]، بل الأعجب أن عمر بن الخطاب ﷺ أبقاها محتسبة على السوق، وهذا ما يؤكده ابن الجوزي بقوله: "وكان عمر ﷺ إذا دخل السوق، دخل عليها"[35]. أي يدخل عليها مكان عملها لا بيتها، كما قد يُتَوَهَّم[36].

وقد أمر ﷺ علي بن أبي طالب بكسر الأوثان وتسوية قبور المشركين وطمس الصورة صونا لعقيدة المسلمين عن التلوث:" كان رسول الله في جنازة فقال أيكم ينطلق إلى المدينة فلا يدع بها

وثنا إلا كسره، ولا قبرا مشرفا إلا سواه، ولا صورة إلا طمسها، فقال رجل أنا يا رسول الله قال: "فانطلق"، فانطلق ثم رجع فقال: يا رسول الله، لم أدع بها وثنا إلا كسرته، ولا قبرا مشرفا إلا سويته ولا صورة إلا طمستها، ثم قال رسول الله ﷺ: "ومن عاد لصنعه شيء من هذا فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ"[37]. ثم قد ولي رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب على سوق المدينة[38].

الحسبة في عصر الخلفاء الراشدين(11-40هـ).

بنى الخلفاء الراشدون على صنيع الرسول ﷺ في الحسبة فقاموا بها أحسن قيام على قدر معروف ترك، أو منهي ارتكب، حسب المواقف ومن صور تلك المواقف:

- قتال أبي بكر الصديق لأهل الردة، ومانعي الزكاة حيث يقول:" والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه"[39]، وقد أمر بجمع القرآن الكريم بعد أن كان مفرقا بين الصحابة، فما كان سببا للمحافظة عليه وصيانته[40].
- كان أمير المؤمنين عمر يقوم بوظيفة المحتسب بنفسه، فكان يتولَّى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويُوَجِّه الناس إلى الحقِّ والصراط السوي، ويمنع الغشَّ، ويحذر منه، وكان t يمرُّ في السوق ومعه الدِّرَّة، فيزجر بها غلاة الأسعار والغشاشين[41].
- إنكار عمر على النائحات من النساء، لما مات خالد بن الوليد، وضربه إياهن بالدرة حتى سقط خمار إحداهن، فقالوا: يا أمير المؤمنين خمارها! فقالوا: دعوها ولا حرمة لها[42].
- إنكار عثمان بن عفان على من يلعب بالنرد، وأمرهم بتحريقه أو كسر، حين قال وهو على المنبر:" يا أيها الناس إياكم والميسر فإنها قد ذكرت لي أنها في بيوت ناس منكم، فمن كان في بيته فليحرقها أو فيكسرها....."[43].
- وقد مارس علي بن أبي طالب ﷺ الحسبة في الكوفة بنفسه ولم يفوض أحدا، وكان يمشي في الأسواق وبيده درة يضرب بها من وجد مطففا أو غاشا في تجارته،[44].

الحسبة في العصر الأموي(41-132هـ):

لقد تغير أسلوب الحسبة في العصر الأموي عما كان عليه في العصرين السابقين، حيث كانت عملية الإشراف على تنظيم الأسواق والعمليات التجارية فيها، وجباية ضرائب المبيعات، وتحصيل أجرة الدكاكين التابعة للدولة، والتأكد من دقة الأوزان والمكاييل، والمقاييس المستعملة في الأسواق، ومنع الارتفاع الفاحش لأسعار السلع الأساسية، ومنع الاحتكار وإجبار المحتكر على بيع ما احتكره[45].

كانت الحسبة في بداية الدولة الأموية بسيطة فكان الولاة يباشرون الحسبة بأنفسهم، لكن هذا لا يمنع من وجود رجال الحسبة في الأسواق، في مدينة البصرة زمن ولاية زياد بن أبيه، ثم

تطور الأمر فعين شخص على وظيفة الإشراف على الأسواق ثم تطور ليكون لهذا المعين من يعينونه في عمله[46].

وقد تميزت وظيفة المحتسب وأصبحت نظاما يتبعه كثير من الموظفين يعاونون المحتسب في القيام بهذه المهمة، ويقوم المحتسب بردع الخارجين على النظام العام ويمنع المجاهرة بالمنكرات[47].

ثم توسعت الأسواق وتطورت وتنوعت مشاكلها مما أدى إلى تطوير وظيفة العامل على الأسواق أو المحتسب من أجل مراقبة المكاييل والموازين، وكذلك من أعماله التحكم في حل الخلافات والنزاعات التي تنشأ بين أصحاب المهن وجمع الضرائب من الأسواق، ثم امتدت أعمال المحتسب لتشمل سك العملة والتعامل بها في الأسواق، وأن مدينة واسط كانت أحد أهم المراكز المهمة لسك العملة في الدولة الأموية[48].

ويمكن أن نقول بأن وظيفة الحسبة بدأ يتخذ مسارا جديدا في هذا العصر ومع ذلك فقد كان هذا النظام الجديد مقصورا على الأسواق والمعاملات المالية، ولم يعهد وظيفة الحسبة في جميع الجناح الحكومي.

الحسبة في العصر العباسي(132-656هـ):

كانت الحسبة في العصر العباسي امتدادا للعصر الأموي، حيث كان المحتسب يعاقب من يعبث بالشريعة أو يرفع الأسعار ويمنع التعدي على حدود الجيران، وارتفاع مباني أهل الذمة على مباني المسلمين ويشرف على نظام الأسواق ويحول دون بروز الحوانيت حتى لا يعوق ذلك نظام المرور، كما كان يجلس للفصل بين الناس في جامعي الأزهر وعمر بن العاص ثم اتسعت سلطته حتى أصبح من واجبات رجال الشرطة أن يقوموا بتلبية أوامره وينفذوا أحكامه، وكان يقرأ سجله بمدينتي مصر والقاهرة على المنبر[49].

ثم تطور نظام الحسبة فأصبح يشمل مهاما اجتماعية، كمراعاة الآداب العامة والرفق بالحيوان وحسن تعليم الصبية ومنع التبرج ومراقبة أعمال النظافة، وقد تمتع المحتسب بسلطات واسعة فكان هو الذي يوقع الجزاء وينفذ الحكم سواء بالزجر أو التوبيخ أو الضرب أو التشهير...[50].

وقد صارَتْ وظيفة المحتَسِب في القرن الرابع الهجري من الوظائف الثابتة الوطيدة الأركان في جميع الدولِ الإسلامية[51].

وكان المحتسب ينظر أيضا في منكرات الأسواق مثل بيع الخمور وسائر المحرمات، ومراقبة الأسعار في الأسواق لأن أسعار المبيعات محدودة توضع عليها أوراق بسعر كل سلعة بأمر من المحتسب، وكان يراعي إقامة الصلوات في أوقاتها، وهو المسئول عن نظافة المساجد ومراقبة ما

يقول الخطباء والوعاظ، وكذلك إشرافه على المعاهد التعليمية وعلى الحمامات والآداب العامة في الأزقة والطرقات[52].

وكان المحتسب يسهر في إقامة الحدود على مستحقيها، وتمتد سلطته ليفتقد اللحوم، والمأكل والمطبوخات[53]، وكذلك الأمر بالصلاة والنهي عن الإفطار في نهار رمضان، ويحث الأولياء على نكاح الأيامى، ومنع تحميل الدواب ما لا تطيق[54]، والإشراف على دار الضرب (ضرب النقود)، وإثبات اسم الخليفة عليها[55].

فخلاصة القول تطورت وظيفة المحتسب في ظلّ الخلافة العباسية من مراقبة المكاييل والموازين، ومنع الاحتكار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى الإشراف على نظافة الأسواق والمساجد، ومراقبة الموظفين للتقيد بالأعمال، حتى مراقبة المؤذِّن للتَّقَيُّد بأوقات الصلاة، وامتدَّت سلطة المحتسب كذلك إلى مراقبة القضاة إذا تأخَّروا عن أعمالهم، أو انقطعوا عن الجلوس عن الحكم، والغريب أن المحتسب كان له الحق في امتحان واختيار ذوي المهن والحرف؛ لمعرفة مدى إتقانهم للمهنة والحرفة؛ حتى لا يستغلُّوا الآخرين؛ فقد طلب الخليفة العباسي المعتضد (ت 279هـ) من سنان بن ثابت رئيس الأطباء امتحان جميع الأطباء ببغداد، وكانوا حوالي 860 طبيبًا، وأمر المحتسب بعدم السماح لطبيب أن يُمارس مهنته إلا بعد اجتياز الامتحان![56].

الحسبة في عصر المماليك (648-923هـ).

كان للحسبة أثر عظيم في **عهد الظاهر بيبرس**، الأمر الذي نتج عنه استتابة الأمن والاستقرار في أفراد المجتمع، وقضي على كثير من المنكرات، ففي عام 662هـ نودي من قبل المحتسب في القاهرة ومصر بمنع النساء من لبس العمائم، وفي سنة 665هـ أمر الملك الظاهر بيبرس بإراقة الخمور ومنع البغاء في مصر والقاهرة، فأغلقت الحانات التي كانت مخصصة لذلك، وأمر بنفي القائمين بها وحبست النساء حتى تزوجن، وكتب إلى جميع البلاد بمثل ذلك، وفي الوقت أحضر إلى السلطان شخص يدعى ابن الكازوروني وهو سكران فأمر بصلبه بعد حد عظيم، وعلقت الجرة والقدح في عنقه، فلما رأى المستهترون والخلعاء والمجان ما أصابه كفوا عن فسادهم.

وفي سنة (751هـ) أسرف النساء في عمل القمصان الجرارة ذات الأكمام الواسعة، وبلغت نفقة القميص ألف درهم، فعهد السلطان حسن إلى الأمير (منجك) بمكافحة هذه الأزياء فأمر بقطع أكمام النساء، ونودي في القاهرة بتحريم هذه الملابس والقبض على من تخالف.

الحسبة في العصر العثماني (982هـ).

كلما اتسعت الدولة الإسلامية اتسعت عملية الحسبة، ويذكر الشيخ أحمد بن إبراهيم الغزاوي أن الحسبة كانت من الوظائف الراتبة الدائمة، يقول: وقد أدركتها في العصر العثماني

بمكة... وكان آخر من رأيته قائما بها ما بين عامي 1325هـ-1330هـ شخص هرم أحسبه تركي الأصل يدعى (القيصرلي).. أي قبل إنشاء أول بلدية بمكة المكرمة، ولا أزال أتمثل أمامي ما كان له من رهبة وتأثير في الأسواق حتى ليتوارى منه الكثيرون ممن يخافون كشف الغش فيما يعرضونه من الألبان واللحوم والخضروات، ومن الذين يخرجون بالدكاكين إلى عرض الشارع وكان له صلاحيات مطلقة في الحبس والجلد.....ثم انقرض ذلك فيما بعد واستبدل بالبلدية حتى الآن[57].

الحسبة في دولة نيجيريا

دخل الإسلام إلى نيجيريا قبل وجود مملكة ابن فودي وذلك في مملكة "كانم برنو"التي تعد الآن جزء من ولايات نيجيريا، انتشر الإسلام فيها على يد مَلِكها «همي جلمي» (1075م – 1086م)،[58].

وقد تعاقبت العهود تحت القيادة الإسلامية في تلك المملكة، لكن سلاطين المملكة لم ينفكوا يوما واحدا عن وظيفة الحسبة حيث "نصب السلاطينُ القضاة والشرطة والوزراء وأمراء الجيش؛ لتقوم أمور الدولة على الشرع، ويشهد على ذلك أن السلاطين عند كتابتهم لوصايا الامتيازات كانوا يُشهدون عليها أصحاب هذه المناصب، ومن تلك الوصايا النص الآتي: «كتبت هذه الوصية خوفاً من النسيان، ولإعلام كلّ مَن وصلت إليه من الأمراء والشرطة والحكام والعلماء والقضاة والوزراء والرعايا ومعاشر المسلمين"[59].

وكل أولئك السلاطين جاءوا قبل ابن فودي بقرون، ولا يسع المجال لذكرهم في هذا البحث.

الحسبة في مملكة عثمان ابن فودي (1196م – 1259هـ):

كانت مملكة عثمان بن فودي واضحة المعالم مبنية على الحسبة، لأنه في بدايات دعوته وجد الذين ينتمون إلى الإسلام ولا يعرفون أي شيء عنه غير اسمه، وجدهم بعيدين كل البعد عن تعاليم الإسلام الحقيقي، فشمر عن ساعد الجد لتدارك الحالة، فقام بالدعوة إلى الله تعالى، وإلى ترك أمور الجاهلية والبدع في الدين، والرجوع إلى السنّة، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وتجوَّل في دعوته في «بلاد غوبر» التي كانت تشكّل حدود بلاد «هوسا» الشمالية، وبلاد «زمفرا» حدودها الغربية، ونَصَر الدين، واجتمع معه أنصار لدين الله، فكانوا جماعة اجتمعوا على العلم ونشره وإحياء السنّة ومحاربة البدع وأعمال الجاهلية، والنصيحة للخلق، فحاربهم ملوك «هوسا»، فأعلن الشيخ الجهاد، ونصرهم الله على عدوهم فأصبحوا ظاهرين.[60]

وقد أسّس الشيخ بعد تمكين الله له مجتمعاً إسلاميّاً، ونصب الأمراء على المناطق التي دانت له، ودخلت في طاعته[61].

وقد ذكر الشيخ بيان مرسومه في "وثيقة أهل السودان"، التي أعلن فيها الجهاد، فقال: " بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم تسليماً، الحمد لله الذي أنعم

علينا بنعمة الإيمان والإسلام، وهدانا بسيدنا ومولانا محمّد عليه من الله – تعالى – أفضل الصلاة وأزكى السلام، أما بعد، فهذه وثيقة من ابن فودي أمير المؤمنين إلى جميع أهل السودان وإلى مَن شاء الله من الإخوان في البلدان، وهي وثيقة نافعة في هذه الأزمان، فأقول وبالله التوفيق: فاعلموا يا إخواني! أن الأمر بالمعروف واجب إجماعاً، وأن النّهي عن المنكر واجب إجماعاً، .....".

وقد أسس بعض المؤسسات الإسلامية وهي ثلاث مؤسّسات: القضاء، وولاية المظالم، والحسبة. فلنتكلم عن الحسبة لأنها صلب موضوعنا:

وأما «المحتسب»: فهو الذي كان يلي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان مسؤولاً عن مراقبة التجار في الأسواق في موازينهم وأمدادهم، وفي المنع من الاحتكار والمؤامرة لرفع الأسعار، كما يعاقب على الغش والفساد[62].

فهذه المؤسّسة – بالإضافة إلى الشرطة – أسهمت في محاربة الظلم والفساد.

وفي عهد «بللو» نفسه يقول مؤلف كتاب (تقييد الأخبار في تاريخ مدينة كانو) يقول عن أمير "كانو" "إبراهيم دابو": "لقد أقام العدل، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وحارب البغاة وقطّاع الطرق، وقطع أيدي السرّاق، وهدم بيوت الدعارة، فاستتب الأمن، حتى إن الناس لا يقفلون أبوابهم في الليل، والأنعام ترعى بدون راعٍ إلا في مواسم الأمطار، وقد يسَّر الله السبل في عهده، فتسير الفتاة من كوكاوا (وهي مدينة ميدغري الآن) إلى كوارا (وهي مدينة إلورن) من غير أن تتعرض لأي أذى"[63].

الحسبة في ولاية زنفرا وكانو

اخترنا ولايتين في شمال نيجيريا لتكونا نموذجا، وذلك لقوة تمسكهما بمبدأ الحسبة، ولقوة نفوذ ولاية الحسبة فيهما.

بعد إعلان حاكم ولاية "زمفرا" (الحاج أحمد ثاني) عزمه على تطبيق الشريعة، تحرك المسلمون من مختلف أنحاء نيجيريا للمطالبة بتطبيق الشريعة في مناطقهم، فتضامن العلماء والدعاة والجمعيات الإسلامية بمختلف توجهاتهم ومناطقهم وقبائلهم، ووحدوا صفوفهم، وبذلوا الجهود في المطالبة بتطبيق الشريعة والدفاع عنها، وقام بمساندتهم النخبة من المحامين والصحافيين والكتَّاب، حتى أعلن في معظم ولايات شمال نيجيريا حيث كان أغلبيتهم مسلمين.

وقد استطاع الولاة تقديم بعض التسهيلات كتمهيد لقبول فكرة الحسبة لدى الرعية، وهذه نبذة يسيرة حول أهم مجالاتها:

(1) تفعيل دور المجتمع في عملية الحسبة وقمع الفساد الخلقي: ومن أهم مظاهر ذلك: منع الدعارة وإغلاق أماكنها، وإغلاق حانات الخمر وحظر تناولها في الأماكن العامة، ومنع بيعها وتخميرها واستيرادها، وإلغاء تراخيص ذلك، وهذا من أهم مجالات التطبيق، وكاد تجتمع

عليه جميع الولايات التي تبنّت تطبيق الشريعة، ومن آثاره الإيجابية تخفيف نسبة الإجرام في تلك الولايات، فقد كانت تلك الأماكن مأوى للعصابات السراق والسطو وقطّاع الطرق، حتى ذكرت إحدى الصحف المحلية أن المجرمين والمومسات هجموا على ولايات المنطقة الوسطى التي لا تطبق الشريعة؛ فراراً من الولايات التي أعلنت التطبيق، فازدادت نسبة السرقة وقطع الطرق فيها من قِبَل العصابات المسلَّحة، وكثرت شكاوى أهلها، ومن أبرزها ولايات (بلاتوا، ونصراوا، وبينوي، وكوغي، وترابا، والعاصمة أبوجا)[64].

(2) ضبط بعض المعاملات التجارية، ووضع معايير للأمداد والموازين واستعمالها في عمليات البيع، وقد كان ذلك غائباً في معظم الأسواق.

(3) تأسيس بنك إسلامي" الجائز" للقضاء على جريمة الربا في المعاملات المالية، حتى تم إصدار الترخيص لإقامة أول بنك إسلامي برأس مال معظمه من بعض الولايات التي طبقت الشريعة، (وهي ست ولايات: زمفرا، كانو، بوشي، كدونا، نيجا ويوبي.

(4) زيادة الأنشطة الدعوية، ورفع مستوى الوعي والتديّن لدى العامة: فسخرت وسائل الإعلام لنقل البرامج الدينية، وفرغ الدعاة لتوعية الناس في المدن والقرى والأرياف.

(5) العناية بالتعليم الإسلامي، وإعادة مراجعة مناهج تعليمية حتى يتكيف مع بعض تعاليم الدين الإسلامي وخاصة في مستويين الابتدائي والثانوي.

(6) إنشاء هيئة الحسبة: وهي عامّة في كثير من الولايات الشمالية التي تقوم بتطبيق الشريعة، ومهمتها: تعقّب الأعمال المنافية للشريعة والفساد الخلقي، واقتضت الحكمة تأسيسها؛ لأنه لا يمكن الاعتماد على الشرطة لتعقب الفساد؛ إذ لا تخضع خضوعاً تامّاً لحاكم الولاية، وإن كان هو مسؤول الأمن الأول في ولايته، فبدأت هيئة الحسبة كهيئة تطوعية بتنظيمٍ فيه أعضاء في جميع أنحاء الولايات ابتداءً من الأحياء إلى المستوى الولائي، وقد نجحت نجاحاً كبيراً من جهتها، لكن بسبب قلّة العلم، وقلّة التدريب لدى أعضائها، سجّلت عليها بعض التجاوزات، فأعيد تشكيلها بشكل قانوني بحيث يوجد في مجالس إدارتها أعضاء من الشرطة والمباحث الجنائية.

وفي هذا العام 2023م نشطت وظيفة الحسبة وخصوصا في ولاية كانو تحت قيادة الشيخ أمين إبراهيم دوراوا، حيث طالت يدها لأوكار الدعارة وأهل الفساد في ولاية كانو، ضيقت للمثليين والشواذ الخناق، فأصبحوا يغادرون ولاية كانو إلى الولايات المجاورة لإقامة حفلاتهم المجانة.

ولم تغفل الحكومة جانب المعروف حيث أقامت مشروع دعم غير القادرين من الأيامي والأرامل والمطلقات ليتزوجن، كل تلك الأنشطة وغيرها نفذت تحت رعاية وعناية الحسبة.

وقد سجلت هيئة الحسبة في ولايتي زنفرا وكانو أهم إنجازات، منها:

- استتابة الأمن، وقلة جرائم القتل والسرقة والبلطجة والاغتصاب بصورة ملحوظة.

- إلزام القطاعين العام والخاص بالسماح للمسلمين بأداء الصلاة في أوقاتها، وإيقاف العمل في الدوائر الحكومية قبل الواحدة ظهراً يوم الجمعة، وبث الأذان في مواعيده من خلال شبكات التلفاز والقنوات الإذاعية في بعض الولايات.(65)

الخاتمة:

من خلال السير في هذه الدراسة يمكن أن نصل إلى نتائج كثيرة أهمها:

- الحسبة واجب ديني على أمة محمد ﷺ فردا وجماعة، كل بحسب قدرته وإمكانيته.
- يعتبر شعيرة الحسبة حضارة قديمة مرنة وسارية في الإسلام، من بعثة النبي ﷺ إلى قيام الساعة في الحضارة الإسلامية، تتطور حسب الزمان والمكان حسب الظروف المتاحة.
- شعيرة الحسبة حضارة من الحضارات التي اختصت بها هذه الأمة، لأن مسؤوليتها لم تكن في الأمم السالفة، وإنما خص بها أمة محمد ﷺ.
- تتجدد وظيفية الحسبة وتتبلور كلما أحدث الناس منكرا أونسوا معروفا أو أخروه، ولذا لم يتم تعين شرطتها في العصر النبوي، لعدم الداعي إلى ذلك.
- غالب الحسبة في العصور الأولى كانت عبارة عن ولاية السوق، لأن معظم الفساد في المعاملات يصدر من الأسواق.
- تطورت وظيفة الحسبة في العهد العباسي تطورا ملحوظا يمكن أن نقول بأنها وصلت لمرحلة الاختصاص والشمول.
- إن الحضارة الإسلامية بنظامها المحكم قادرة على حفظ المجتمع من جميع النواحي الصحي والعقلي والثقافي والاقتصادي، ليتمتع بهويته الدينية.
- إن إسقاط هذه الحضارة الشامخة إسقاط لقيم المجتمع وسيادة للفساد، واستحقاق لغضب الله على الناس واللعن ومن ثم تعجيل عقابه.

المصادروالمراجع

ابن خلدون، عبدالرحمن محمد، **المقدمة**، ط1، تحقيق: هيثم هلال، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت لبنان، 2010م.

ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (المتوفى: 273هـ)، **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي

ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: 711هـ)، **لسان العرب**، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ

أبو داود، **سنن أبي داود**، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، 1999م.

أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين، أبو العباس ابن أبي أصيبعة (المتوفى: 668هـ)، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، المحقق: الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة – بيروت.

البيهقي، أبوبكر بن أحمد بن الحسين، **سنن البيهقي**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، 1994م.

الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، أبو عيسى (المتوفى: 279هـ)، **سنن الترمذي**، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، 1395 هـ - 1975م.

حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام (السياسي والديني والثقافي والاجتماعي)**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

د. صالح بن عبدالله حميد، **الحسبة في الشريعة الإسلامية**، ورقة عمل مقدمة لندوة الحسبة وعناية المملكة العربية السعودية بها، المنعقدة في 11-1431/4/12هـ. دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.

دكتور أشرف محمود بني كنانة، **نظام الحسبة**، ط2، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، 2010.

الرازي، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، **معجم مقاييس اللغة**، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م.

الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى (المتوفى: 1205هـ)، **تاج العروس من جواهر القاموس**، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.

سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرون، **دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية**، الكويت، ذات السلاسل، 1986م.

الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد (المتوفى: 241هـ)، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001م.

الصاحب بن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، (المتوفى: 385هـ)، **المحيط في اللغة**، ....

صبحي الصالح، **النظم الإسلامية، نشأتها وتطورها**، دار العلم للملايين للطباعة والنشر، بيروت، 1978م.

الصلابي، علي محمد، **الدولة الأموية عوامل الازدهار تداعيات الانهيار**، دار المعرفة، بيروت،2008م.

الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري (المتوفى: 321هـ)، **شرح مشكل الآثار**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى - 1415 هـ، 1494م.

عبدالرزاق، **مصنف عبدالرزاق**، تحقيق حبيب الرحمن العظمي، المكتب الإسلامي، دمشق،1983م.

الفيروزآبادى، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (المتوفى: 817هـ)، **القاموس المحيط**، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الثامنة، 1426 هـ - 2005م.

القرافي، أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، **أنوار البروق في أنواء الفروق**، تحقيق عمر حسن القيام، مؤسسة الرسالة، القاهرة.

القرشي، ضياء الدين، محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد بن الأخوة، (المتوفى: 729هـ)، **معالم القربة في طلب الحسبة**، دار الفنون، كمبردج، بدت.

القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري (المتوفى: 463هـ)، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، المحقق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 1992م.

الماوردي، بو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ)، **الأحكام السلطانية**، دار الحديث، القاهرة.

محمود إسماعيل، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت، 1989م.

المقدسي، محمد بن عبد الملك بن إبراهيم بن أحمد، أبو الحسن الهمذاني (المتوفى: 521هـ)، **تكملة تاريخ الطبري**، المحقق: ألبرت يوسف كنعان، المطبعة الكاثوليكية – بيروت.

النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري (المتوفى: 261هـ)، **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ**، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي.

يحيى الملاح، **الحسبة في الحضارة الإسلامية**، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، د.ت: القاهرة.

Joseph Kenny OP، **Sharia and Islamic Revival in Nigeria**، Bulletin on Islam and Christian – Muslim Relations in Africa (Birmingham)، 4:1 (1986)،www.diafrica.org.

H.A.S. Houston، **The Fulani Empire of Sokoto**، Oxford University Press، London، Ibadan، Nairobi. 1967.

Muhammad Tabi`u، **Law and Social Change in the Sokoto Caliphate، in State and Society in**

the Sokoto Caliphate، eds: Ahmed Muhammad Kani and Kabir A- med Gandi، Usmanu Danfodio University Series 1990.

Ibrahim Ado Kurawa،1989، **The Jihad in Kano.Translation and Analysis of Taqyeed al Akhbaar of Qadi Muhammad Ibn Salih**، Kano.

مقال إبراهيم أدو كوراوا: State Failure and the Collapse of the Educational System in the North، نقلاً من إحصائيات اللجنة الوطنية للتعليم الجامعي عن واقع التعليم الجامعي في نيجيريا.

الهوامش:

(1) ابن خلدون: العبر 225/1.

(2) آل عمران: 104

(3) [الماوردي: الأحكام السلطانية ص 211 وما بعدها، وابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر 225/1، وعبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص 57.]

(4) - سورة النحل، آية:36.

(5) - سورة آل عمران، آية:110.

(6) - الإمام أحمد بن حنبل: المسند:ج:3،ص:322، طبعة المكتب الإسلامي للطباعة والنشر.

(7) - ينظر: ابن منظور: لسان العرب ج1ص: 313 و314، والفيروز آبادي : القاموس المحيط،ص95، وتاج العروس:ج2 ص:278.ومعجم مقاييس اللغة:ج2 ص:493، والصاحب بن عباد: المحيط في اللغة:ج2،ص:493. والمحيط في اللغة،ج2،ص:494.

(8) - الأحكام السلطانية للماوردي، ص:240.

(9) - معالم القربة في طلب الحسبة.ص:7.

(10) - سورة آل عمران، آية:104.

(11) - سورة آل عمران، آية:110.

(12) - سورة التوبة، آية:71.

(13) -سورة الحج،آية:41.

(14) -سورة لقمان،آية:17.

(15) - شرح مسلم للنووي، 18/2.

(16) - صحيح مسلم، رقم:5563.

(17) -شرح مسلم للنووي،22/2.

(18) - القرافي، أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، أنوار البروق في أنواء الفروق، تحقيق عمر حسن القيام، مؤسسة الرسالة، القاهرة،257/4.

(19) - سورة التغابن،آية:16.

(20) - سورة آل عمران، آية:104.

(21) - شرح مسلم للنووي، 18/2.

(22) - حسن الباشا: دراسات في الحضارة الإسلامية، ص (75).

(23) نظام الملك: سياست نامه ص80، 81

(24) مشكل الآثار للطحاوي (4209).15.

(25) ابن الإخوة: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص78.

(26) محمد بن عبد الملك الهمذاني: تكملة تاريخ الطبري ص21

(27) محمد بن عبد الملك الهمذاني: تكملة تاريخ الطبري ص21.

(28) - هشام يحيى الملاح، الحسبة في الحضارة الإسلامية، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، د.ت: القاهرة،ص:9-10.

(29) مسلم: كتاب الإيمان، باب قول النبي ر من غشنا فليس منا (102)، أبو داود (3452)، والترمذي (1315)، وابن ماجه (2224)، وأحمد (7290).

(30) - أبو داود، سنن أبي داود، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، 1999م، رقم :5272.

(31) - صحيح مسلم:2090.

(32) - مسلم، رقم:979.

(33) ابن عبد البر: الاستيعاب 185/1.

(34) المصدر السابق 1863/4.

(35) ابن الجوزي: سيرة عمر بن الخطاب ص41.

(36) ظافر القاسمي: نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي 592/2

(37) - مسند الإمام أحمد، رقم:657.

(38) - محمود حسين الوادي وآخرون، الاقتصاد الإسلامي، دار الميسرة، عمان،ص:255.

(39) - مسلم، رقم:32.

(40) - دكتور أشرف محمود بني كنانة، نظام الحسبة،ط2،دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن،2010،ص:198.

(41) الطبري: تاريخ الأمم والملوك 578/2

(42) -عبدالرزاق، مصنف عبدالرزاق، تحقيق حبيب الرحمن العظمي، المكتب الإسلامي، دمشق،1983م، رقم:6681.

(43) - البيهقي، أبوبكر بن أحمد بن الحسين، سنن البيهقي، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، 1994م، رقم:20745.

(44) - بني كنانة، نظام الحسبة،ص:198.

(45) -الصلابي، علي محمد، الدولة الأموية عوامل الازدهار تداعيات الانهيار، دار المعرفة، بيروت،2008م، ص:299.

(46) -المرجع السابق، ص:299-300.

(47) - الماوردي، أحكام السلطانية،ص:242.

(48) -يحيى الملاح، الحسبة:44-48.

(49) - حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام(السياسي والديني والثقافي والاجتماعي) مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،385/4.

(50) - محمود إسماعيل، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت، 1989م، ص:83.

(51) - محمد ضيف الله بطاينة: في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص :94.

(52) - سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرون، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، (الكويت، ذات السلاسل،1986م،168).

(53) - صبحي الصالح، النظم الإسلامية، نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين للطباعة والنشر، بيروت،1978م،ص:330.

(54) -الماوردي الأحكام السلطانية، ص:366-368.

(55) -ابن خلدون، عبدالرحمن محمد، المقدمة،ط1، تحقيق :هيثم هلال، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت لبنان، 2010م، ص: 165.

(56) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 1/) 112

(57) - د. صالح بن عبدالله حميد، الحسبة في الشريعة الإسلامية، ورقة عمل مقدمة لندوة الحسبة وعناية المملكة العربية السعودية بها، المنعقدة في 11-1431/4/12هـ،ص:36.

(58)- Bulletin on Islam and Christian – Muslim ، Sharia and Islamic Revival in Nigeria،Joseph Kenny OP Relations in Africa (Birmingham), 4:1 (1986) ,www.diafrica.org.

(59)- Hamidu Bobboyi, Sudanic Africa: 1993: P 190 .

(60)- H.A.S. Houston, The Fulani Empire of Sokoto, Oxford University Press, London, Ibadan, Nairobi. 1967,p:9.

(61)- المصدر السابق نفسه.

(62)- Muhammad Tabi`u, Law and Social Change in the Sokoto Caliphate, in State and Society in the Sokoto Caliphate, eds: Ahmed Muhammad Kani and Kabir A- med Gandi, Usmanu Danfodio University Series 1990.

(63)- Ibrahim Ado Kurawa ,1989, The Jihad in Kano.Translation and Analysis of Taqyeed al Akhbaar of Qadi Muhammad Ibn Salih, Kano.

(64)- Post Express (Lagos), July 26, 2000

(65)- مقال إبراهيم أدو كوراوا , State Failure and the Collapse of the Educational System in the North :، نقلاً من إحصائيات اللجنة الوطنية للتعليم الجامعي عن واقع التعليم الجامعي في نيجيريا.

أسس الاحتساب على الانحراف الفكري وتطبيقاته المعاصرة

د. نجيب أول أبوبكر
قسم الدراسات الإسلامية، جامعة بايرو كنو.

ملخص البحث

الاحتساب على الانحراف الفكري مهمة شرعية ضرورية، إذ لا سبيل إلى تحقيق مصالح العباد الدنيوية والأخروية إلا بتحقيقه، ولن يستقيم سلوك على الاطلاق إلا بعد استقامة فكر صاحبه، وتظهر أهمية الاحتساب على الانحراف الفكري في أنه الغاية من بعثة الرسل، وإنزال الكتب، وتعظم المسؤولية أيضا حينما تظهر الانحرافات الفكرية على اختلافها، كالالحاد في الأسماء والصفات أو الذات، أو الغلو في الدين كله، أو بعض أجزائه، والتي تتنافى مع الفكري الشرعي القويم، ويهدف هذا المقال إلى إيراد صور من الأسس الهامة التي يتم الاحتساب على الانحراف الفكري، وكيفية تطبيق ذلك في وقتنا هذا، وهذه الأسس بعضها قواعد فقهية أو أصولية مستنبطة من الوحي كتابا وسنة أو إجماعا، غير أن طبيعة هذا البحث لا يستطيع تغطيتها، وعليه فيحاول تسليط الضوء على أبرزها، منتهجا منهج العرض والوصف فالإلمام بها يُقَوّم ويسدد خطا المحتسب، ويقلل من خطئه، كما أن الجهل بها أو التغافل عن ممارستها يؤدي إلى انتشار الفوضى العارمة في الساحة الدعوية، والمفاسد العظام. وقد تم ترتيب المقال على ثلاثة مباحث وتحت كل مبحث مطالب حسب المسائل الواردة فيه. المبحث الأول: مفهوم الاحتساب وضرورته في صيانة المجتمعات. المبحث الثاني: مفهوم الانحراف الفكري خطورته ودواعيه. المبحث الثالث: أسس الاحتساب على الانحراف الفكري وتطبيقاته المعاصرة.

المبحث الأول: مفهوم الاحتساب وضرورته في الإسلام

المطلب الأول: ضرورية الاحتساب في الإسلام

قضية الاحتساب في الإسلام قضية جذرية لا تتجزأ عن الإسلام بشكل أو بآخر، ولا يقوم الدين إلا بها، فمصالح العباد الدنيوية والأخروية لا تتحقق إلا بالاحتساب الشرعي، ومن أجل ذلك يأتي دور الولاية العظمى في حق المسلمين، بل الولايات بأنواعها في الإسلام تسعى لتحقيق مبادئ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن أجل ذلك كانت الخصومات بين الأنبياء وأممهم، وكان من طبيعة

الأمم محاربة المصلحين أكثر مما يحاربون الصالحين، لأن المصلح يدعو غيره إلى الصلاح ويقوم بدور الإصلاح الأمر الذي يعارضه الفاسد كل المعارضة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وجميع الولايات الإسلامية إنما مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سواء في ذلك ولاية الحرب الكبرى، مثل نيابة السلطنة، والصغرى مثل ولاية الشرطة، وولاية الحكم، أو ولاية المال وهي ولاية الدواوين المالية وولاية الحسبة".[1]

المطلب الثاني: التعريف اللغوي للاحتساب.

فالاحتساب مأخوذ من الحسبة ويراد به طلب الأجر أصالة، ومنه قول ابن السكيت: احتَسَب فلانٌ بَنِينَ: إذا مَاتُوا لَهُ كبارًا واحتسب الأجر بصبره.[2] فكأن المنخرط في عمل الحسبة لما كان يحمل الناس على مرضاة الله وما يحبه تعالى استحق هذا الاسم (المحتسب).

المطلب الثالث: التعريف الاصطلاحي للاحتساب

الاحتساب هو ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حينما يتهاون الناس بالمعروف تركا كليا أو جزئيا، أو يغشون منكرا ويعلنوا به يقوم المحتسب بهذه الشعيرة العظيمة، وعلى هذا فالمحتسب الأول هو ولي الأمر أو من يعينه ولي أمر المسلمين.

قال الإمام ابن القيم: وأما ولاية الحسبة فخاصتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما ليس من خصائص الولاة والقضاة، وأهل الديوان ونحوهم.[3]

المبحث الثالث: مفهوم الأسس، والانحراف الفكري وبيان خطورته ودواعيه

المطلب الأول: مفهوم الأسس والحاجة إليها في كل شيء

فالأسس جمع أساس وهي كلمة تدل على أصل الشيء وأسه الذي يحمل معنى الثبوت، ومنه الأساس للبناء الذي يعتبر أصله ومعتمده. قال الجوهري: [أسس] الأُسُّ: أصل البِناء، وكذلك الأساسُ، والأَسَسُ مقصورٌ منه. وجمع الأُسِّ إساسٌ مثل عُسّ وعِساسٍ، وجمع الأَساسِ أُسُس مثل قَذالٍ وقُذُلٍ، وجمع الأَسَسِ آساسٌ مثل سببٍ وأسبابٍ. وقد أَسَّسْتُ البناء تأسيسا. وقولهم: كان ذلك على أُسِّ الدهر، وأَسِّ الدهر وإسِّ الدهر، ثلاث لغاتٍ، أي على قدم الدهر ووجه الدهر.[4]

ففي التوبة يوضح القرآن الكريم أن البناء لا بد له من أساس، وأن مساجد الله تبنى على تقوى من الله، وهو الأصل المفروض في حق المؤمنين الحق، بخلاف غيرهم من أهل النفاق والشقاق، الذين يسلكون غير سبيل المؤمنين قال الله: {لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىا مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ 108} {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ

عَلَىا تَقْوَىا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىا شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ 109}

واصطلاحا: يمكن صياغة هذه الأسس على أنها ضوابط عامة أو كلية يستنبط منها القواعد الشرعية التي يرتكز عليها الاحتساب الفكري ويقوم عليها، بحيث يستطيع المحتسب القيام بما أمر شرعا على الوجه الانق، فيكثر الخير في الأمة أو يوجده، أو يقلل الشر ويعدمه.

قال الشاطبي رحمه الله: إن الشارع قد قصد بالتشريع إقامة المصالح الأخروية والدنيوية[5]

وهي كثيرة لا يسع المقام سوى لذكر أبرز صورها، وسوف يوردها الباحث في موضعها إن شاء الله.

المطلب الثاني: مفهوم الانحراف الفكري، خطورته ودواعيه

بادئ ذي بدء يعتبر الفكر الإنساني من عظيم نعم الله، وحكيم صنعه في هذا الكون الدال على وحدانيته تعالى، وهو مناط التكليف بلا خلاف، ولذا نجد القرآن الكريم يخاطب الفكر مباشرة ويدعو الناس إلى إعمال فكرهم ليتوصلوا بذلك إلى تحقيق مصالحهم الدنيوية والأخروية، ويقوموا بتمييز الصواب من الغلط بواسطة فكرهم، من ذلك على سبيل المثال قول الله: قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (46)

يمكن تعريفه باعتبار مفرديه : فكلمة الانحراف راجعة إلى أصول ثلاثة (ح ر ف) وتأتي على ثلاثة معان: أولها:حد الشيء ومنه حرف السيف. ثانيها: العدول والانحراف عن الشيء، ومنه قول الله تعالى: وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون (75) ورد عند الفخر الرازي: والتحريف هو إمالة الشيء عن وحقه. والثالث: تقدير الشيء. قال ابن دريد رحمه الله: حرف كل شَيْء: حَده وناحيته. وناقة حرف: ضامر. وَفُلَان على حرف من هَذَا الْأَمر أَي منحرف عَنهُ مائل. وانحرفت عَن الشَّيْء انحرافا إِذا ملت عَنهُ.[6] فالانحراف لفظة مشتركة المفهوم بين الشعوب البشرية العالمية على اختلاف دينها وثقافتها وسياستها وفلسفتها، لكن الذي يعنينا هنا مفهومه بالمعيار الشرعي الصحيح المواكب للفطرة السوية.

واصطلاحا: الخروج عن الوسطية الشرعية، وعن العرف المعتبر.[7] وهذا التعريف من النعيمي أبو المجد يتميز بالشمولية لشتى الجوانب التي يطرأ فيها الانحراف، كالجانب النفسي أو السلوكي أو الديني أو الاجتماعي أو السياسي أو القانوني أو جوانب أخرى التي لا تخطر ببال الباحث الآن، والأهم من ذلك شموليته للوسطية الدينية التي جاء بها الشرع الإسلامي وعرف المسلمين والعلم عند الله.

وأما الفكر فهو من فكر في الأمر فكرا إذا أعمل العقل فيه ورتب بعض ما يعلم ليصل به إلى معرفة مجهول، وفكر في الأمر مبالغة فكر، وفكر في المشكلة تفكيرا ليصل إلى حلها، فهو مفكر.[8] وعلى ضوء المعنى المذكور فالفكر في الاصطلاح لا يخرج عن المعنى المذكور، وهو إعمال العقل للوصول إلى معرفة مجهول، أو حل مشكلة، أو التوفيق بين مفاهيم مختلفة بغض النظر عن منبعها أو أصلها. قال الجرجاني: ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول.[9]

وتكمن خطورة الانحراف الفكري في أنه سبب ضلال من ضل من أهل الزيغ والبدع بشتى أصنافهم، فهذا الانحراف له تعلق مباشر وكبير بالسلوك، وعليه فالقضايا الفكرية الدينية يجب تناقش تحت إطار التقريرات الشرعية الواردة في مصادر التلقي، كما أننا نجد في جانب آخر أن أول داعي للانحراف هو الخروج عن المشروع، بتقديم العقل على النقل كما هو حال الشيطان مع الله حينما أمر بالسجود، أو بهوى من حسد ونحوه كما هو الحال عن ابن آدم الأول.

المبحث الثالث: أسس الاحتساب على الانحراف الفكري وتطبيقاته المعاصرة[10]

لما كان العالم الإسلامي اليوم متلاطما بالأفكار المنحرفة أكثر مما مضى، والتي ترد على المجتمعات المسلمة في مشارق الأرض ومغاربها بلا هوادة، صار من أوجب الواجبات على الجهات المسؤولة التصدي لتلك الأفكار المنحرفة بكل أشكالها، صيانة لأفكار الأمة صغارا وكبارا رجالا ونساء، بحيث يكون ذلك من جانب الوجود ومن جانب العدم على حد سواء. ولا يتم هذا إلا إذا بني على أسس شرعية معتبرة، وفيما يلي ذكر لمصادر هذه الأسس قبل ذكرها:

المطلب الأول: مصادر أسس الاحتساب على الانحراف الفكري

أولا وثانيا: كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ: ويمكن أن نعتبرهما معا المصدر والأساس الأول والمنبع الصافي الأصيل في الاحتساب الشرعي على الأفكار المنحرفة والأقوال والأفعال القديمة والحديثة. والله تعالى يقرر هذا بكل صراحة في غير ما آية من ذلك قوله: ...إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون (40) وجه الدلالة من الآية أنه إذا أثبت الله لنفسه الشريفة الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه، لزم من ذلك تحريم تحكيم غير ما أنزله من الأنظمة والقوانين التي هي من صنع البشر.

والسنة النبوية فهي قرينة القرآن والتي تقوم بدور التوضيح والشرح والتبيين لما ورد في القرآن كما قال الله: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: 44] وبناء على هذه الآية صريحة الدلالة في المعنى الذي نحن فيه، لا سبيل إلى معرفة مراد الله تعالى في القرآن إلا عن طريق السنة المطهرة. والأمثلة على هذا تفوق الحصر من ذلك تحديد قطع يد

السارق وتحديد المقدار الذي يتم القطع من أجل سرقته، ومنها أيضا تحديد مقدار الزكاة من الأنصبة، والأموال الزكوية من غيرها، وكذلك تفاصيل صفة الصلاة من الركوع والرفع منه والسجود والرفع منه والتكبير والتشهد، والتسليم، وما يقال في كل جزء من أجزائها وما في معنى ذلك مما لا سبيل لمعرفة تفاصيله إلا عن طريق السنة.

فالإنسان جُبِل على الفطرة السوية والسلوك المستقيم، غير أن المؤثرات البيئية على اختلافها تقوم بتعكير صفو فطرته، فبقدر بعده عن منهج الكتاب والسنة علما وعملا يكون انحراف فكره، بل قد يصل به الحال إلى الانسلاخ الكلي التام عن فطرته السوية كما نشاهد في عصرنا الراهن انتكاس فطر كفار الغرب ومن هم على شاكلتهم في قضايا غير محصورة، من ذلك الشذوذ الجنسي عياذ بالله! ومحاولة فرضه وتقنينه على العالم بشتى الوسائل، لا أتم الله لهم ذلك، وبهذا فصار المسلمين اليوم مع الغرب ليس صراع عقيدة فحسب بل هو صراع مع الإنسانية وفطرتها السوية.

ثالثا: الإجماع: ومفهومه إجماع العلمَاء على حكم الْحَادِثَة، وهو حجَّة مَقْطُوع بهَا عند أئمة الإسلام، خلافا للإمامية غير أنهم يقولون: إن الْمُسلمين إِذا أَجمعُوا على حكم وَجب الْمصير إِلَيْهِ لِأَن فيهم من قَوْله حجَّة وَهُوَ الإِمَام وَالْإِجْمَاع عِنْدهم لَيْسَ بِحجَّة وَلَكِن فِيهِ حجَّة.[11] ومن أصرح دليله في القرآن قول الله تعالى: {وَمن يُشَاقق الرَّسُول من بعد مَا تبين لَهُ الْهدى وَيتبع غير سَبِيل الْمُؤمنِينَ نوله مَا تولى ونصله جَهَنَّم وَسَاءَتْ مصيرا} فتواعد على مُخَالفَة سَبِيل الْمُؤمنِينَ فَدلَّ على أَن اتباعهم وَاجِب ومخالفتهم حرَام وَأَن مَا عداهُ بَاطِل.

فلما كان الإجماع حجة في جميع الأحكام الشرعية كالعبادات والمعاملات وأحكام الدماء والفروج وغير ذلك من الحلال والحرام والفتاوى والأحكام، كما تقرر عند العلماء[12] اقتضى ذلك أن يكون من الأسس التي ينبي عليها الاحتساب الشرعي على الانحراف الفكري الذي نتحدث عنه.

وهذه المصادر الثلاث مجمع عليها بلا لبس ولا خفاء، وعليه فالأسس التي نحن بصدد الحديث عنها مستخلصة من هذه المصادر، وهي بمنزلة ضوابط أساسية ينبني عليها الاحتساب على الأفكار المنحرفة بشتى أصنافه وضروبه.

المطلب الثاني: صور من أسس الاحتساب على الانحراف الفكري وتطبيقاتها المعاصرة

المتأمل والناظر في هذه الأسس يجدها إما قاعدة فقهية أو أصولية تم استخلاصها من المصادر التي أشرنا إليها قبل قليل، ولعله من الأهمية بمكان أن نذكر لكل أساس ما يصلح أن يكون دليلا عليه قبل ذكر تنزيله وتطبيقه، والله المستعان.

الأساس الأول: كون مهمة الاحتساب من المهمات الدينية الواجبة

التي إذا تركتها الأمة أثمت قاطبة، وكيف لا ولا تتحقق مصالح العباد، وتنتفي مفاسدهم دنيا وأخرى إلا بالقيام بمهة الاحتساب على كل نوع من الانحراف. قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110)﴾ وفي حديث حذيفة بن اليمان ﷺ عند الترمذي بسند حسن مرفوعا: والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابا منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم.[13] فعلى ضوء هذه النصوص أول ما يجعل المحتسب على الانحراف الفكري في باله أنها مسؤليته إن لم يقم بها غيره، وكان قادرا على القيام بها، فهي فريضة من الله، وإلا صار له شبه كبير بالمغضوب عليهم (اليهود)[14] أضف إلى ذلك أنه إن أهملها هو مع قدرته على القيام بها، عمهم الله بعذاب من عندهم، والله المستعان.

الأساس الثاني: مراعاة الضروريات والحاجيات والتحسينيات وحفظها.

وهذا ضابط متين، له تعلق كبير بالاحتساب على الانحراف الفكري، وذلك أن أهل الأهواء والبدع والزيغ بصفة عامة، يكون انحرافهم من حيثية الغلو في الدين، أو الجفاء فيه، فالفكر الخارجي و الاعتزالي و الرافضي و الغلو في التصوف كله من هذا الباب. ويصلح أن يكون تطبيقا لهذا الضابط: الاحتساب على المؤلفات المنحرفة فكريا، من كتب ومجلات ودوريات أو قنوات فضائية تبث سموما فكرية أو مواقع إنترنيتية تنشر الإلحاد والبدع والغلو في الدين، يجب الاحتساب عليها للقادر، لأن مصلحة حفظ الدين لا تتم إلا بهذا.

ومن تطبيقاته المعاصرة الاحتساب على الانحراف الفكري التكفيري أو التبديعي، لأن التكفيري يؤدي به انحرافه الفكري إلى استباحة دماء المسلمين المعصومة، وإتلاف أموالهم بزعمه الردة في حقهم، وما جماعة بوكو حرام عنا ببعيدة. والتبديعي يؤدي به انحرافه الفكري إلى استباحة أعراض المسلمين وتصنيفهم بين الظن واليقين كما يقول العلامة بكر أبو زيد رحمه الله، فتضعف ثقة السذج من المسلين بعلمائها والدعاة المصلحين في الأمة. وجماعة الجرح والتجريح خير مثال لهذا.

إذ من المصالح الضرورية حفظ النفس والعرض على حد سواء وحرمة التعدي عليها إلا ببرهان من الله وأمر قطعي.[15]

الأساس الثالث: الموازنة بين المصالح والمفاسد عند التدافع

قال عليه الصلاة والسلام: " يا عائشة، لولا أن قومك حديثو عهد بشرك، لهدمت الكعبة، فألزقتها بالأرض، وجعلت لها بابين: بابا شرقيا، وبابا غربيا، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر، فإن قريشا اقتصرتها حيث بنت الكعبة "[16] فالداعية اليقظ، والمحتسب النبيه على دراية بأن المصالح

تتفاوت فيما بينها، وإذا تعارضت تقدم أعلاها وترجح على ما سواها، فمن باب أولى الموازنة بين المصالح والمفاسد عند التدافع والتعارض فيما بينها، ليتم بذلك تحقيق المصلحة أو درء المفسدة.

ومن تطبيقات هذا الأساس قتل الزنديق أو الملحد أو سجنه مدى الحياة إذا كان شره المستطير من إفساد الدين، وبث انحرافه الفكري لا يندفع ولايزول إلا بذلك، فإزهاق نفسه مفسدة تخصه وحده، وإبقائه على قيد الحياة مصلحة تخصه كذلك، إلا أن إفساد الدين، ونشر الزندقة والإلحاد بين الناس مفسدة تعم المسلمين قاطبة، وعليه فيرتكب هذه المفسدة وترجح على مصلحة فردية. وما قام به اجتماع العلماء والدعاة من ولاية كنو نيجيريا في من إدانة الزنديق عبد الجبار ناصر كبر خير مثال لتطبيق هذا الأساس.

ومن تطبيقاتها المعاصرة أن لا يقوم مستخدم الشبكة العنكبوتية اليوم بنشر أفكار أهل الانحراف، بحجة التحذير منهم، لأنها تحمل في طياتها سموما قاتلة لايقوى على ردها العامي من المسلمين، وربما يكون نشرها ترويجا لها وإظهارا لها بعد أن لن تكن كذلك.

الأساس الرابع: مراعاة المآلات ونتائج التصرفات

ودليل هذا الفقه والأساس قول الله: {وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّواْ اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}الأنعام108 كما نجد في السنة على حد سواء امتناع رسول الله ﷺ من قتل أهل النفاق والشقاق الصادين عن سبيل الله[17]

وبناء على هذا الضابط يلزم الاحتساب على الانحراف الفكري بشتى أشكاله كدعاة الانفتاح والحرية والتغريب والغلو في التصوف لما يحمله أفكار هؤلاء من مآلات منكرة ونتائج غير مرضية تغير معالم الدين وتقوم بطمسها، ونشر الرذيلة في الأمة.

وفي نفس الأمر بالنظر إلى النتائج والمآلات إذا أدى الانكار على الانحراف الفكري وغيره إلى ترويجه ونشره بين الناس، والناس في تمام الغفلة عنه أو في جزئية من غفلة عنه، فلا يجوز الاقدام على ذلك. ولعل من خير الأمثلة على هذا من أنكر على المحتفلين بالمولد النبوي احتفالهم في لحظة تم اغتيال عدد ليس بالقليل منهم، أليست مفسدة إزهاق الأنفس أعظم من مفسدة البدعة! ألا يؤدي هذا الانكار إلى نشر المولد وترويجه!

الأساس الخامس: وجوب الرجوع والرد إلى الكتاب والسنة والتحاكم إليهما في القضايا الفكرية وغيرها (لا حكم إلا لله) .

فكثير من أهل الزيغ والضلال فكريا يزعمون وصول القمة في سلامة العقل والفكر، ويحاكمون الناس إلى أفكارهم الزائغة، والحال أن العقول غير متساوية، بعضها أحسن من غيرها، وبعضها أفسد من الأخرى، وعليه فالمحتسب على الأفكار المنحرفة يحاكم المنحرف وأفكاره إلى الكتاب والسنة كما قال الله: {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (65)} وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (59) } وإذا تحقق هذا الرجوع والتحاكم على الوجه السليم سقط كل انحراف فكري مهما علا وانتفخ. ويجب أن يكون المحتسب واضحا في هذا التحاكم وملزما المحتسب عليه منذ أول وهلة من الاحتساب.

الأساس السادس: الأمور بمقاصدها

وهذا الأساس والضابط مبني على الحديث المشهور الذي يرويه عمر بن الخطاب ﷺ مرفوعا:حديث الأعمال بالنية،[18] الذي اعتبره العلماء أم السنة، لدخوله في جميع أبواب الدين، ومن هنا تظهر لك أهمية هذا وأن محله الصدارة، ويفيد المحتسب والمحتسب عليه جدا في الاحتساب على الانحراف الفكري، وذلك أن المكلفين تم ربط أعمالهم بالنيات، وبناءً عليها تكون المجازاة خيرا أو شرا. فالمحتسب يجب عليه مراعاة نيته وتخليصها من الشوائب، فيسعى لتحقيق مرضاة الله باحتسابه، دون مراعاة لحطام الدنيا مهما عظمت، فعلى قدر إخلاصه يُبَارَكُ له في سعيه وجهده، وفي الجانب الآخر يجب تذكير المحتسب عليه بأن ما يصدر منه من انحرافات فكرية سوف يتعرض للمسائلة أمام الله، وعليه فلينظر فيما بينه وبين الله.

الأساس السابع: الضرر يزال

والأصل في هذا الأساس حديث رسول الله ﷺ بلفظ: لا ضرر ولا ضرارا.[19] وللعلماء في صياغة هذا الأساس عبارات متقاربة تدل على عناية الشريعة الإسلامية بدرء المفاسد في جميع الأبواب، فعلى سبيل المثال إن كان الاحتساب على المنحرف فكريا يؤدي إلى منكر مثله أو أشد يجب الكف إلى حين يجعل الله للمشكلة سبيلا، ومن أمثلة هذا أن الحكومة الفدرالية النيجيرية التي أقدمت على إعدام رائد بوكو حرام (محمد يوسف) جَرَّت على الأمة ويلاتٍ، وكان ذلك سببا في حمل الجماعة المتطرفة (بوكو حرام) السلاح، فروَّعَت الأمنين من المواطنين، وَسفَكَت ما الله به عليمٌ من الدماء البريئة، وانتهكت من الأعراض ما لا يخطر ببال أو خيال.

الأساس الثامن: لا تكليف بما لا يطاق

فالاستطاعة شرط أساسي في التكليف، استنادا إلى النصوص الشرعية كقوله تعالى:{لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}ونجد في السنة أن النبي عليه الصلاة والسلام جمع ثلاث مراتب لتغيير المنكر، أولا باليد، ثانيا باللسان وأخيرا بالقلب.[20] لأن المحتسب قد لا يكون له قدرة على قمع بعض الانحرافات الفكرية بل إقدامه على ذلك قد يكون مما يزيد الطين بلة، فيظهر أمر المنحرف ويشتهر، أو يسبب للمحتسب تلفا أو أذية حقيقية في نفسه أو عرضه أو ماله. ولذلك ما ينبغي الحكم على علماء الأمة بالقصور في إنكار بعض الانحرافات خصوصا التي تصدر من السلطة لما ذكرنا.

الخاتمة:

أهم النتائج

- إن أكبر أسباب انهيار الأمة، وضعفها من بين الأمم، أن تصاب فكريا بانحراف ذات اليمين وذا الشمال، وأن تَضرب بالفكر الإسلامي المتصفُ بالوسطيةِ والاعتدالِ والمرونةِ والاتزانِ، لأن ذلك لا يتوقف عند ذلك، بل يتعداه إلى سلوكها بشتى مجالاته، وعليه فلا بد من التصدي للانحراف الفكري والاحتساب عليه درءا لمفسدته العظيمة.
- يلزم المحتسب على الانحراف الفكري الإلمام والتتبع للأسس الشرعية التي قررتها الشريعة الإسلامية، ليتعمق في فهمها، ويسعى لتطبيقها في الظروف التي يجد نفسه فيها، تطبيقا سليما، حتى لا يقع في الإفساد وهو يروم الإصلاح، وما أكثر هذا في وقتنا الراهن الذي تصدى لمثل هذا العمل أنصاف العلماء، وأدعياء العلم، وتفننوا في التعالم.
- إن علماء الأمة والدعاة إلى الله القائمون بدور الإصلاح في المجتمع فكريا وسياسيا واجتماعيا وسلوكيا هم الحصن المنيع للأمة من الضياع والانحرافات الفكرية بشتى أشكالها، وعليهم الإعداد التام بالعلم الصحيح، ومتطلبات القيام بالاحتساب.
- الانحرافات الفكرية المعاصرة التي يعاني منها المجتمعات الإسلامية تتزايد كل وقت وحين، فكم من بدعة تولد عنها بدع كثيرة، وكم من زيغ وضلال فكري توارثته التيارات والطوائف المنتسبة إلى الإسلام وغيرها، غير أنه مجرد زبد سوف يذهب جفاء إذا قام المحتسبون الجادون في المجال لمقاومته على الوجه المطلوب

قائمة المصادروالمراجع

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **الحسبة في الإسلام**، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.
ابن سيده، علي بن إسماعيل، المخصص، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى.
ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الطرق الحكمية، مكتبة دار البيان، بدون تاريخ

ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، **جمهرة اللغة**، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الأولى، 1987م

ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي، **خلاصة البدر المنير**، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، 1410هـ-1989م

البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، الجامع الصحيح، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، 1422هـ

الجرجاني، علي بن محمد بن علي، **التعريفات**، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى 1403هـ-1983

الجوهري، إسماعيل بن حماد، **الصحاح**، دار العلم للملايين، بيرون لبنان، الطبعة الرابعة1407

داغي، علي القرة، **أسباب الانحراف الفكري وعلاجه الشامل في الإسلام**، موقع "على بصيرة" تم نشره بتاريخ 11/ ربيع الأول، 1438

الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي، **التبصرة في أصول الفقه**، بتحقيق: د. محمد حسن هيتو، دار الفكر – دمشق، الطبعة: الأولى، 1403

الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي، اللمع في أصول الفقه، دار الكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الثانية 2003 م - 1424 هـ

الشاطبي، أبو إسحاق، **الموافقات**، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة: الأولى، عام1425

د. فاطمة بنت سعود بن سعد الكحيلي، بجامعة طيبة قسم الدراسات الإسلامية بعنوان: **أسس الاحتساب الشرعي والقانوني على الانحراف الفكري وتطبيقاته المعاصرة**، والذي تم نشره في مجلة الدراسات الدعوية بتاريخ2018

المزي، يوسف بن الزكي أبو الحجاج، **تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف**، المكتب الإسلامي، والدار القيّمة، الطبعة: الثانية: 1403هـ، 1983م

محمد يسري إبراهيم، **الاحتساب على الغلو المعاصر**، تم نشر ملخص مضمونه على موقع على بصيرة بتاريخ ذو الحجة 1439/ 25 هجرية.

القشيري، مسلم بن الحجاج، **الصحيح**، دار إحياء التراث العربي، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

المتقي الهندي علاء الدين علي بن حسام الدين، **كنز العمال**،مؤسسة الرسالة، الطبعة: الطبعة الخامسة، 1401هـ

النعيمي، عمر أبو المجد حسين قاسم، **الانحراف الفكري المفهوم والبدايات**، تم نشر الكتاب بواسطة:https://bfda.journals.ekb.eg

الهوامش:

(1) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **الحسبة في الاسلام**، دار الكتب العلمية، ص11

(2) ابن سيده، علي بن إسماعيل، المخصص، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 1417هـ 1996م، ج4/ ص54

(3) ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الطرق الحكمية، مكتبة دار البيان، ص201

(4) الجوهري، إسماعيل بن حماد، **الصحاح**، دار العلم للملايين، بيرون لبنان، الطبعة الرابعة1407، ج3/ ص903

(5) الشاطبي، أبو إسحاق، **الموافقات**، ج2/ 62

(6) ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، **جمهرة اللغة**، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الأولى، 1987م، ج1/ ص517.

(7) النعيمي، عمر أبو المجد حسين قاسم، **الانحراف الفكري المفهوم والبدايات**، ص70

(8) داغي، علي القرة، **أسباب الانحراف الفكري وعلاجه الشامل في الاسلام**، موقع "على بصيرة" تم نشره بتاريخ 11/ ربيع الأول، 1438

(9) الجرجاني، علي بن عبد العزيز، **التعريفات**، ص168

(10) استفاد الباحث كثيرا عن هذه الأسس فيما كتبته الكاتبة الفاضلة د. فاطمة بنت سعود بن سعد الكحيلي، بجامعة طيبة قسم الدراسات الإسلامية بعنوان: **أسس الاحتساب الشرعي والقانوني على الانحراف الفكري وتطبيقاته المعاصرة**، والذي تم نشره في مجلة الدراسات الدعوية بتاريخ2018

(11) الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي، **التبصرة في أصول الفقه**، بتحقيق: د. محمد حسن هيتو، دار الفكر – دمشق، الطبعة: الأولى، 1403، ص349.

(12) الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي، اللمع في أصول الفقه، دار الكتب العلمية
الطبعة: الطبعة الثانية 2003 م - 1424 هـ، ص87.

(13) أخرجه الترمذي في الفتن (9: 1) عن قتيبة بإسناد الذي قبله: و (9: 2) عن عليّ بن حجر المروزيّ , عن إسماعيل بن جعفر , عن عمرو نحوه , وقال: حسن. (تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف للمزي ج3/ ص46

(14) أراد الباحث هنا الإشارة إلى ما ورد في قول الله تعالى من ذم اليهود التاركين لإقامة شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79)

(15) **الاحتساب على الغلو المعاصر**، ص137

(16) رواه مسلم في صحيحه من حديث عائشة ﷺ باب نقض الكعبة وبنائها.

(17) ثبت في الصحيحين عن جابر ﷺ، يقول: غزونا مع النبي ﷺ، وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا، وكان من المهاجرين رجل لعاب، فكسع أنصاريا، فغضب الأنصاري غضبا شديدا حتى تداعوا، وقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فخرج النبي ﷺ، فقال: " ما بال دعوى أهل الجاهلية؟ ثم قال: ما شأنهم " فأخبر بكسعة المهاجري الأنصاري، قال: فقال النبي ﷺ: «دعوها فإنها خبيثة» وقال عبد الله بن أبي ابن سلول: أقد تداعوا علينا، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل [ص:184]، فقال عمر: ألا نقتل يا رسول الله هذا الخبيث؟ لعبد الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه» أخرجه البخاري في باب ما ينهى من دعوى الجاهلية. وأخرجه مسلم برقم 2584 من حديث زهير بن معاوية عن أبي الزبير عن جابر به.

(18) يرويه البخاري في عدة مواضع من صحيحه منها المواضع الثلاثة التالية: عن شيخه الحميدي عبد الله بن الزبير قال حدثنا سفيان قال حدثنا يحيى بن سعيد الأنصاري قال أخبرني محمد بن إبراهيم التيمي أنه سمع علقمة بن وقاص الليثي

يقول سمعت عمر بن الخطاب ﷺ. (باب بدء الوحي)، وعن شيخه قتيبة بن سعيد، حدثنا عبد الوهاب، قال: سمعت يحيى بن سعيد به (باب النية في الأيمان) وعن شيخه أبي النعمان، حدثنا حماد بن زيد، عن يحيى بن سعيد به (باب في ترك الحيل، وأن لكل امرئ ما نوى في الأيمان وغيرها.

(19) أشار إليه الرافعي. وقد رواه مالك عن عمرو بن يحيى المازني مرسلًا. ورواه ابن ماجه مسندًا من رواية ابن عباس، وعبادة بن الصامت، والطبراني من رواية ثعلبة بن أبي مالك. والحاكم من رواية أبي سعيد الخدري. وقال: صحيح على شرط مسلم. وقال ابن الصلاح: حسن. قال أبو داود: وهو أحد الأحاديث التي يدور عليها الفقه، وصححه إمامنا في حرملة، وقال البيهقي: تفرد به عثمان بن محمد عن الدراوردي.

قلت: لا بل تابعه عليه عبد الملك بن معاذ النصيبي، فرواه عن الدراوردي، كما أفاده ابن عبد البر في مرشده "تمهيده" واستذكاره، وأما ابن حزم فخالف في محلاه فقال: هذا خبر لم يصح قط (، ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي، **خلاصة البدر المنير**، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، 1410هـ-1989م، ج2/ ص438)

(20) ثبت عند أحمد في مسنده وصحيح مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعا: من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.(كنز العمال للمتقي الهندي علاء الدين علي بن حسام الدين،مؤسسة الرسالة، الطبعة: الطبعة الخامسة، 1401هـ/1981م، ج3/ ص66

مملكة غانا الإسلاميّة: بدايةٌ ونهايةٌ

محمّد الثّاني عُمر مُوسى
الأستاذ المشارك في قسم الشريعة والدراسات الإسلامية،
مدير مركز الحضارة الإسلامية وحوار الأديان، جامعة بايرو كانو

بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل:

شَكَّلَت المَمَالِكُ الإسلاميَّة في غرب إفريقيا نُقلةً كبيرةً من مُتخلَّفات الوثنيَّة الإفريقيَّة إلى حَضارةٍ إسلاميَّةٍ زاهرةٍ، وصَعِدتِ البلادُ إلى معارج العلمِ والمعرفة والتَّقُّدم، سَاعدها على ذلك طبيعةُ موقِعها الجُغرافيّ، وبسالةُ أهلِها وإصرارُهم، وسياسةٌ اتَّسمت بالحِنكة والقوّة.

وأقدم هذه الممالك هي مملكة غانا التي يعد تاريخها أُولى حلقات التّاريخ القومي لغربي إفريقيا. وهذه إطلالةٌ قصيرة على هذه الدّولة التي قام على أنقاضها دولةٌ إسلاميّة تسمَّت باسمها، وحَكمها الإسلام بشريعته وقوانينه وأحكامه، فكانت البذرةَ الأولى لقيام ممالك إسلامية على غرارها انتشر منها الإسلامُ في ربوع بلاد إفريقيا أجمع.

نشأة دولة غانا الوثنيّة:

اشتهرت مملكةُ غانا بهذا الاسم نسبة إلى عاصمتها مدينة (غانا) (Ghana) أو (غاناتا) (Ghanata).

والرّاجح: أنّ كلمة (غانا) كانت أصلًا لقبًا يُلقب به ملوكُ هذه المملكة، ثمّ استُعمل مدلولُ اللَّفظ حتَّى صار عَلمًا على العاصمة وعلى المملكة[(1)].

وموقع مدينة (غانا) القديمة موضعَ نقاشٍ وجَدل، ولكنَّ أطلالَها تَقع اليومَ بالقُرب من الحدود الجُنوبيَّة لجمهورية مُوريتانيا الحديثة، وتَقعُ ضِمْنَ أراضي جمهوريَّة مالي الحديثة[(2)].

وأهمّ القبائل الَّتي كانت هي أغلبُ سكَّان مملكة غانا في العُصور الوُسطى هِي قبائِلُ (السُونِنْكي) (Soninke)، وقد امتزجُوا بالبربر والفولانيّين، وهم زُرَّاعٌ مرتبطون بالأرض.

ومن الأسماء التي كانت تطلق عليهم عند الفلانيّين والهوسا والسنغاي: ونغارا أو ونغاروا (Wangara, Wangarwa)[(3)].

وامتلكت مملكةُ غانا ثَرواتٍ طبيعيَّةً ساعدتْها على البقاء والتمدُّد، كالذَّهب والملح، ثمّ موقعُها الاستراتيجي الواقعُ على أهمّ الطُّرق التِّجاريَّة، فكانت القوافلُ تَصل إليها من مصرَ والقَيْروان وأَعالي نَهْرَي السِّنغال والنَّيجر، إضافةً إلى نشاطها الزِّراعي وإيرادات الضَّرائب، فانتعشَ اقتصادُها وازدهرتْ، وَتَوسَّعت أملاكُها وتوزَّعت على عدّة ولاياتٍ وإماراتٍ بين أعالي نَهْرَي السِّنغال والنَّيجر[(4)].

سقوط غانا الوثنيّة وقيام غانا الإسلاميَّة:

حاربتْ قبائلُ الملَثَّمين بقيادة قبلية لَمْتُونَة مَلِكَ غانا الوثنيَّة في جيشه في عام 380هـ، (990م)، وَانهزم جَيشُ غَانا، وكان النّصر للمُسلمين، وتولَّى قيادَة المسلمين رجلٌ من قبيلة جَدَالة، وهو يحيى بن إبراهيم الّذي استطاع أن يُوحِّد الملَثَّمين تحتَ قيادةٍ واحدة.

كان هؤلاء الملَثَّمون لا يعرفون من الإسلام إلّا اسمَه، وقد تَغلْغت فيهم عاداتٌ وتقاليدُ وثنيَّة شركيَّة، فَعَمِلَ القائدُ يحيى بن إبراهيم على تخلِيصهم من تِلك العادات، وسَاعده على ذلك الفقيهُ المالكي ابنُ عمران الفاسي الّذي التقاه في رحلته للحجّ بالقَيْروان، وطلب منه أن يُنفِذ معه أحدَ تلاميذه إلى قبائل الملثَّمين للدَّعوة والتَّعليم، ووقع الاختيارُ على الفقيه عبد الله بن ياسين الّذي كانت له معرفةٌ تامَّةٌ بتلك القبائل واللَّهجات البربريَّة وعاداتِهم، فكان نِعْم العَوْنُ والنَّصِير.

أكثر الفقيهُ عبدُ الله بن ياسين من الدَّعوة والتّعليم في تلك القبائل، وجعلَ لهم حلقاتِ دروسٍ وتربية، مما بدأت آثارُها تَظهر بين النّاس. وكان نهجُه في حَمل النَّاس عَلى الالتزام بالدِّين وتعاليمه نهجًا صارمًا لا هوادة فيه، مما جَعل بعضَ القادة الملثَّمين يَنزعجون من سلوكه، ويخافون على أنفسهم أن تُسَدَّ عنها منافذُ الشَّهوات والملذَّات الّتي اعتادوها في حياتهم، فحملوا على ابن ياسين والأمير يحيى بن إبراهيم حملةً نَكراء، ألجأتهما وأتباعَهما إلى الخُروج من المنطقة، واتَّجهوا نحوَ الجُنوب، حيثُ استقرُّوا بِرَبْوةٍ في جزيرةٍ تقع على مصبِّ نَهر السِّنغال، وتحوَّلت هذه المنطقة أخيرًا إلى مركز رباط للعبادة والعلم والجهاد، وسار النَّاس يتيمَّمون إليها قاصدين التحَاقَ بركبِ الفقيه عبد الله بن ياسين.

وبعدَ مرور عشر سنوات تجمَّع لدى ابن ياسين عددٌ كبير من الرِّجال وصلوا إلى ثلاثة آلاف رجل ملتزم بتعاليمه وشروطه، ومن ثمّ شَعَر بالقُدرة على الجهاد في سبيل الله، وتطهير المجتمع من الفساد، فقال لهم: «اخرُجُوا على بركة الله، وانذرُوا قومكم، وخوِّفوهم عقابَ الله، وأَبلغوهم حجَّته، فإن تابوا ورجعوا إلى الحقِّ، وأَقلعوا عمَّا هم عليه؛ فخلُّوا سبيلهم، وإن أبوا من ذلك وتمادَوا في غيِّهم، ولَجُّوا في طغيانهم، استعنَّا بالله تعالى عليهم، وجاهدناهم حتَّى يحكمَ الله بيننا وهو خيرُ الحاكمين»[(5)].

وتوَّجه عبد الله بن ياسين نحو الشَّرق، فهاجم مملكةَ غانا، وفتح مدينة أُودغُست عام 448هـ، (1056م) وافتتحها، وانطلقت بعد ذلك دعوةُ الإسلام في صفوف الوثنيّين.

لقد قاد أبو بكر بن عُمر أميرُ الملثَّمين خليفةُ يحيى بن عمر مهمَّة نشر الإسلام بين الوثنيّين، فدخل النَّاس في دين الله أفواجًا، وبخاصَّة في منطقة نهر السِّنغال حيث تحوَّل كثيرٌ من شعب الفولاني إلى الإسلام عام 469هـ (1076م).

يقول الحافظ ابن كثير عن هذا القائد وجهوده[(6)]: «أبو بكر بن عُمر أمير الملثَّمين كان في أرض فَرْغَانة اتَّفق له من النَّاموس ما لم يتَّفق لغيره من الملوك، كان يركب معه إذا سار لقتال عَدوٍّ خمسُمائة ألف مقاتل، كلٌّ يعتقد طاعتَه، وكان يُقيم الحدودَ ويحفظ محارمَ الإسلام، ويسير في النَّاس سيرةً شرعيَّةً مع صحَّة معتقَدِه وموالاة الدَّولة العبَّاسيَّة».

لكن الجدير بالذّكر أنَّ الإسلام في السُّودان الغربي والأوسط قديمٌ، ولم يكنِ المرابطون الذين قاموا بنشر الدّعوة الإسلاميّة في القرن الحادي عشر الميلاديّ، هم الّذين أدخلوا الإسلام في تلك البلاد لأوَّل مرّة، بل إنَّ حركتَهم أدَّت إلى ازدياد عدد الدَّاخلين في الإسلام.

فالصّلة التّجاريّة والثّقافية قائمةٌ منذ الأزمنة السّحيقة، بين بلاد السُّودان وبلاد البحر المتوسّط، وقد كثرت هجرةُ المسلمين بعد ظهور الإسلام، من العَرب والبربر إلى بلاد السُّودان، منذ الفتح العربيّ الإسلاميّ لمصرَ وشمالَيْ إفريقيا[(7)].

ومن الظَّواهر البارزة في تاريخ مملكة غانا، حتَّى في عهد الحكومة الوثنيَّة، أنّ المسلمين؛ لكَثرتهم وأهميَّتهم وثقافتهم ونَشاطهم سواءٌ أكانوا من السُّونِنْكي أو مِن المستوطنين من العرَب والبربر، قد تمتَّعوا باحترامٍ واضحٍ من قِبَلِ الملوك الوثنيّين، ومجرّد نُموّ القسم الإسلاميّ في العاصمة، ووجُود اثني عشرَ مسجدًا بها، دليلٌ كبيرٌ على هذا الاحترام وهذا التَّسامح، وأكبر من هذا أنَّ المِلك الوثنيّ قد بَنَى مسجدًا في الحيّ الوثني من العاصمة، وهو (الغابة)، لكي يُؤدّي فيه المسلمون الوافدون شعائرَ دينهم، كما يذكر البَكري في تاريخه[(8)].

وفي عام (469هـ/1076م) سَقطت مدينةُ (كومبي صالح) عاصمةُ غانا، وضمَّها المرابطون إلى أراضيهم قَبل أن يُسلم تَانْكَامِنين مِلك غانا، ثمَّ ما لبث أن تأثَّر بالإسلام، فأسلم، وقَبِل بسُلطان المرابطين. وفتح إسلامُ مِلك غانا البابَ واسعًا لإسلام رعيّته، وتحولت مملكةُ غانا من الوثنيّة للإسلام، وأضحت جزءًا من دولة المرابطين الإسلاميّة.

وتُوفي أبو بكر في عام 480هـ/960م، بعد مسيرة حافلةٍ بإنجازات ونجاحاتٍ، فتنازع أتباعه بعده، ودبَّ فيهم الوهنُ والضّعف، فاستغل ذلك الغانيُّون الفرصة فسيطروا على عاصمتهم، وأعلنوا تبعيَّتَهم للخلفية العبَّاسي في بغداد مباشرةً، مع صحّة إسلامهم وتفانِيهم في الدَّعوة إلى الله، حتى اقترن اسم (سُونِنكي) بالدّعوة إلى الله عند بقية القبائل الإفريقيّة، وارتفعَ العُمران الإسلاميّ والمآذن، وانتشرت المساجدُ ومدارسُ تعليم القرآن، وأصبحت اللّغة العربيّة لغةً للعبادة والثَّقافة والتِّجارة.

ثمّ كانت نهايةُ دولة غانا الإسلاميّة على يد فَريقٍ من قبائل الصُّوصو الَّذين كانوا يَسكنون جنوبي مملكة غانا غَربي الحوض الأدنى للنَّيجر، وقد خضع بقيّتهم لملوك غانا المسلمين، حتى إذا تفرَّق أمرُهم وضعفتْ مملكتُهم أعلنوا استقلالهم، وانفصلوا عن دولة غانا، ثم هاجموها بَادئين بغزوِ إقليم (دَابَارَا) المجاور لهم، وكان جزءًا من دولة غانا، ولما لم يُصادفوا ردَّ فعلٍ قويًّا من ناحية

ملوك غانا قام أحدُ رؤساءِ الصُوصو يدعى (صُومانغورو) بالتّقدم شمالًا، واستولى على مدينة (غانا) عاصمة الدَّولة سنة 600هـ (1203م) وقضى على الدّولة، وهرب فريقٌ من سكان غانا عاصمة الدّولة بقيادة زعيم لهم يسمَّى الشَّيخ إسماعيل إلى مدينة وَلاتة نحو الشّمال، وأنشأ مركزًا تجاريًّا كبيرًا أصبح بعد ذلك من أعظم مراكز التّجارة في إفريقيا الغربيّة الإسلاميّة.

تمكن (صومانغورو) من الاستيلاء بعد ذلك على كلّ بلاد دولة غانا، ثمّ اصطدم في الجنوب برجال دولة إسلاميَّة صغيرةٍ كانت إذْ ذاك ناشئةً في (كانغابا)، وأصحابُها من قبائل (الماندينغو)، فانتصر عليهم، وقَتل ولدين من أولاد ملكهم (ناريه نمغان).

أمّا أصغر الأولاد (وهو الابن الثّاني عشر للملك ناريه نمغان) فقد أعفاه من القتل؛ لأنّه وجده ضعيفًا مريضًا، وبهذا نجا من الموت، وأصبح مؤسِّسَ مملكة مالي المشهور في التّاريخ باسم (ماري جاطة)، أي: ولد الأسد. وقد هرب إلى الجنوب، وكان ذلك فيما بين سنة 615هـ (1218م) و 629هـ (1230م). وفي منفاه البعيد أخذ (ماري جاطة) يجمع الأنصار ويستعدّ للانتقام ممَّن قَضوا على مُلك أبيه، وقد تمكَّن من ذلك سنة 633هـ، 1235م بعد مغامراتٍ ومخاطراتٍ، ثم دخل مدينة غانا وقضى على بقية الصّوصو، ثمّ خرّب بلادهم تمامًا سنة 638هـ (1240م)، وكان (ماري جاطه) مسلمًا، وعلى يديه قامت المملكة الإسلاميّة الإفريقية الثّانية، وهي مملكة مالي[(9)].

الخاتمة:

من هذه الجولة السريعة ندرك أنّ دولة غانا الإسلاميّة هي أوّلُ إمبراطوريّة قامت بالسّودان الغربي، ولعلَّها أوّلُ تجربةٍ أو أقدمُ ما عُرف من تجارب الحكم الوطني النَّاجح بتلك البلاد، وقد دلّ ازدهارها وبقاؤها إلى القرن الثَّالث عشر الميلادي، على قدرة الإفريقيّين على تدبير شؤونهم بأنفسهم، وهذا ما حمل القلَّة من الكُتَّاب الغربيّين المنصفِين على أن تُقرّر بأنَّ حضارةَ هذه البلاد في العصور الوسطى لم تَكن دون حضارةِ البِيض، بل فاقت حضارةَ بعض البلاد الأوروبيَّة[(10)].

وقد بلغت هذه الأمبراطورية ذورةَ مجدِها من حَوالي القرن التّاسع الميلاديّ إلى القرن الحادي عَشر، وحَكمت مساحةً شاسعةً امتدَّت إلى ما هو الآن جُنوبُ شرقِ مُوريتانيا وغربُ مالي وغربُ السِّنغال وشرقُ غِنيايا (كُونَكاري)[(11)].

المصادروالمراجع

حسين مؤنس، **أطلس تاريخ الإسلام**، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط.الثانية، 1428هـ، 2007م. الدالي، الهادي المبروك، **مملكة مالي الإسلامية**، الشركة العامة للورق والطباعة، الزاوية، ط. الثانية، 1999م.

دنـدش، عصـمت عبـد اللطيـف، **دور المـرابطين في نشـر الإسـلام في غـرب إفريقيـا**، دار الغـرب الإسلامي، ط. الأولى، 1408هـ، 1988م.

طرخـان، إبـراهيم علي، **إمبراطوريـة غانـه الإسـلامية**، الهيئـة المصـرية العامـة للتـأليف والنشـر، (1970).

ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **البداية والنهاية**، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، دار هجر، ط. الأولى، 1418هـ، 1997م.

الهوامش:

((1)) طرخان، المصدر السابق (ص16).

((2)) انظر: طرخان، المصدر السابق (ص33).

((3)) انظر: طرخان، المصدر السابق (ص18، 19، 20).

((4)) انظر: طرخان، المصدر السابق (ص25).

((5)) دندش، عصمت عبد اللطيف، **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا**، دار الغرب الإسلامي، ط. الأولى، 1408هـ، 1988م، (ص75-76).

((6)) ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **البداية والنهاية**، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، دار هجر، ط. الأولى، 1418هـ، 1997م، (111/16).

((7)) طرخان، إبراهيم علي، **إمبراطورية غانة الإسلامية**، (ص41).

((8)) انظر: طرخان، المصدر السابق (ص45)، والدالي،الهادي المبروك، **مملكة مالي الإسلامية**، الشركة العامة للورق والطباعة، الزاوية، ط. الثانية، 1999م، (ص17).

((9)) حسين مؤنس، **أطلس تاريخ الإسلام**، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط.الثانية، 1428هـ، 2007م، (ص372).

((10)) طرخان، إبراهيم علي، **إمبراطورية غانه الإسلامية**، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، (1970)، (ص13).

((11)) انظر: طرخان، المصدر السابق (ص30).

عناصر فهرسة المخطوطات العربية ومناهجها
ELEMENTS AND METHODS OF ARABIC MANUSCRIPTS CATALOGUING

إعداد:
عمر شيتو حسن
08036435299umarshitu@yahoo.com

الملخص:

إن قضايا المخطوطات من أحوج القضايا إلى الدراسة والتأمل والبحث، لأنها تمثل الأمة والإسلامية والعربية جمعاء، فبها دونوا جميع علومهم بأساليب مختلفة شعرا ونثرا، وفي مجالات متباينة دينا وثقافة، في العقيدة والفلسفة والتفسير والأدب واللغة والسياسة والهندسة والطب، وغير ذلك من العلوم. ومن البديهي أن الفضل يعود إلى هؤلاء العلماء الذين بفضلهم وجهودهم أنارت خزائن كتب العربية بتراثٍ قَلّما تجده في شعوب أخرى غير العرب، وانفاضت تلك الجهود إلى بعض بلدان غير عربية والتي التبست اللباس العربي علما وثقافة، فأصبح المخطوط العربي صيدا سمينا يبتغيه كل الصياد في مجال المعرفة والثقافة. إن هدف الباحث في هذه الوريقات هو إلقاء الضوء عن عناصر فهرسة المخطوطات، بالنظر إلى ما تحتويه مكتباتنا من المخطوطات في بعض مراكز العامة والخاصة، وفي الجامعات وغيرها، التي لا زالت في ظلامها الدامس غير بعض الأعمال المشكورة التي قدمت. ومع ذلك فلا ظلنا بحاجة إلى الإيقاظ والإقبال لفهرسة ما لدينا من المخطوطات، فأقول بكل الثقة إن هذا الموضوع سيساعد أيما المساعدة لمن كان له باع في مجال المخطوطات والمبتدئين جميعا، وسيفتح الطريق للطلاب والباحثين ليقتحموا على تحقيق تراثنا الإسلامي والعربي المخزون بكثير من المراكز والمكتبات، والله أسأل أن يكون عونا في هذه المسيرة، فهو المعين والموفق.

خطة البحث:

لقد قسم الباحث هذا البحث إلي مقدمة وموضوع وخاتمة على النحو التالي:

- المقدمة
- خطة البحث
- الموضوع ويحتوي على:
  - عناصر فهرسة المخطوطات
  - عنوان المخطوطة
  - اسم المؤلف

- فاتحة المخطوطة
- خاتمة المخطوطة
- أجزاء المخطوطة وعدد أوراقها والمسطرة والمقياس لصفحاتها
- نوع الخط وألوان الحبر
- اسم الناسخ وتاريخ النسخ
- الغلاف (الجلد)
- مصدر المخطوطة

❖ الخاتمة وتحتها

- ملاحظات عامة
- مصادر عن المؤلف وعن المخطوطة
- التوصيات
- مصطلحات فهرسة المخطوطات
- الخاتمة
- نتائج البحث
- ثبت المصادر

المقدمة

تعد قضية المخطوطات من أحوج القضايا إلى الدراسة والتأمل والبحث، لأنها تمثل الأمة والإسلامية والعربية جمعاء، فبها دونوا جميع علومهم بأساليب مختلفة شعرا ونثرا، وفي مجالات متباينة دينا وثقافة، في العقيدة والفلسفة والتفسير والأدب واللغة والسياسة والهندسة والطب، وغير ذلك من العلوم.

ومن البديهي أن الفضل يعود إلى هؤلاء العلماء الذين بفضلهم وجهودهم أنارت خزائن كتب العربية بتراث قلما تجده في شعوب أخرى غير العرب، وانفاضت تلك الجهود إلى بعض بلدان غير عربية والتي التبست اللباس العربي علما وثقافة، فأصبح المخطوط العربي صيدا سمينا يبتغيه كل الصياد في مجال المعرفة والثقافة، وعكف المحققون يعملون ليلا ونهارا لتحقيق تلك الجهود وإخراجها لعصرنا الحاضر على نهج يسهل فهمه كما يريده مؤلّفُه أو أقرب، وأنشأ بعض المعاهد والمؤسسات والمراكز الخاصة والعامة كمعهد المخطوطات بالقاهرة، ومؤسسة الفرقان بلندن، ومركز جمعة الماجد بالعمارات العربية، وأقامت بترصيد عناصر فهرسة المخطوطات ومناهجها لتسهّل للباحث حصول على بغيته في أيسر ما يمكن، ووضعوا المناهج والضوابط للتحقيق

ليجتمع الباحثون على نهج واحد وفريد، وتدريب الطلاب ودعمهم حتى يتمكنوا أن يخرج هذه المخطوطات من ظلامها إلى عالم النور.

إن هدف الباحث في هذه الوريقات هو إلقاء الضوء عن عناصر فهرسة المخطوطات، فبالنظر إلى ما تحتويه مكتباتنا من المخطوطات في بعض مراكز العامة والخاصة، وفي الجامعات وغيرها، التي لا زالت في ظلامها الدامس غير بعض الأعمال المشكورة التي قدمت. ومع ذلك فلا ظلنا بحاجة إلى الإيقاظ والإقبال لفهرسة ما لدينا من المخطوطات، فأقول بكل الثقة إن هذا الموضوع سيساعد أيما المساعدة لمن كان له باع في مجال المخطوطات والمبتدئين جميعا، وسيفتح الطريق لطلاب الجمعات فيقتحمون على تحقيق تراثنا الإسلامي والعربي المخزون بكثير من المراكز، والله أسأل أن يكون عونا في هذه المسير، فهو المعين والموفق.

عناصر فهرسة المخطوطات

عناصر الفهرسة هي تلك النقاط التي يعكف عليها المفهرس لإبراز المخطوطة لدى الباحث، وتعتبر كنبراس الذي يهتدي بها الباجث إلى تقويم نسخ المخطوطة وفروقها، "وبدون فهرسة المخطوطات، وتصنيفها، وطبع هذه الفهارس ونشرها، تظل المخطوطات في المكتبات العامة والخاصة سرا لا يسطاع معرفتها أو الوصول إليها إلا بطريق الصدفة أو الحظ[1]"، ومن خلال العناصر يُدرَى ما إذا كانت المخطوطة هي الأم أي بخط المؤلف أو على الأقل أهي أقدم النسخة المتواجدة أم لا حتى يستأنس الباحث بها كل الاستعناس.

العناصر التي يستخدمها المفهرس تأتي وفق منهج الذي يريد المفهرسُ بناء فهرسته، إن كان الغرض هو ذكر القوائم فقط ذكرها ولا يتعمق في التفاصيل من ذكر أول المخطوطة وآخرها وما يتعلق بملاحظات التي عليها من وتملكات ومقابلات وغيرها، وإن كان المراد هو البسط والإطالة شرع في ذلك بشرح القوائم وتحليلها، كذلك إن عني بمنهجه التوسط، وقف بين المنهجين بالبسط في بعض القوائم والاختصار في البعض[2]، فالمستويات الثلاثة هي مستويات التي جائت فهرسة المحترفين من المفهرسين وفقها[3]، وعند الكلام عن فهرسة المخطوطات فالأذهان تهوم إلى "إنجاز المادة الأساسية عن المخطوطة: اسمها (عنوانها) ومؤلفها وسنة وفاته، وأولها وآخرها...[4]" وعناصر المتفقة بين المستويات الثلاثة هي:

عنوان المخطوطة، إسم المؤلف، نوع الخط، تاريخ النسخ، إسم الناسخ، عدد الأوراق، عدد السطور أو المسطرة، مقياس الورق طولا وعرضا، الخزينة أو المكتبة المحتفظ بالمخطوطة وبيانات الحفظ لها.

فما سبق هو أقل ما يمكن ذكره من العناصر بالاختلاف مناهج الفهرسة، فلا يستغني المفهرس بأي واحدة من تلك العناصر. وجملة عناصر المعتادة في فهرسة المخططات هي:

(1) عنوان المخطوطة
(2) إسم المؤلف
(3) أول المخطوطة
(4) آخر المخطوطة
(5) عدد أجزاء المخطوطة
(6) نوع الخط وألوانه إن كان ملونا
(7) إسم الناسخ وتاريخ النسخ
(8) نوع الغلاف
(9) مصدر المخطوطة
(10) ملاحظة عامة
(11) المصادر والمراجع التي ترجمة عن المؤلف والكتاب ونسبة الكتاب إليه

وإليكم بيان كل عنصر من العناصر السابقة بمفرده حتى تكون الفكرة أوضح:

أولا: عنوان المخطوطة

عنوان المخطوطة هو اسمها المنصوص على الغلاف إن وجد، أو بداخل نص المخطوطة إذا كانت المخطوطة متلوفة الغلاف، وغالبا يذكر المولف اسم كتابه بالمقدمة أو في الخاتمة، وهي عادة كثير من المؤلفين والنساخ، كأن يقول في آخرها مثلا "تم كتاب كذا..... أو أُنجز كتاب كذا[5].

فعلى المفهرس قراءة المقدمة والخاتمة لتأكد من صحة العنوان المنصوص على المخطوطة أو للتعرف عن العنوان إذا لم يوضع على الغلاف أو تُلِف، وكذلك الأمر في قراءة الخاتمة، ويجب الرجوع إلى المصادر التي تساعده عن التحقيق في صحة العنوان ونسبته إلى صاحبه، ككتاب كشف الظنون – لحاجي خليفة وذيوله، وفهرسة النديم، وهدية العارفين، وكذلك كتب التراجم والطبقات العامة، فإن وجد الخلاف بين العنوان المنصوص والذي في التراجم، كأن يكون بزيادة حرف أو نقص فيجب على المفهرس إشارة إلى ذلك في حقل الملاحظات[6]، ويرى البعض استحسان إيراده كما هو منصوص على الغلاف[7]. أما إذا كان العنوان غير الذي على الغلاف فيثبت الذي على الغلاف ويشير إلى أن الكتاب له اسم آخر غير الذي على الغلاف في حقل الملاحظات[8]. وقد تشتهر المخطوطة بعنوان غير عنوانها الأصلي فيجب الإحالة إلى العنوان الأصلي[9].

وقد تصادف بأكثر من عنوان واحد بالمخطوطة كأن يكون في غلافها عنوان وفي مقدمتها عنوان مغاير الذي بالغلاف، أو بخاتمتها عنوان غير الذي بالمقدمة أو الغلاف، فعند حصول ذلك يرجح عنوان الذي بالمقدمة عن الذي بالغلاف، لأن الذي بالغلاف قد يكون واضعه من قام بتغليف الكتاب أو شخص آخر جهلا، وإن كان بالخاتمة قد يرجع ذلك إلى خطع النساخ.

ثانيا: اسم المؤلف

يذكر المفهرس اسم المؤلف كاملا كما هو مكتوب على المخطوطة، ويؤكد من صحة الاسم بالرجوع إلى الكتب التراجم والطبقات كوفيات الأعيات لإبن خلكان، والأعلام لزركلي، والكتب المتقدمة التي ذكرتها في عنصر الأول. وفي الأغلب يُكتب اسم المؤلف بالمخطوطة في أماكن منها:

- الغلاف مع العنوان.
- المقدمة، كأن يقول مثلا: أما بعد... فيقول العبد الفقير إلى الله فلان...[10]
- الخاتمة، كأن يقول المؤلف أو الناسخ: هذا آجر ما كتبه فلان بالقرافة يوم

من المؤلفين من اشتهر اسمائهم أكثر من ألقابهم وكناهم، ومنهم من اشتهرت كناهم أكثر من أساميهم وألقابهم، ومنهم من ذاعت ألقابهم أكثر من أساميهم وألقابهم، فيجب على المفهرس أن يكون بدراية كاملة على ذلك فيذكر اسمه كاملا بكنيته ولقبه وشهرته بعد التأكد من المصادر الموثوق عليها، يذكر الاسم مبدوعا بالكنية ثم اللقب ثم اسمه كاملا وإن كان له شهرة ذكرها أيضا في الآخر، ويضع سنة وفاته إن أمكن ذلك، فيذكرها تحت الإسم بين القوسين[11]

ثالثا: فاتحة المخطوطة

إن الغرض الأساسي في ذكر فاتحة المخطوطة على الفهرسة هو التأكد من النسخة المعنية بتلك المخطوطة لأنه قد يكون لدى المكتبة نسخ أخرى مختلفة لتلك النسخة من المخطوطة فتميزها عن غيرها من النسخ، لذلك يجب للمفهرس أن لا يذكر من فاتحة المخطوطة إلا ما يكون بذكره فائدة، ولا يذكر أي شيئ رآه بالمقدمة كالحمدلة العادية التي يتداولها كثير من المؤلفين، والبسملة، وصلاة على النبي إلا ما جاء على صيغة نادرة الذكر بين المؤلفين، لأن "المقصد منه معرفة الجمل الأولى من المخطوطة، مستبعدين ما يتكرر في كل مخطوطة تقريبا كالبسملة والحمدلة[12]" فيختار من نص المقدمة ما يميز المخطوطة عن غيرها من النسخ.

وإذا كان في فاتحة المخطوطة ما يؤكد نسبتها لصاحبها ذكره في هذه النقطة، أو ما يدل على اسمها، أو الغرض في تأليف الكتاب وغيرها من المعلومات التي تفيد الباحث، فكل هذا هو المهتم في ذكر فاتحة المخطوطة عند الفهرسة.

رابعا: خاتمة المخطوطة

نهاية المخطوطة تعد من الأماكن التي تُرسم تحتها معلوماتٌ مهمةٌ متعلقةٌ بالمخطوطة، فهي من المرتكزات لدى المفهرس، يقتطف منهم ما هو جدير بأن يرصد في فهرسته، وهو بالتحديد حرد المتن (Colophon) وما فوقه من الأسطر، وكلمة حرد المتن: "في اللغة حياطة الحظيرة التي تشد على الحائط من القصب عرضا، كأنّ حرد المتن بمثابة حزام واق جعل في آخر النص ليحميه ويشعر

بنهايته[13]" فعلى المفهرس ذكر جملة المعلومات المتعلقة بالكتاب التي ذكرها المؤلف والتي تسبق تارخ النسخ، واسم الناسخ، ويُنصح بأن لا يكتفي بذلك فقط بل يذكر كل ما يفيد الباحث ذكره بالخاتمة كالإشعار بأن الكتاب قد تم[14]، لأنه قد تجد بالخاتمة فواعد يحتاجها الباحث مثل؛ تاريخ التأليف للكتاب، ومكانه، وبيان نهاية الجزء إن كان له أجزاء، وبيان ما يليه من الأجزاء.

خامسا: أجزاء المخطوطة وعدد أوراقها والمسطرة والمقياس لصفحاتها

على المفهرس أن يخصص لذكر الأجزاء عنصره الخاص، فيذكر كل الجزء والمعلومات تختص بكل الجزء إن كان المخطوط مجزءا إلى الأجزاء، ويميز بين الأجزاء بذكر أوائل الفصول أو الأبواب التي بفتتح المؤلف بها كل جزء، والأبواب والفصول التي ينتهي بها، ويذكر أيضا عدد أوراق كل جزء سواء أكانت المخطوطة مرقمة أم لا، وعند كونها غير مرقمة فالأفضل ترقيمها إن أمكن ذلك، وورقة المخطوطة عبارة عن صفحتين: (الوجه والظهر) وهي لوحة المخطوطة، فيرقمها حسب اللوحات لا حسب الصفحات[15]، مع أنها مرقمة أصلا بنظام ترقيم التأقيبة، والتأقيبة عبارة عن كلمة توضع في أسفل اليسار من ظهر المخطوطة، وهي الكلمة التي تفتتح بها صفحة التي تليها من الصفحات.

ويذكر أيضا عدد السطور أي المسطرة التي تحتويها صفحات المخطوطة وإن كانت مختلفة قال: "ما بين كذا وكذا"، وإن كثر الاختلاف قال: "مختلف" ويذكر مقياس الصفحات، ونوع الورق إن استطاع ذلك، ولا فائدة من قول مثلا: ورقة رقيق أو ورقة بيضاء سميكة[16].

سادسا: نوع الخط وألوان الحبر

يعد نوع الخط من السمات التي تميز المخطوطة عن غيرها، لذلك أصبح من العناصر التي يعتني بها المفهرس أثناء الفهرسة، فيذكر نوع الخط الذي كتبت به المخطوطة، كأن يقول مثلا: كتب بخط مغربي، أو كتب بخط كوفي غليظ، ولا يجوز اتصاف الخط بمواصفات عامة، مثل قولك: كتب بخط جيد، أو بخط عادي أو بخط معتاد، وله أن يبين ما إذا كان الخط مقروءا أم لا، ويبين كبير الخط من دقيقه، كما يستحسن أن يبين ما إذا كان حجم الخط في العنوان أكبر من الذي في المبنى.

ونوع الخط أيضا من النقاط المهتمة بها في الفهرسة، فألوان الحبر المستخدمة يجب ذكرها عند استخدام المؤلف أو الناسخ أكثر من لون واحد، فيقول مثلا: عنوان الكتاب بخط أحمر والمبنى بخط أسود.

سابعا: اسم الناسخ وتاريخ النسخ

الناسخ في علم المخطوطات هو من قام بنسخ المخطوطة، ومنهم من حرفتهم الأساسية هي النساخة، ومنهم من ينسخ لاستخدامه الذاتي أو ينسخ لغيره وليست النساخة حرفته الرئسية.

فالناسخ عنصر من عناصر الفهرسة التي يجب على المفهرس رصدها في الفهرسة، والوجه المعتبر في الناسخة هو اسم الناسخ كاملا مع ذكر كنيته، ولقبه، وشهرته، إن كان له شهرة، ولا داعي لذكر كلمات التعظيم والتفخيم، ويذكر حياكته وعمله إن كان له عمل يقوم به غير النساخة، كأن يكون قاضيا أو غزالا، وله أن يذكر النص الذي يشير إلى اسم الناسخ وبياناته تماما، لعل ذلك يساعد الباحث في الحصول على ترجمته.

وتاريخ النسخ يجب ذكره في هذا الحقل، فيذكره المفهرس باليوم والشهر والسنة، وقد يكون التاريخ غير منصوص في المخطوطة لأسباب كالخرم فى آخر المخطوطة، والخرم هي إتلاف بعض أوراق المخطوطة، وأحيانا يكون بغير سبب، فيضطر المفهرس إلى ذكر ما بها من السمعات والتملكات أو عبارات الوقف المأرخة ليشعر بأقرب تاريخ نسخها، والتاريخ في المخطوط العربي يكون في الغالب بالتقويم الهجري، وقد يرادف أحيانا بالتقويم الميلادي بوضعه بين القوسين[17]، وإذا استطاع ذكر تاريخ وفات الناسخ مقترنا مع اسمه.

ومؤلفو العرب لهم طرق مختلفة في عداء التأريخ حسب تطورات التي مرت عليها اللغة العربية بأزمانها المختلفة على الصور الآتية:

- **الصورة الأولى:** وهي ذكر التاريخ بالعبارة أو الجملة فالعرب قبل أن يعرفوا الأرقام الهندية والغبارية (العربية) كما يسمونها الغربيون، عرفو هذا الصورة (بالجُمّل) بعني الحبال المجموعة، وهو التاريخ بالحروف الأبجدية دون الأرقام لأنها لم تكن معلومة لديهم، وهي: (أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت، تخد، ضظغ) فالألف إلى الطاء عبارة عن 1 – 9، والتسعة الثانية هي العشرات 10 – 90 وهي الياء إلى الصاد، والتسعة الثالثة هي المئات 100 – 900، وهي القاف إلى الظاد، والحرف الأخير الغين للألف 1000، فإذا قال الناسخ مثلا: "فرغت من نساختها في (ياي) فهذا يعني 21، لأن الياء عددها عشرة والألف عدد لواحد، فتكون الجملة 21.
- **الصورة الثانية:** وهي ما عرفها العرب بعد حساب الجُمّل المعرف آنفا، وهي عبارة عن الرموز المسماة بالأرقام الهندية وهي على هيئة: (1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9، 0)، والأرقام الغبارية العربية وهيئتها: (1, 2, 3, 4, 5, 6, 7, 8, 9, 0) وكان أول اتصالهم بها في القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي، والثابت أن هذه الأرقام عرفت في خلافة أبي جعفر المنصور من خلفاء بني عباس.

- **الصورة الثالثة:** هي التأرخ بالتعمية، أو التأرخ بالكسور كما يسمونه الغربيون، وقد تحتاج إلى التفكر العميق قبل فكها، وأول من وضع هذه الصورة هو العالم التركي بن كمال باشا المتوفى 940هـ|1533م وطريق تأديتها هو أن يقول الكاتب (فرغت منها ... للشهر العاشر من العام الخامس، للعشر التاسع، للمئة الثالثة، من ألف الثاني من الهجرة)، يقصد بذلك (رمضان سنة ألف ومئتان وخمسة وثمانون من الهجرة 1285هـ)[18].

فهذه هي الطرق الثلاثة التي استخدمها مؤلفوا العرب ونساخهم في تأدية التواريخ بمؤلفاتهم.

الثامن: الغلاف (الجلد)

الغلاف له دور هام في الفهرسة وعلم المخطوطات على وجه العموم، فعلى المفهرس ذكر نوع الجلد الذي تحتويه المخطوطة وما به من الزخرفة الفنية، والنقوش التي عليها إن وجدت، وقد يكون على الغلاف شيئ يميز المخطوطة عن غيرها، كالتذهيب وغيره من السمات.

ولجلد المخطوطة شأن مهم من ناحيتين:

- **الأولى:** تحديد عمر المخطوطة أي قدمها إذا لم يكن عليها التاريخ[19].
- **الثانية:** تطوير صناعة التجليد لدى العرب، حسب عصور مختلفة من التاريخ، لأن صناعة التجليد عند العرب مرت بعدة مراحل وتطورات.

تاسعا: مصدر المخطوطة

من أعمال المفهرس ذكر مصدر المخطوطة ليسهل للباحث تعب الحصول عليها، فيذكر اسم المكتبة أو الخزانة التي تتضمن المخطوطة، وقسم تخزينها ورقمها وكل ما يسهل الوصول إليها قدر استطاعة، كأن يقول مثلا:

- شراء من فلان
- هبة من فلان
- أو كان بمكتبة كذا فنقل إلى هذه المكتبة.

عاشرا: ملاحظات عامة

ومن أهم العناصر في فهرسة المخطوطات "ملاحظات عامة"، وهي المعلومات العارضة للمخطوط التي ليست ضمن المخطوطة دعت إليها ظرف من الظروف التي تمرت عليها المخطوطة، وغالبا تكون جديرة بالذكر لأنها تحتوي معلومات مهمة تفيد الباحث في إجراء بحثه، من هذه الملاحظات ما يلي:

(1) التملكات، والسمعات، والإجازات المدونة في المخطزطة.
(2) حالات المخطوطة الحسنة أو السيئة، لأن المخطوطة أحيانا تتعرض بظروف سيئة تمحوا بعض خطوطها أو تتلف بعض من أوراقها كأكل الأرضة، والرطوبة، والبلل.
(3) إخبار ما بالمخطوطة من الخرم (التلف) ويفهم ذلك عن طريق التعقيبة، وهي كلمة في ذيل الصفحة يسرى تقابل أول كلمة في صفحة التي تليها.
(4) إشعار بالمقابلات والتصحيحات على النسخ الأخرى، ويذكر اسم المصحح أو المقابل مع ذكر تاريخ التصيح أو المقابلة وتاريخ وفاياتهما إن أمكن ذلك.
(5) في عنصر ملاحظات يذكر ما إذا كانت المخطوطة نسخة خزائنية أم لا، والنسخة الخزائنية هي النسخة التي كتبت لملك أو سلطان أو خزانة المعرفة، وفي العادة تكون مجودة الخط ومعدلة بإطار متقن، وذات زخاريف وتذهيب في جلدها وأوراقها.
(6) وهذا البند أيضا يعتني فيه المفهرس ما إذا كانت المخطوطة مطبوعة أم لا مع ذكر سنة الطبع والمطبعة والناشر، فيساعد الباحث على نوع الخدمة التي قد يقوم بها على الكتاب.

الحادي عشر: مصادرعن المؤلف وعن المخطوطة

من ضمن الفهرسة أن يذكر المفهرس مصادر التي ترحمت عن المؤلف والتى ترجمت عن الكتاب وخصوصا التي أفادت على نسبة المخطوطة إلى صاحبها، ويكون ذلك بالرجوع إلى كتب التراجم والطبقات، شريطة أن لا يكثر المفهرس ذكر هذه المصادر.

التوصيات

(1) لزوم بذل قصارى جهد الأساتذة في تشجيع الباحثين والطلاب على تحقيق ما لدينا من التراث المبعثرة في المركز والمكتبات.
(2) تدريب الطلاب على التحقيق العلمي الممنهج في الجامعات والكلية بدولتنا العتيقة
(3) قيام على فهرسة المخطوطات المتوافرة بالمراكز والمكتبات الخاصة والعامة، فهرسة علمية تبرز كل ما يحتاجه الباحث من المعلومات.

مصطلحات فهرسة المخطوطات

لفهرسة المخطوطات إصطلاحات يكثر تداولها لدى مفهرسي المخطوطات، ومنها:
(1) **المجاميع أو مجموعة أو مجموع**: وهو مجلد يضم عددا من المؤلفات الخطية أو الأجزاء الصغيرة من الكتب الخطية أو الرسائل سواء كانت في فن واحد أو فنون مختلفة، لشخص واحد أو لأشخاص متعددة، وقد تحمل عنوان الأول على غلافها.

(2) **النسخة الخزائنية:** وهي التي كتبت لملك أو سلطان أو خزانة المعرفة.

(3) **حرد المتن:** وهي في اللغة حياطة الحظيرة التي تشد على الحائط من القصب عرضا، كأنّ حرد المتن بمثابة حزام واق جعل في آخر النص ليحميه ويشعر بنهايته.

(4) **التعقيبة:** وهي الكلمة التي توضع في ذيل الصفحة المخطوطة لتقابل أول كلمة في الصفحة التي تليها وتكون نفسها.

(5) **الطيارات:** وهي الأواق المستدركة لما فات المؤلف، واستعملت بعد المخطوط، وهي عبارة عن أوراق صغيرة أو كبيرة تنسخ داخل المخطوطة عند مواضع الاستدراك.

(6) **ظهرية المخطوطة:** يقصد بها صفحة العنوان، لأنه مصطلح حديث وربما لأنه هو ما ظهر من وجه المخطوطة لذلك سمي ظهرية المخطوطة.

الخاتمة

وأخيرا أقول أن فهرسة المخطوطات في الوضع الحالي شيئ لا يستغنى عنها الطلبة والباحثون، وتحتاج إلى الاهتمام التام، والتشجيع والتوجيه للطلبة، والإقحام في فنونها، والعمل المثالي لإخراجها على النهج الذي يرضى به العامة والخاصة من المجتمع، وأرجو أن يساهم هذا البحث في بث اللياقة في الاهتام بقضية فهرسة المخطوات رجاء أن تخرج مخطوطات سجلت في تعداد الموات بين ثقافاتنا العتيقة. والله من وراء القصد.

نتائج البحث

من النتائج في هذا البحث ما يالي:

(1) تزويد مكتباتنا بطراز جديد من البحث وهو عناصر فهرسة المخطوطات الذي قد يساعد الباحثين عن فهرسة مخطوطاتنا المهجورة.

(2) التعريف بمصطلحات الفهرسة التي لا تستخدم بمدلولها إلا عند المفهرسين.

(3) التنويه على مناهج تستخدم في فهرسة المخطوطات.

ثبت المراجع:

طرق تأريخ النسخ في المخطوطات؛ النشأة والحل – عصام محمد الشنطي

فن فهرسة المخطوطات، مدخل وقضايا – تحرير وتنسيق د. فيصل الحفيان

فهرسة المخطوط العربي – ميري عبودي فتوحي

فهرسة المخطوطات بين النظرية والتطبيق – محمد حلمي إبراهيم، وأحمد بهجت أحمد، وياسمين حسن محمد

قواعد فهرسة المخطوطات - الدكتور صلاح الدين المنجد
مناهج فهرسة المخطوطات – د. أحمد عطية
مناهج فهرسة المخطوطات وعناصرها – عصام محمد الشنطي

الهوامش:

[1] مناهج فهرسة المخطوطات وعناصرها – عصام محمد الشنطي صـ 3
[2] فن فهرسة المخطوطات، مدخل وقضايا – عصام محمد الشنطي صـ 137
[3] مناهج فهرسة المخطوطات – د. أحمد عطية صـ
[4] مناهج فهرسة المخطوطات وعناصرها – عصام محمد الشنطي صـ 3
(5) قواعد فهرسة المخطوطات، الدكتور صلاح الدين المنجد صـ 61
(6) المرجع نفسه
(7) فهرسة المخطوط العربي – ميري عبودي صـ 31
(8) قواعد فهرسة المخطوطات، الدكتور صلاح الدين المنجد صـ 61
(9) فهرسة المخطوط العربي – ميري عبودي صـ 58
[10] فهرسة المخطوط العربي – ميري عبودي صـ 58
[11] قواعد فهرسة المخطوطات، الدكتور صلاح الدين المنجد صـ 62
[12] مناهج فهرسة المخطوطات وعناصرها – عصام محمد الشنطي صـ 11
[13] طرق تأريخ النسخ في المخطوطات – عصام محمد الشنطي صـ 10
[14] مناهج فهرسة المخطوطات وعناصرها – عصام محمد الشنطي صـ 11
[15] قواعد فهرسة المخطوطات، الدكتور صلاح الدين المنجد صـ 66
[16] فهرسة المخطوطات بين النظرية والتطبيق – محمد حلمي إبراهيم، وأحمد بهجت أحمد، وياسمين حسن محمد صـ 39
[17] قواعد فهرسة المخطوطات، الدكتور صلاح الدين المنجد صـ 67
[18] طرق تأريخ النسخ في المخطوطات – عصام محمد الشنطي
[19] مناهج فهرسة المخطوطات وعناصرها – عصام محمد الشنطي صـ 12

صالحية الشريعة لكل زمان ومكان

إعداد:
الـدكـتـور جمـيـل يـوسف زريـوا
Centre for Islamic Legal Studies
Ahmadu Bello University, Zaria.
08135018032; jamiluyusufzarewa@gmail.com

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا . وبعد:

فإن العبد بحاجة إلى معرفة أحكام النوازل المعاصرة فيما يتكرر عليه في حياته سواء في العبادات أو المعاملات، لئلا يقع فيما لا يرضي الله سبحانه وتعالى.

إن الفقه مرتبط بالحياة بل الشريعة نفسها مرتبطة بالحياة، لأننا في هذا الصدد وفي هذا المجال أمام أمرين: أمام شريعة منزلة وأمام فقه يمثل فهم العلماء والمجتهدين لهذه الشريعة، وكلاهما يكونان ثروة من الأحكام لايستغني عنهما أحد أبدا، فالفقه مرتبط بالحياة والحياة يجب أن ترتبط بالفقه، ولا يزدهر الفقه إلا إذا كان مرتبطاً بالحياة، كما أن الحياة لا تزدهر إلا إذا كانت تحت سلطة الفقه والفقهاء، فأما إذا كان هناك خصام نكد بينهما فإنهما يفقدان الازدهار، فالفقه يصيبه الشلل وقد يموت كما حصل في عصور الجمود والانحطاط، والحياة يصيبها الفساد، والمجتمع قد ينهار بل ينهار فعلاً ويتفكك، فالارتباط بين الفقه وبين الحياة ارتباط وثيق، والفقه الإسلامي لا يؤتي ثمرته المرجوة إلا إذا كانت جوانب الحياة كلها مرتبطة به خاضعة لسلطته في أي مجتمع إذا كانت هناك جوانب من الحياة أو بعض مرافق المجتمع خرجت عن سلطة الفقه، فإن الفقه لا يؤتي ثمرته المرجوة، كما هو الحال اليوم في أكثر مجتمعات المسلمين، إذ أن هناك جوانب من الحياة لا تخضع للفقه وبخاصة الجانب السياسي، والإعلامي وفي بعض المجتمعات لا يخضع التعليم أيضاً للفقه، فإذا خرجت مثل هذه الجوانب الأساسية في المجتمع عن سلطة الفقه يفسد المجتمع، ولكن الحقيقة الأخرى أن الفقه أيضاً ينقص ولا يؤتي ثمرته المرجوة لأن الفقه لا يزدهر إلا بالتطبيق .

والفقه الإسلامي ليس مجرد نظريات ميتة في الكتب فقط كنظريات الفلاسفة، بل هو فقه للحياة لأن الشريعة التي أنزلها الله عز وجل أنزلها قانوناً للحياة، فالفقه يواكب الحياة دائما مرتبطاً بحركتها، ويزدهر بهذا الارتباط، يزدهر على أيدي القضاة وأيدي المفتين وأيدي المجتهدين الذين يتقون الله عز وجل في بيان الأحكام.

والمقصود من هذا البحث هو إنارة السبيل لمن أراد أن يعرف أهمية الفقه وصلاحية الشريعة لكل زمان ومكان بحيث يتم تطبيقها في المسائل الواقعة المستجدة بلا إشكال أو توتر، ويتضمن هذا البحث مبحثين اثنين:

المبحث الأول: عموم وسعة الشريعة وصلاحيتها لكل زمان ومكان

الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان , فما من نازلة من النوازل إلا ولها حكم في الشريعة جاء بيان ذلك في كتاب الله وسنة رسوله، يعلم ذلك ويعرفه الراسخون في العلم, قال الله: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً"[1] وقال سبحانه وتعالى: "وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ"[2].وقال أبو ذر: "تركنا رسول الله وما من طائر يقلب بجناحيه إلا ذكر لنا منه علماً[3] "، وقيل لسلمان الفارسي: علمكم رسول الله كل شيء حتى الخراءة قال نعم"[4], يعني حتى ما يتعلق بآداب قضاء الحاجة فإن الشريعة جاءت ببيان هذه الآداب القولية والفعلية [5].

فمن رحمة الله تعالى أنه جعل هذه الشريعة صالحة لكل زمان ومكان، وذلك مراعاة لمصالح العباد في المعاش والمعاد، فهي عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه، فبها يصلح حال الناس، وتستقيم بها أمورهم، وبانعدامها تسوء أحوالهم وتضطرب، وعليه فلا غرابة في مراعاة الشريعة السمحة لحال الزمان والمكان والعادات، وهذا بحمد الله ما يدركه كل من درس مقاصدها. ولقد تحدث العلماء عند هذا كثيراً وبينوه في كتبهم، وجلبوا له الأدلة والبراهين من السنة وفعل السلف الصالح، ومن هذا ما نقله الزرقاني في شرحه للموطأ من أن عمر بن عبد العزيز كان يقول: "تحدث للناس أقضية يقدر ما أحدثوا من الفجور"[6].

ولقد ذكر ابن القيم في كتابه أعلام الموقعين أمثلة عديدة تدل على تأثر الفتوى بالأمور المشار إليها نذكر منها ما يلي:

المثال الأول: أن النبي ﷺ شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره، وقد حكى عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أنه قال: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم يشربون الخمر فأنكر عليهم من كان معي، فأنكرت عليه وقلت له: إنما ذم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفس وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم[7].

المثال الثاني: أن النبي ﷺ: نهى عن قطع الأيدي في الغزو[8]. فهذا حد من حدود الله قد نهى عن إقامته في الغزو خشية أن يترتب عليه ما هو أبغض إلى الله من تعطيله أو تأخيره من لحوق صاحبه بالمشركين حمية وغضبًا، ولا يخفى ما في هذا من تأثر الفتوى بالمكان.

ومن تغيرها بالزمان إسقاط عمر بن الخطاب لحد السرقة عام الرمادة، قال ابن القيم: قال عمر: "لا تقطع اليد في عزق ولا عام سنة"[9]. قال السعدي: سألت أحمد بن حنبل عن هذا الحديث، فقال: العزق: النخلة، وعام سنة: المجاعة، فقلت لـ أحمد تقول به ؟ فقال: إي لعمري[10].

ومما قدمناه يتضح للسائل صحة تلك المقولة التي ذكرها، ويجب التنبه إلى أن التأثر بالزمان والمكان الذي ذكره العلماء ليس هو الذي يروج له المنهزمون وسماسرتهم ممن ينتسبون إلى العلم والتمسك به زوراً وبهتاناً، وهم يهدمون أركانه كل حين، وينقضون عراه عروة حتى أصبحت المسلَّمات محل نقاش والثوابت محل نزاع، فطلع علينا من يبيح الربا وقد حرمه الله في محكم كتابه، وأجمعت الأمة على أن من زعم حله فقد كفر كفرًا مخرجًا من الملة؛ لأنه أنكر ما علم من الدين بالضرورة وهو حرمة الربا، ورد نصوص الكتاب والسنة، فالمقصود بها هي الأحكام التي بنيت على الأعراف والاجتهاد ومراعاة الأحوال والظروف.

مصادر الشريعة الإسلامية هي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وما يتفرع عنهما من مصادر وأصول مرتبطة بهما، وهي محددة في كتب الأصول والكتاب والسنة بما تضمناه من نصوص وأحكام، جاءت على قدر كبير من الدقة والأحكام الموروثة والمبادئ العامة والقواعد المقررة، مما يجعل هذه الشريعة صالحة لكل زمان ومكان، تتسع لكل تطور وتتطور الحياة في ظلها بلا أي توقف أو وقوع حرج أو ضيق، بل إنها تحفظ للإنسان توازنه في بنائه وتكوينه وتلبية مطالب حياته في شكل متكامل واضح ومرن، وأمور الناس في الحياة: إما ثابتة مستقرة لا يتطرق إليها التحول أو التغيير باختلاف الزمان أو المكان، وإما أمور قابلة للتغير والتبدل والانعطاف، وتختلف النظرة إليها من وقت لآخر، وتختلف فيها الأفهام، وهذا يحتاج إلى ضبط وتقييد يتسع لكل المتغيرات والظروف، ويحفظ فيها الحق وحسن الأداء تحت كل الظروف والمتغيرات، وتبعا لهذه الأمور الموجودة في الحياة جاءت نصوص الشريعة على ضربين متمايزين ينتهيان إلى مصب واحد وهو جلب المصالح للعباد ودفع الضرر عنهم في كل زمان ومكان .

أما الضرب الأول من النصوص فإنها جاءت أحكامها نصية لا مجال للاجتهاد فيها، وقد شملت أقساما من أحكام الدين وأصول التعامل، لأن هذه الأحكام لا تتغير ولا تتبدل مع اختلاف الزمان أو المكان، وهذا واضح في مجال العقيدة في الله وتوحيده وإخلاص العمل له، لأن الإنسان يحتاج إلى هذه العقيدة كحاجته إلى الطعام والشراب والنكاح وقد فطر على ذلك، والألوهية ومقتضياتها لا تتغير ولا تتبدل لا باختلاف الزمان ولا المكان. وكذلك جاءت أحكام الشريعة في قواعد الأخلاق ومحاسن العادات والآداب على اختلافها إذ هي أمور تظل مطلوبة ومحمودة في كل الظروف والأحوال. كما أن لبعض المعاملات التي تتصل بعلاقات الأفراد في محيط الأسرة وأحكام النكاح والطلاق والحضانة وغيرها صيغة استقرار، كلها جاءت أحكامها تفصيلية لأنها لا يختلف أكثر أحكامها باختلاف الزمان أو المكان .

والميراث قد تولى الله بيانه بنفسه سبحانه، فأعطى كل ذي حق حقه، ولم يترك فيه مجالا لمجتهد إلا في مسائل فرعية بسيطة نادرة الوجود، بل جاءت النصوص في هذه الأحكام نصية .

أما الضرب الثاني من الأحكام الشرعية فقد جاءت على شكل قواعد وأصول ومبادئ عامة فيها مجال لاجتهاد المجتهدين، وفي ذلك غاية التكريم للعقل الذي ميز الله به الإنسان ودعا إلى استخدامه في إطار العقيدة السليمة والقيم الإسلامية الأصيلة التي لا تتبدل ولا تتغير بتغير الزمان والمكان، ولكي يكون الاجتهاد أصيلا لا تعبث به الأهواء والغايات، فإنه ينبغي ألا يتعرض له ويمارسه إلا القادرون عليه، وهم أولئك الذين توفرت فيهم شروط الأهلية لمثل هذا العمل، وهي أحكام تتعلق بقضايا تختلف تطبيقاتها من وقت لآخر ومن جيل إلى جيل، ويحتاج البشر إلى التفكير في الوصول إلى ما يلائم حياتهم في كل زمان ومكان.

فإن من أعظم الأمور التي تعين الإنسان على عمله بعد توفيق الله سبحانه وتعالى فهم نصوص الشريعة الإسلامية، وشريعتنا الغراء صالحة لكل زمان ومكان ومناسبة للأفراد والجماعات، وكافية لسد متطلبات الأمم والشعوب، ففيها المواعظ والعبر، وفيها الحِكمة والحُكم، وفيها صلاح الأمة في دنياها وأخراها، فباغي الخير في كنفاتها يُرفع ويُكرَّم، وباغي الشر يُنصح ويُقوَّم، ومن مقاصد الشريعة الإسلامية المحافظة على كيان المجتمع وحمايته من انتشار الجريمة، وتقويم المنحرفين وإصلاحهم، بل إن من أهداف الشريعة الإسلامية منع الجريمة قبل وقوعها، وذلك بمنع وسائل الإجرام المفضية إليه، ولهذا كانت قواعد الشريعة الإسلامية المنظمة لفقه الجنايات أحق بالدراسة والتعليم من غيرها من الأنظمة الوضعية[11].

شريعة الإسلام دواء لما أصاب المجتمع من علل وأمراض اجتماعية، تخلق فيه روح الصفاء والتآلف والبذل والعطاء. فإذا ما كانت شريعة الإسلام صالحة لكلّ زمان ومكان كما هو مشهور فإنّها أيضًا مُصْلِحَةٌ كلّ زمان ومكان، فما من عصر أو مصر عمَّه الفساد فأسلم أمره إلى شريعة الإسلام إسلامَ المريض أمره إلى طبيبه إلا عوفي وعاد إليه مجده وعزّه وأمنه .

إنَّ على فقهاء الأمة في عصرنا هذا وما يردفه من العصور الوعي البالغ بحركة الحياة المتجددة تجددًا محمومًا يستوجب أن تصاحبه حركة تفقه بالغ لتلك الحركة في نور الكتاب والسنة والسعي إلى ما يستبقي الناس في دائرة الطاعة والتباعد بهم عن حرج التضييق والتشديد، وعن إلزامهم بمباعدة ما لم تقطع الأدلة بحرمته إذا ما حملتهم حاجة على المقاربة.

ليكن فقهاؤنا ربانيين، ولن يتحقق مثل هذا إذا ما حصرت أبصارهم وبصائرهم في ما جاءت به المذاهب الفقهية الأربعة، وفي تراث علمائنا من قبل أولئك الأئمة الأربعة ومعهم ومن بعدهم اجتهادات للأئمة علماء لا يقلون شأنا في علمهم واجتهادهم،ونصحهم لله عز وجل ولكتابه،ولرسوله صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا وللأئمة المسلمين وعامتهم

احتسابا لرضوان ربهم - سبحانه وتعالى - وجدير بنا أن نحيي درس تراثهم والاستفادة من أصول النظر عندهم[12].

ويرد على القائلين بأن الشريعة لا تصلح إلا لزمن معين مشيرا إلى أن هؤلاء يتهمون الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا بالقصور وعدم الحكمة والله أعلم بما يصلح به الإنسان في كل زمان ومكان "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير" وهو أرسل نبيه ويعلم أنه لن تكون هناك شريعة بعده ويعلم أن شريعته هي الخاتمة وأنها صالحة للناس إلى يوم القيامة، وقد قامت على هذه الشريعة دولة وحضارة كانت أعظم حضارة إنسانية عرفها بني الإنسان فكيف يدعون أنها قاصرة ولا تناسب هذا العصر فما الذي جعلها تناسب العصور الماضية إذا ؟، إن عالمية الشريعة الإسلامية قد اقتضت أن تكون صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان، ولذلك صيغت نصوصها بحيث لا يؤثر عليها مرور الزمن ولا يبلي جدتها ولا يقتضي تغير قواعدها العامة ونظرياتها الأساسية فجاءت نصوصها من العموم والمرونة بحيث تحكم كل حالة جديدة وتستجيب لجميع مطالب الحياة، والحق أن أحوال العالم اليوم وما فيه من مشاكل وحروب وصراعات دفعت إليها حضارته المادية الخاوية من الروح، كل ذلك يقوم شاهدا على نقص البشر ويعطي الفرصة للإسلام بعقيدته السليمة الصالحة ومبادئه التي تعنى بالفرد والمجتمع معا وبالدنيا والآخرة، وبالروح والجسم جميعا .

ومما تقدم نفهم أن الله ختم الرسالات السماوية برسالة محمد ﷺ، واقتضى أن تكون صالحة لكل زمان ومكان وحال، باقية خالدة بأعدل حكم وأتم تشريع، فلا تجد حادثة من الحوادث أو نازلة من النوازل على مدى الأزمان والليالي والأيام إلا ولها حكم في الشريعة الإسلامية على غاية الإتقان والإحكام والعدل، فهذه الشريعة شريعة كاملة مباركة لم يأت للناس أبدا شريعة أكمل منها، جعل الله جل وعلا لكل نبي شرعة ومنهاجا، وجعل شريعة محمد عليه الصلاة والسلام شريعة كاملة صالحة ما بقي الزمان؛ يعني إلى يوم القيامة، صالحة لكل زمان ومكان، مهما تعددت الأمكنة، واختلفت الظروف، فإنَّ في شريعة الإسلام الحل لكل عويص والحفاظ على كل حق، والرِّفعة لكل ما فيه إعزاز الإنسان من حيث كونُه إنسانا، وإعزاز المسلم ورفعته لأنه حَمل رسالة التوحيد[13].

فلا ريب أن رفع الحرج والمشقة عن الأفراد والدول من مقاصد الشريعة الغراء، وكذلك حفظ الحقوق بكافة أنواعها، والشريعة الغراء جاءت صالحة لكل زمان ومكان، كاملة من غير زيادة أو نقصان، وهذه الخصائص الفريدة التي امتاز بها الدين الخالص الخاتم المهيمن على كل نظام وقانون، وفيه الغناء عن كل مذهب ونحلة وقوانين مستوردة، فنحن نحض الشعوب الإسلامية كافة إلى تحكيم الشريعة الغراء، ونبذ ما خالفها؛ لأن الصلاح والسعادة والأمن بتطبيقها، والشقاء والضياع بنبذها، والله الهادي إلى سواء السبيل. ولعل القياس من أهم الأسباب التي جعلت

الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، حيث تتسع لكل ما يطرأ على مصالح العباد وتصرفاتهم. فمن تأمل الشريعة علم أنها بفضل الله جاءت صالحة لكل زمان ومكان وهذا يمنحنا مزيداً من الوعي والتجديد مع الحفاظ على ثوابت الشريعة وأصولها التي لا جدال فيها ولا مساومة[14]

قال طاهر بن عاشور: على أنّ من مقاصد القرآن أمرين آخرين

أحدَهما كونه شريعة دائمة، وذلك يقتضي فتح أبواب عباراته لِمختلِف استنباط المستنبطين، حتى تؤخذ منه أحكام الأولين والآخرين، وثانيهما تعويد حَمَلة هذه الشريعة، وعلماء هذه الأمة، بالتنقيب، والبحث، واستخراج المقاصد من عويصات الأدلة، حتى تكون طبقات علماء الأمة صالحة في كلّ زمان لفهم تشريع الشارع ومقصده من التشريع، فيكونوا قادرين على استنباط الأحكام التشريعية، ولو صيغ لهم التشريع في أسلوب سهل التناول لاعتادوا العكوف على ما بينَ أنظارهم في المطالعة الواحدة . من أجل هذا كانت صلوحية عباراته لاختلاف منازع المجتهدين، قائمة مقام تلاحق المؤلّفين في تدوين كتب العلوم، تبعاً لاختلاف مراتب العصور، فإذا علمت هذا علمت أصل السبب في وجود ما يسمّى بالمتشابه في القرآن.

وقد يقول قائل: إذا كانت التعاليم الإسلامية كافية في إصلاح البشرية وشفائها, فلماذا نرى أثرها قد تخلف عنها؟ ولهؤلاء أقول: ليس العيب عيب الشريعة, ولكن الوزر كل الوزر على الذين انحرفوا عنها, وعادوها وظنوا جهلا منهم أنها تقف بعيدا عن مقتضيات الرقي الصحيح, ومع ذلك لازالوا يتسمون بأسماء إسلامية, ويحسبون في عداد المسلمين, ومثل الشريعة الإسلامية للبشر مثل الدواء الشافي يصفه الطبيب الماهر للمريض, ولكن المريض لا يتعاطاه تهاونا منه, فلا يكون العيب إذن عيب الطبيب, ولا عيب الدواء, ولكن العيب كله عيب المريض المتهاون في تعاطي الدواء، ويزداد الأمر وضوحا لهؤلاء أن نذكّرهم بحال الأمة الإسلامية في صدر الإسلام, وما بلغته من مجد, وما بهرت به العالم من نهوض علمي واجتماعي في زمن وجيز، لا يزال مثار عجب العلماء والفلاسفة, ومحل بحثهم, وليس له من سر في حقيقة، إلاّ أن أولئك المسلمين السابقين أخلصوا لدينهم, وأخذوا بأحكامه وآدابه بجد وإيمان, فقادهم إلى مواطن المجد وأنزلتهم منازل السيادة والعز {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ, يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ"[15].[16].

قال ابن عثيمين: قوله تعالى: "ويعلمهم الكتاب" أي القرآن، وما فيه من أخبار صادقة نافعة، وأحكام عادلة؛ "والحكمة" قيل: هي السنة؛ لقوله تعالى: "وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة" النساء: 113؛ ويحتمل أن يكون المراد بها معرفة أسرار الشريعة المطهرة، وأنها شريعة كاملة صالحة لكل زمان، ومكان[17].

فكتب فقه الإسلام على اختلاف مذاهبه تحوى الكثير الوفير من القواعد العادلة التى تعالج مشاكل مجتمعنا بروح العصر دون تضييق أو خروج على أحكام الإسلام العامة والخاصة القطعية، وأنه ينبغى أن تكون تلك القواعد هى المورد للمقننين والمصلحين بدلا من أن نستورد ما نشأ على غير أرضنا وفى غير بيئتنا وعاداتنا، وسنجد - ان فعلنا ذلك - أن تشريعنا المستمد من أصول الإسلام عصرى يواكب هذه الحضارات التى نعيشها، ويقود المجتمع إلى بر الأمن والسلام حافظا عليه دينه وتقاليده مشمولا برضى الله الذى رضى لنا هذا الدين وجعلنا خير أمة كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .

فمن سمات المنهج الإسلامي الواقعية والمرونة بما يحقق خلوده وصلاحه لكل زمان ومكان، ولأن حياة الجماعات البشرية عامة، ومنهم جماعة المسلمين في حركية دائمة مثل حياة الأفراد تتوارد عليها حالات الصحة والمرض، والنصر والهزيمة، والتقدم والتأخر، والضعف والقوة؛ فلا مناص لدين جاء ليغطي حياة البشرية في كل أصقاعها على امتداد الزمان أن يتسع لتغطية كل أوضاع التطور التي يمكن أن تمر بها جماعة أو جماعات المسلمين دائما..[18].

ومن الأمثلة الحية جواز حلق اللحية لمن يدخل النظام العسكري في نيجيريا مرعاة للمصلحة، فظواهر النصوص تدل على وجوب إعفاء اللحية، لكن لما كان النظام يقتضي عدم قبول من يعفيها جاز حلقها حتى يخلو النظام من المسلمين.

المبحث الثاني – أهمية دراسة النوازل الفقهية

لدراسة النوازل الفقهية أهمية قصوى فمن ذلك[19] :

- أولاً: إثبات كمال الشريعة وأنها صالحة لكل زمان ومكان, فما من نازلة من النوازل إلا ولها حكم في الشريعة،: قال تعالى : "وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ"[20]، فوجود حكم كل مسألة مع تغير الزمان وتطورها يدل على كمال الشريعة واكتمالها.
- ثانيا : التعبد لله عز وجل بدراسة هذه النوازل، لأن دراستها من تعلم العلم وتعليمه، والعلم من أفضل العبادات وأجل القربات، فالتصدي لمثل هذه النوازل عبادة يؤجر عليها الإنسان.
- ثالثاً : كسب الثواب والأجر عند الله عز وجل، لأن العالم والمجتهد إذا بذل جهده ونظره في تعلم حكم هذه النازلة وما هو حكمها هذا فيه أجر وثواب عند الله عز وجل، وفي الحديث أن النبي قال: "إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد " متفق عليه .
- رابعاً : منح المتصدي لدراسة هذه النوازل ملكة فقهية، ففقه النوازل يؤثر في نمو الثروة الفقهية الإسلامية، فهو الرافد الأكبر لثروة الفقه الإسلامي، ويوضح ذلك أن القرآن نزل منجمًا.

- خامسا: إسعاد الناس بإيضاح حكم هذه النازلة حتى يعبدوا الله على بصيرة وهدى ونور في منهج إسلامي واضح، فلو ترك المجتهدون التصدي لتلك النوازل دون إيضاح لأحكامها لصار الناس في تخبّط ثم استفتوا من لا يصل إلى رتبة الاجتهاد، وهذا قد يفتي بغير علم فيَضِلّ ويُضِلّ، وعلى هذا الأساس فلا بدّ من طَرْق هذا الباب والاستعانة بالله.
- سادسا: كسب الأجر والمثوبة من الله عز وجل، فإن الدارس "للنازلة" المتجرد الذي يريد أن يصل إلى حكمها الشرعي إذا بذل جهده ووصل إلى حكم فيها فهو مأجور.
- سابعا: الحرص على تأدية الأمانة التي حمّلها اللهُ العلماءَ؛ فقد أخذ اللهُ الميثاقَ على العلماء ببيان الأحكام الشرعية وعدم كتمانها، وقد حصر التكليف بهم؛ فكان لزاماً عليهم التصدي للفتوى في النوازل، وذلك إبراء للذمة وإبلاغا للعلم وعدم كتمانه.
- ثامنا: نصوص الكتاب والسنة محدودة والنوازل والوقائع والحوادث غير محدودة، فمن هنا تأتي أهمية الاجتهاد في النوازل.

خاتمة البحث:

يظهر مما سبق أن الشريعة الإسلامية تجمع بين الثبات والمرونة، وأنها ربانية المصدر وعالمية النفع، ولذلك كانت صالحة لكل زمان ومكان، وأصبحت أكثر أحكامها تدور وتتجدد بحسب مصلحة العباد، فلا يخلو حكم من وجود نظير في الشريعة الغراء.

فهرس المراجع:

المعجم الكبير، تأليف سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، الناشر : مكتبة العلوم والحكم – الموصل، الطبعة الثانية، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي.

صحيح مسلم، تأليف أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الناشر : دار الجيل بيروت + دار الأفاق الجديدة. بيروت

فقه النوازل في العبادات لفضيلة الشيخ خالد بن علي بن محمد المشيقح.

شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني، الناشر دار الكتب العلمية، سنة 1411، ببيروت

السنن الكبرى، المؤلف : أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، الناشر : مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، الطبعة الأولى هـ

إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، المؤلف : أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري.

إعلام الموقعين عن رب العالمين، المؤلف : محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الناشر : دار الجيل - بيروت، تحقيق : طه عبد الرءوف سعد.

مجلة البحوث الإسلامية - مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المؤلف : الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن، محمود توفيق محمد سعد.

حقوق الإنسان لفضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

موسوعة الرد على المذاهب المعاصرة 292/24.

التحرير والتنوير، المؤلف : الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار النشر : دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس.

تفسير العلامة محمد العثيمين، المؤلف :محمد بن صالح العثيمين، مصدر الكتاب : موقع العلامة العثيمين.

الموافقات، المؤلف : إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشاطبي، المحقق : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة الأولى.

.مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين، المؤلف : محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى : 1421هـ).

الهوامش:

(1) سورة المائدة : 3.

(2) سورة النحل: 89.

(3) المعجم الكبير (1647).

(4) صحيح مسلم 621).

(5) فقه النوازل في العبادات للمشيقح 2/1

(6) انظر شرح الزرقاني 44/4.

(7) انظر إعلام الموقعين 11/3.

(8) أخرجه الترمذي، حديث رقم: 1450)، وصححه الألباني

(9) انظر اتحاف الخيرة المهرة 3483.

(10) انظر إعلام الموقعين 11/3.

(11) مجلة البحوث الإسلامية 375/9 .

(12) انظر : الإمام البقاعي ومنهجه في تأويل القرآن 14/1.

(13) حقوق الإنسان لصالح آل الشيخ 118/1.

(14) انظر : موسوعة الرد على المذاهب المعاصرة 292/24..

(15) سورة المائدة 15.

(16) التحرير والتنوير 158/3..

(17) تفسير القرآن للعثيمين 53/4..

[18] الموافقات للشاطبي 41/1. .

[19] انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين 375/4، مجموع الفتاوى ورسائل ابن عثيمين 803/10، فقه النوازل في العبادات للمشيقيح 2/1.

[20] سورة النحل: 89.

العلامة علي ابن بطال وعنايته بالجامع الصحيح للإمام البخاري

إعداد:
أنـس عبـاس إبـراهيم
محاضر بكلية التربية لولاية جغاوا، غميل
Jigawa State College of Education, Gumel
Phone: 08028726922; Email: anasiyyah@gmail.com

Abstract

This research titled "Ibn Battal and his intellectual treatment of *Sahihul-Bukhari*" is designed to shed light on Ibn Battal Al-Maliky (Died in 449H) as one of the classical explainers of Sahihul-Bukhari, and his methodology. The research is particularly important being an intellectual endeavour that introduces us to the intellectual aspect of Ibn Battal. It also explores his contribution to the intellectual efforts of preserving the Prophetic Sunnah, which is obvious from his methodology in the explanation and his added intellectual touches. The researcher adopts inductive reasoning and descriptive analytical method the results of which prove the quality of Ibn Battal's jurisprudential work on *Sahihul-Bukhari*, The work features jurisprudential differences among the *Salaf* starting from the *Sahaba*, the *Tabi'oon* and even the jurists-leaders of the jurisprudential schools and thoughts with their respective arguments. Likewise, Ibn Battal often mentions ascetic and wise sayings by himself and other scholars.

الملخص:

هذا البحث بعنوان . العلامة ابن بطال و عنايته بالجامع الصحيح للإمام البخاري. يهدف إلى التعرف على العلامة ابن بطال المالكي المغربي (ت449 ه) أحد شراح صحيح البخاري القدامى، والتعرف على منهجه الذي اتبعه في شرح أحاديث البخاري، وتكمن أهمية هذا البحث في كونه دراسة علمية تعرفنا على الجوانب العلمية في شخصية ابن بطال، ثم التعرف على الجهد العلمي الذي ساهم فيه في خدمة السنة النبوية المطهرة، يبرز هذا من خلال معرفة منهجه الذي سلكه في شرحه ومعرفة الإضافات العلمية التي افادها. واتبع الباحث في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي والوصفي التحليلي. وقد أظهرت نتائج الدراسة أن ابن بطال قدم لنا جهداً فقهياً حول أحاديث البخاري، فيه ذكر لاختلافات الفقهاء من السلف من الصحابة والتابعين وحتى مذاهب الفقهاء أصحاب المدارس الفقهية، يجمع معها الأدلة لهم. كما أن العلامة ابن بطال كثيرا ما يذكر أقوال الزهد والوعظ والحكم ، من أقواله ومن أقوال غيره من العلماء.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: فإن السنة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، وقد سخر الله لها رجالا قاموا بجمعها والذب عنها، ويعد صحيح البخاري أصح الكتب التي حفظت السنة النبوية، لذا صرف

العلماء جهودهم في خدمة هذا الكتاب، ومن العلماء الذين اعتنوا بشرح هذا الكتاب عالم من العلماء المغاربة وهو العلامة علي ابن بطال المالكي.

وفي هذا البحث سأقوم ببيان شخصية هذا العالم والتعريف بكتابه وما يتضمنه من كنوز علمية، مستمدا من الله تعالى العون والسداد. وقد قسمته إلى المحاور الآتية:

المحور الأول: شخصيته وسيرته الذاتية:

- **أولا:** اسمه ونسبه وكنيته.هو أبو الحسن على بن خلف بن عبد الملك بن بطال القرطبي ثم البلنسي المغربي المالكي، ويعرف أيضا بابن اللجام. واشتهر بابن بطال.[1]
- **ثانيا:** مولده ونشأته.لم أجد أحدا ممن ترجم له ذكر تاريخ مولده، وأما نشأته فكانت في قرطبة ثم وقعت فيها فتنة أجبرته على الرحيل منها إلى بلنسية وأصبح قاضيا بحصن لورقة.[2]
- **ثالثا: وفاته:** توفي رحمه الله في ليلة الأربعاء، وصلي عليه عند صلاة الظهر، آخر يوم في صفر سنة تسع وأربعين وأربعمائة[3]

المحور الثاني: حياته العلمية:

أولا: شيوخه: للإمام ابن بطال شيوخ عدة، ومن أبرزهم

(1) عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر، الحافظ أبو الوليد بن الفرضي القرطبي، صنف "تاريخ الأندلس" والمؤتلف والمختلف" و "مشتبه النسبة" لم ير مثله في قرطبة في سعة الرواية، وحفظ الحديث ومعرفة الرجال، قتل رحمه الله يوم فتح قرطبة سنة 403هـ [4]

(2) عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن بن أبو المطرف الأنصاري القنازعي القرطبي، كان عالما عاملا، فقيها حافظا عالما بالتفسير والأحكام، بصيرا بالحديث، حافظا للرأي، ورعا، زاهدا، له معرفة باللغة والأدب، وصنف شرح الموطأ، ومختصر تفسير القرآن لابن سلام، وتوفي رحمه الله سنة 413هـ.[5]

(3) عبد الله بن محمد بن ربيع بن صالح التميمي، من أهل قرطبة، كان من أهل العلم والحديث، كثير الرواية مقيد لها عالي الدرجة فيها. توفي سنة 415هـ[6]

(4) أحمد بن محمد بن عفيف الأموي، من أهل قرطبة، يكنى أبا عمر، كان واسع الرواية والجمع والتقييد، مال إلى الزهد، ومطالعة الأثر، والوعظ، وكان يقصده أهل الصلاح والتوبة والإنابة وجمع كتابا حسنا في آداب المتعلمين، وصنف في أخبار القضاة والفقهاء بقرطبة، توفي سنة 420هـ.[7]

(5) الحافظ المقرئ أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد الله العافري الأندلسي الطلمنكي، عالم أهل قرطبة، كان رأسا في علوم القرآن، وكان ذا عناية تامة بالحديث ومعرفة الرجال، حافظ

للسنن، إماما، عارفا بأصول الديانة، عالي الإسناد ذا هدي وسمت واستقامة، توفي سنة 429هـ.[8]

(6) يونس بن عبد الله بن محمد بن مغيث، قاضي القرطبة، أبو الوليد ابن الصغار، شيخ الأندلس في عصره، ومسندها وعالمها كان من أهل العلم بالحديث والفقه، كثير الرواية، وافر الحظ من العربية واللغة، وهو أيضا من اهل الزهد والفضل والقناعة باليسير، صنف كتاب المنقطعين إلى الله، وكتاب التسلي عن الدنيا، وكتاب فضل المجتهدين، توفي في سنة 429هـ[9]

ثانيا: تلاميذه

ورد في ترجمة الإمام ابن بطال: حدث عن جماعة من العلماء،[10] وقال ابن بشكوال: روى الناس عنه شرحه لصحيح البخاري،[11] وهذا يدل على كثرة الرواية عنه، لكن لم أجد تسمية من روى عنه أوتتلمذ عليه إلا ما ذكره القاضي عياض[12]، حيث سمى رجلين ممن تتلمذ على ابن بطال وهما:

(1) أبو داود المقرئ[13]

(2) عبد الرحمن بن بشر[14]

المحور الثالث: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه.

لم أظفر في ترجمته ما يتعلق بتفاصيل حياته، لكن الذي يتأمل ما سطره في شرحه لصحيح البخاري، يدرك تماما أنه بلغ منزلة ورتبة عالية في علوم الشريعة لا تجارى، وهذه الرتبة في العلم والاجتهاد بوأته مكانة عالية بين علماء عصره على اختلاف مذاهبهم، فضلا عما وصل إليه من مكانة مرموقة بين علماء المذهب المالكي، فقد احتل رحمه الله مكانة رفيعة بين أقرانه، ومن جاء من بعدهم، ولا جرم أنه كان نجما متألقا في سماء العلم، بعلمه الغزير واطلاعه الواسع، وعلو إسناده، وتنوع علومه بما يدل على مكانته تلك، ففي الفقه كان رحمه الله لا يدرك شأوه ولا يبلغ مداه، إذ كان حاذقا وما هرا في الفقه، له تصرف كامل فيه، ولا عجب فإنه بلغ رتبة الأئمة المجتهدين، ومن نظر في شرحه، بانت له منزلته من سعة العلم وقوة الفهم وحدة الذهن.

وكان ابن بطال رحمه الله آية في الحديث، وبرع براعة تامة في علومه حفظا واسنادا، وله باع طويل في التفسير واللغة والأصول والآثار وغيرها من العلوم.

ويتضح هذا من أقواله النقدية التي ذكرها أثناء أحكامه على الأحاديث ، بعضها تتعلق بالمتن و بعضها تتعلق بالأسانيد. ومن ذلك:

أولا: ما يتعلق بتعليل المتون:

كنقده لخطأ الراوي الثقة: ومثاله: قال: وأما حديث ابن عمر فإنَّ فيه: «أنَّ النبي ﷺ نبذ خاتم الذهب واتخذ خاتماً من فضة، ولبسه إلى أن مات».[15] وأما حديث أنس: «أنَّ النبي ﷺ نبذ خاتم

الورِق».[16] فهو عند العلماء وهم من ابن شهاب؛ لأنّ الذي نبذ عليه السلام خاتم الذهب. رواه عبد العزيز بن صهيب، وثابت البناني، وقتادة، عن أنس. وهو خلاف ما رواه ابن شهاب عن أنس. فوجب القضاء للجماعة على الواحد إذا خالفها مع ما يشهد للجماعة من حديث ابن عمر.[17]

أو نقده للحديث الذي في متنه اضطراب: ومثاله: حديث أبي هريرة في الغسل سبعًا، قال: فهو أصح من حديث ابن مغفل، ومن كل ما روي فى ذلك، فقد اضطرب حديث ابن مغفل ، فروى مرة عن شعبة، عن أبي التياح، عن مطرف، عن ابن مغفل، أن النبى ﷺ: «أمر بقتل الكلاب، ورخص في كلب الزرع والصيد».[18] وروي مرة على خلاف هذا . وروى أبو شهاب، عن يونس بن عبيد، عن الحسن، عن ابن مغفل، قال: «لولا أن الكلاب أمة لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها الأسود البهيم ».[19] ومثل هذا الاضطراب يوجب سقوط الحديث.[20]

أو بيانه وهم بعض الرواة في بعض ألفاظ الحديث: ومن ذلك ما جاء في شرحه لحديث أم عطية: «وقد رخَّص لنا عند الطهر إذا اغتسلت إحدانا من محيض في نبذة من كُسْت –أظفار».[21] حيث قال: «وقولها في الحديث: كُست أظفار»، هكذا روي فيه. وصوابه: «كُست ظفار».[22]

أو نقده للحديث الذي يدفعه العيان ويخالف النقل والاعتبار: فمن ذلك قوله: وما روي عنه ﷺ أنه قال: «اللهم من آمن بي، وصدق ما جئت به، فاقلل له من المال والولد».[23] فلا يصح في النقل وال اعتبار، ولو كان إنّما دعا بذلك في المال وحده لكان محتملاً أن يدعو لهم بالكفاف، وأما دعاؤه بقلة الولد فكيف يدعو أن يقل المسلمون،وما يدفعه العيان مدفوع عنه عليه السلام، وأحاديثه لا تتناقض.[24]

ثانيا: ما يتعلق بالأسانيد:

منها ما يتعلق بالأسانيد من حيث الاتصال؛ كنفي سماع الراوي الحديث من ذلك الشيخ ومثاله: حديث ابن عباس أن النبي ﷺ نام في سجوده ونفخ، فقيل له:« يا رسول الله، نمت في سجودك وصليت، ولم تتوضأ؟ فقال: إنما الوضوء على من نام مضطجعًا».[25] وهذا حديث منكر، قد ضعفه ابن حنبل وأبو داود، وقال أحمد: ما لأبي خالد يُدخِل نفسه في أصحاب قتادة، ولم يلقه ؟. وأيضًا لم يروه أحد من أصحاب قتادة عنه، وقيل: لم يسمع قتادة من أبي العالية إلا أربعة أحاديث ليس هذا منه.[26]

ومنها ما يتعلق بالضبط؛كتنبيهه على ضعف الراوي: كقوله: وإذا تقرر هذا بطل ما روي عن النبي -عليه السلام- «أنه توضأ ثلاثاً ثلاثاً، فقال: هذا وضوئي ووضوء الأنبياء قبلي».[27] وهو حديث لا يصح سنده، ومداره على زيد العمّي عن معاوية بن قرة عن ابن عمر. وزيد ضعيف.[28]

هذا؛ وقد حظي العلامة ابن بطال بإجلال كبير عند العلماء، من معاصريه ومن بعدهم، يتجلى ذلك في النصوص المنقولة المتضمنة للثناء عليه وعلى علمه، ومن ذلك:

قول القاضي عياض رحمه الله: كان نبيلا جليلا متصرفا[29] وقال ابن بشكوال عنه" كان من أهل العلم والمعرفة والفهم، مليح الخط، حسن الضبط، عني بالحديث العناية التامة، وأتقن ما قيد منه، واستقضي بلورقة".[30]

وقال عنه الذهبي: كان من كبار المالكية.[31] وقال عنه صاحب "شجرة النور الذكية" "الحافظ المحدث الراوية الفقيه"[32]

المحور الربع: عقيدته ومذهبه الفقهي:

يعد الإمام ابن بطال من أعلام المالكية كما ذكر القاضي وغيره.[33]

وأما عقيدته، فهو أشعري، ذكر هذا غير واحد ممن ترجم له[34]، قال الصفدي: ابن بطال الأشعري كان ينتحل الكلام على طريقة الأشعري، وذكر مثل ذلك الحافظ الذهبي.[35]

وإن الناظر في شرح العلامة ابن بطال لصحيح البخاري يرى أنه سلك مسلك الاشاعرة في التأويل و التعطيل لصفات الله جل وعلا. ومن الأمثلة على ذلك قوله في الصفات الآتيية:

(أ) صفة الضحك. أولها بأنها تعني إظهاره تعالى لعباده لطائف و كرائم لم تكن تظهر لهم قبل ذلك.[36]

(ب) صفة الغيرة. أولها بمعنى الزجر عن الفواحش والتحريم لها والمنع منها.[37]

(ج) صفات الغضب والسخط . أول ذلك بمعنى الإرادة ، أي إرادته لاضرار من سبق في علمه اضراره وعقابه على ذنوبه ، فسماها غضبا وسخطا.[38]

(د) صفة القدم. أولها بأن المقصود هو ما قدم لها خلقه من الكفار ممن علم الله أنهم من أهل النار.[39]

(هـ) صفة الساق. أولها بأنه تعبير عن شدة الأمر.[40]

المحور الخامس: آثاره العلمية:

لم يذكر المترجمون[41] للإمام ابن بطال من آثاره العلمية سوى ثلاثة كتب:

(1) شرح صحيح البخاري

(2) كتاب الاعتصام في الحديث

(3) كتاب في الزهد والرقائق

المحور السادس: دراسة موجزة عن كتاب شرح صحيح البخاري للإمام ابن بطال.

تنحصر دراسة الباحث لكتاب شرح صحيح البخاري للإمام ابن بطال في النقاط التالية:

أولا: اسم الكتاب، وأجود طبعاته.

اتفق المترجمون للإمام ابن بطال على أن له شرحا على صحيح البخاري، دون ذكر اسم هذا الشرح، ولعل ابن بطال لم يجعل له اسما – والله أعلم – لا سيما أن المطبوع من الشرح ليس فيه مقدمة ابن بطال رحمه الله تعالى.

وأما طبعات الكتاب فمن أجودها طبعة مكتبة الرشد بالرياض، السعودية، تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم وإبراهيم الصبيحي، طبعة 1420هـ 2000م، تقع هذه الطبعة في عشر مجلدات.

وقد اعتمد في تحقيق هذه الطبعة على ثلاث مخطوطات وهي:

١- نسخة دار الكتب المصرية ، كتبت سنة (٦٧٨هـ)

٢- نسخة المكتبة الأزهرية ، كتبت سنة (٧٨٠هـ)

٣- نسخة مكتبة الزاوية الحمزاوية ، كتبت سنة (٨٨٦هـ)

وقام المحققان لهذه الطبعة بضبط متن صحيح البخاري منها، ووضع علامات الترقيم، وبيان الاختلاف بين النسخ، وعزو الآيات إلى مواضعها، ووضع فهارس الموضوعات، وغير ذلك من مهارات التحقيق التي اكسبتها الجودة وميزتها عن غيرها من الطبعات.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني أن ابن بطال اعتمد على رواية الاصيلي في شرحه لصحيح البخاري[42]، وفي موضع آخر ذكر أنه اعتمد رواية النسفي.[43] وهذا يدل على أن ابن بطال اعتمد على اكثر من رواية في شرحه لصحيح البخاري ، فيشير ذلك إلى أن الكتب والأبواب التي تركها دون شرح، إنما تركها عمدا، لا أنها محذوفة في النسخ التي بين يديه.

وقد اعتمد الباحث في إحالاته ونقولاته عن الكتاب، على هذه الطبعة.

ثانيا: منهجه فيه وطريقة[44] تأليفه.

تبين للباحث أن الإمام ابن بطال لم يتعرض لشرح كل كتب صحيح البخاري فضلا عن كل أبوابه، كما هو الشأن في كتب: بدء الخلق والتفسير، والفضائل، ومناقب الصحابة، والمغازي من كتب الصحيح.

وأما منهجه في شرح الكتاب والأبواب فيتلخص في الأمور الآتية:

(1) يذكر المصنف اسم الباب ثم يسرد الأحاديث التي وردت فيه ويقوم بحذف الإسناد في أول الحديث ويبدأ بذكر الصحابي رواي الحديث، وأحيانا يذكر من روى عن الصحابي فيقول: فيه ابن عمر – مثلا – قال.... ثم يذكر متن الحديث.

فمثال الأول، قوله في كتاب الوضوء ، باب لا تقبل صلاة بغير طهور: فيه ابو هريرة قال قال رسول الله ﷺ " لا تقبل صلاة من أحدث حتى يتوضأ" .[45] ومثال الثاني ، قوله في كتاب الوضوء ، باب من لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن: فيه عباد بن تميم عن عمه عبدالله بن زيد أنه شكا إلى رسول الله ﷺ الرجل يخيل إليه أنه يجد الشئ في الصلاة..."[46]

(2) يختصر المصنف متون الأحاديث عند ما يسردها، فأحيانا يكون اختصاره من أولها، وأخرى في أثنائها، وكثيرا ما يختصر آخرها ويقول.... الحديث، وأحيانا يذكر الحديث بالمعنى.

وأمثلة ذلك :

(أ) قوله في كتاب الغسل باب نفض اليد من غسل الجنابة: وضعت للنبي ﷺ غسلا... وذكر الحديث فناولته ثوبا فلم يأخذه فانطلق وهو ينفض يديه.[47]

(ب) قوله في كتاب الوضوء باب الوضوء من التور: وفيه ، فمسح رأسه فأقبل بيديه وادبر[48]

(ج) قوله في كتاب العلم ، باب تحريض النبي ﷺ وفد عبد القيس على أن يحفظوا الإيمان : فيه ابن عباس ، أن وفد عبد القيس أتوا النبي ﷺ فقالوا إنا لا نستطيع أن نصل إليك إلا في الشهر الحرام ، فمرنا بأمر نخبر به من وراءنا، ندخل به الجنة ، فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع... وذكر الحديث وقال: " احفظوه واخبروا به من وراءكم"[49]

(د) قوله في كتاب الوضوء باب التماس الوضوء إذا حانت الصلاة: وقالت عائشة ، حضرت الصبح فالتمس الوضوء فلم يوجد فنزل التيمم.[50]

(3) يترجم المصنف أحيانا لبعض الأبواب ويعرض عن ذكر أحاديثها وشرحها، ثم يقول: ليس فيه فقه، أو لا فقه في هذا الباب

ومثاله، قوله في كتاب الجهاد باب الفحولة من الخيل: فيه أنس ، كان بالمدينة فزع فاستعار الرسول ﷺ فرسا لأبي طلحة..." لا فقه في هذا الباب.[51]

(4) يكثر المصنف من إيراد الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، ويستخدمها في استنباط الأحكام من النصوص الحديثية.

ومن الأمثلة على ذلك قوله في مسألة تفريق الوضوء والغسل: اختلف العلماء في تفريق الوضوء والغسل ، فممن أجاز ذلك: ابن عمر ، واين المسيب ، وعطاء ، وطاووس ، والنخعي والحسن والثوري وأبو حنيفة. وممن لم يجز تفرقته: عمر بن الخطاب ، وهو قول قتادة وربيعة والاوزاعي...[52]

(5) تعرض للكلام على تراجم صحيح البخاري، أحيانا بالثناء عليها ووصف البخاري بالرسوخ في الإستنباط، وأحيانا يقوم بتفسير التراجم ويبين غرض البخاري منها، كما نجده في بعض المواضع يعترض على البخاري في بعض تراجم الأبواب لعدم مناسبتها للأحاديث الواردة فيها.

ومن الأمثلة لثناءه على تراجم البخاري : قوله في باب تفسير الخطبة ، وأخرج البخاري فيه حديث ابن عمر في قصة عرض عمر على أبي بكر زواج حفصة وأن النبي ﷺ خطبها بعد ذلك... ثم قال: والمعنى الذي قصد البخاري معنى دقيق، يدل على ثقوب ذهنه ، ورسوخه في الاستنباط .[53]

(6) كثيرا ما يذهب الإمام ابن بطال إلى الجمع بين الرروايات التي ظاهرها الاختلاف، وإذا لم يتيسر له ذلك نراه يميل إلي الترجيح بينها وكثيرا ما يقول: الجمع بين الأدلة أولى من تضادها.[54]

فمن الأمثلة على ذلك: التعارض بين حديث " فلا ينصرف حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا " وحديث " من شك في صلاته فلم يدر أصلى ثلاثا ام أربعا فليات بركعة " فبين ابن بطال أن بينهما تعارضا، ثم ذكر وجه التعارض و أزاله.[55]

(7) ينقل المصنف المذاهب الفقهية المتعلقة بأحاديث الباب ويهتم بنقل مذهب الإمام مالك مع التوجيه والترجيح وذكر الأدلة ومناقشتها، ويتمسك في الغالب بما يدل عليه الحديث وإن خالف مذهبه، ويرد على من خالف ذلك.

ومن الأمثلة، ما قاله ابن بطال أثناء تعليقه على حديث عمران بن حصين " أن رجلاً عض يد رجل فنزع يده من فيه فوقعت ثنيتاه...فقال النبي ﷺ: لا دية له " . فمال ابن بطال إلى رأي الشافعي ورأي أهل العراق ، في عدم الدية ، وخالف مذهب مالك الذي قال بضمان دية السن.[56]

ولهذا لا يوافق الكرماني على ما ذهب إليه من أن غالب شرح ابن بطال في فقه الإمام مالك من غير تعرض لما هو الكتاب مصنوع له.[57] إذ يجد المتأمل في الكتاب أنه احتوى على مسائل كثيرة غير ما ذكر الكرماني[58] رحمه الله تعالى.

(8) لم يتعرض المصنف لمناسبة الأحاديث لتراجم الكتاب إلا في النادر، رغم أن هذه من أعظم فوائد الكتاب.

(9) يذكر المصنف شرح بعض الألفاظ الغريبة في الحديث دون استقصاء.

ومن الأمثلة: قوله في شرح حديث سالم: " إنه كان يتحرى أماكن من الطريق يصلي فيها" . قال: وفي الحديث ألفاظ كثيرة من الغريب. قوله: فدحا فيه السيل ، يقال: دحا، دفع ، ودخل المطر الحصي عن وجه الأرض ، والدحو: البسط ، والكثيب: رمل أو تراب مجتمع...الخ [59]

(10) يذكر المصنف كثيرا من أقوال الزهد والوعظ والحكم، من أقواله، ومن أقوال غيره من العلماء.

فمن أقواله في ذلك: ما ذكره في باب قوله تعالى : (يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) فاطر(٥). فقد اكتفى فيه أن قال: " نهى الله عن الاغترار بالحياة الدنيا وزخرفها الفاني ، وعن الاغترار بالشيطان ، وبين لنا تعالى عداوته لنا، لئلا نلتفت إلى تسويله و تزيينه لنا الشهوات المردية ، وحذرنا تعالى طاعته ، وأخبر أن أتباعه وحزبه من أصحاب السعير. والسعر: النار، فحق على المؤمن العاقل أن يحذر ما حذره منه ربه عز وجل ، ونبيه عليه السلام ، وأن يكون مشفقا خائفا وجلا ، إن واقع ذنبا أسرع الندم

عليه والتوبة منه، وعزم ألا يعود إليه ، وإذا أتى حسنة استقلها واستصغر عمله ولم يدل بها ...الخ [60]

ثالثا: أهم مصادرالإمام ابن بطال فى شرحه

تنوعت مصادر الإمام ابن بطال فى كتابه فكانت من مختلف فنون العلم، من حديث وفقه ولغة، حتى أصبح من المتعذر حصرها، خاصة وأن ابن بطال كثيرا ما يذكر اسم المصنف ولايذكر الكتاب الذي أخذ منه. ومن أهم مصادر ابن بطال:

(1) كتاب العين في اللغة، للخليل بن أحمد الفراهيدي، توفي سنة.[61]

(2) غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام، توفي 223هـ.[62]

(3) كتب محمد بن جرير الطبري، إمام التفسير والتاريخ، توفي سنة. 31، ولم يذكر ابن بطال اسم كتابه الذي ينقل منه.[63]

(4) كتب ابن دريد، ابوبكر محمد بن الحسن بن دريد البصري، شيخ الأدب، من أشعر العلماء، توفي سنة 321هـ، ولم يذكر ابن بطال اسم كتابه الذي ينقل منه[64]

(5) كتب ابن قصار، على بن عمر القاضي البغدادي، شيخ المالكية، توفي سنة 397هـ ولم يذكر ابن بطال اسم كتاب الذي أخذ منه[65]

(6) المهلب بن أبي صفرة الأندلسي، له شرح على الصحيح البخاري غير مطبوع - وكان من الأئمة الفصحاء، توفي سنة 430هـ[66]، ولم يسم ابن بطال كتابه.

وهذا، بالإضافة إلي استشهاده بآراء علماء المذهب المالكي، مستندا في ذلك إلى مصنفاتهم، كما يعتمد على فهمه وفقهه الشخصي، ويتجلى ذلك حيث يقول: قال المؤلف، والله أعلم.

والخلاصة: فإن هذا التنوع في مصادر ابن بطال، يدل على أهمية شرحه ومكانته، حيث جمع جهود كثير من العلماء في عدد من الفنون، كما يوحي هذا العدد من المصادر المنتوعة بثراء المادة العلمية في شرحه، مما لفت أنظار من جاء بعده من الشراح، فاستفدو منه، وأكثرو من النقل عنه.

رابعا: أهمية الكتاب وميزاته على باقي الشروح.[67]

لشرح ابن بطال ميزات غير كونه شرحا للبخاري، تظهر في النقاط الآتية:

(1) يعد شرح ابن بطال من أقدم الشروح - التي طبعت - على البخاري .فمن أقدمها:

كتاب الخطابي والمسمى" أعلام السنن"، وجاء بعده شرح أبي جعفر الداودي، ثم شرح المهلب بن أبي صفرة، ثم شرح ابن بطال. ولم يطبع منها غير كتاب الخطابي ثم ابن بطال.

(2) يعد هذا الكتاب شرحا فقهيا بالدرجة الأولى مقارنة بما اشتمل عليه من قضايا مختلفة في اللغة، والحديث، والتفسير .وأحيانا يترك حديثا أو بابا دون شرح، بحجة أن لا فقه فيه . وهذا المنهج الذي اتبعه ابن بطال في الشرح دفع بعض العلماء إلى توجيه النقد إليه، لإغفاله غرض البخاري من ذكر الباب، ومعهم الحق في ذلك، لكنه لا يقلل من قيمة الكتاب، إذ أن مقصده التركيز على فقه الحديث، ومع ذلك لم يهمل المسائل الأخرى من لغة الحديث وبيانه، والتفسير.

(3) ضم الكتاب عدداً كبيراً من الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ولذا يمكن عده من المظان المهمة لذلك.

(4) يعد الكتاب مصدراً مهما من مصادر الفقه المقارن، إذ يذكر مذاهب الصحابة والتابعين، والأئمة الأربعة، مع التركيز على الفقه المالكي، حيث يزخر بكثرة النقول عن الإمام مالك، والرواة عنه، وعن أصحابه، ويذكر أدلتهم، وينافح عنها بكل ما أوتي من حجة من غير تعصب، ويدور مع الدليل أينما دار، كما تم بيانه في أثناء الحديث عن مذهبه الفقهي.

(5) من أهم ما امتاز به الكتاب ذكره لفوائد الأحاديث من أحكام فقهية ولغوية وتربوية وهذا ظاهر بجلاء في كثير من الأبواب .ونجده ذكر الفوائد إما متفرقة في شرح الباب، أو مجتمعة، في أول شرحه للحديث أو خاتمته، مستعملاً عبارة" فيه"، أو" فيه من الفقه ."

(6) يظهر هذا الشرح جانبا مهما غير موجود بوضوح في بقية الشروح على البخاري، وهو الجانب الزهدي. إذ ضم الكتاب في ثناياه كثيراً من أقوال الزهد والوعظ والحكم، من أقواله، ومن أقوال غيره من العلماء، وبخاصة في كتاب الرقاق من الصحيح. وابن بطال متميز في هذا المجال، فكما سبق في ذكر مصنفاته أنه أفرد كتابا في الزهد والرقائق

(7) تظهر أهمية الكتاب بجلاء من خلال كثرة نقول العلماء عنه، وتعقباتهم عليه، وبخاصة الحافظ ابن حجر العسقلان في كتابه فتح الباري بشرح صحيح البخاري.

(8) حفظ الكتاب بعض المصنفات المفقودة والتي اقتبس منها ابن بطال، مثل: نقوله عن ابن القصار، والمهلب بن أبي صفرة، وغيرهما.

خامسا: استفادة أهل العلم وطلابه من شرح ابن بطال وخدمتهم له.

استفاد العلماء وطلاب العلم من شرح ابن بطال على صحيح البخاري، واعتمدوه، ونقلوا عنه نقولات، وانتقدوه، ومدحوه، واستمدوا منه شروحاتهم للجامع الصحيح ويتلخص ذلك في النقاط الآتية:

(1) وضعوا حاشية عليه، ففي ترجمة الإمام ناصر الدين على بن محمد بن المنير الإسكندراني، وله حواش على شرح ابن بطال[68]

(2) اكثر شراح صحيح البخاري من النقل عنه، والاستفادة من كلامه، ومنهم من تعقب عليه، كما يظهر ذلك جليا عند أبي العباس ناصر الدين بن المنير المتوفي سنة 789هـ في كتابه " المتوارى على تراجم أبواب البخاري" ومحمد بن يوسف الكرماني المتوفي سنة 786 في كتابه " الكواكب الدراري بشرح صحيح الباري" والحافظ أحمد بن حجر العسقلاني المتوفي 852هـ في كتابه فتح الباري بشرح صحيح البخاري " ومحمد بن أحمد العيني المتوفي سنة 855 في كتابه" عمدة القاري بشرح صحيح البخاري " وأحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني المتوفي سنة 923هـ في كتابه: إرشاد الساري بشرح صحيح البخاري"

(3) كثرة الدراسات العلمية حول منهج الإمام ابن بطال في شرحه على صحيح البخاري.

ومن الأمثلة على ذلك:

(أ) أقوال ابن بطال في مسائل العقيدة ومنهجه في تقريرها في كتابه: شرح صحيح البخاري، (جمعا ودراسة)، إعداد: سعيد بن مشيب بن علي القحطاني، رسالة ماجستير ، نوقشت عام ١٤٢٦هـ، بكلية أصول الدين ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ، السعودية

(ب) منهج ابن بطال في تأويل مختلف الحديث من خلال كتابه شرح صحيح البخاري، إعداد: مداح ثامر، رسالة ماجستير ، نوقشت عام ٢٠١٢م، بكلية العلوم الإسلامية ، جامعة الجزائر .

دراسات عن الكتاب في عدة رسائل علمية لمرحلة الماجستير والدكتوراه.

ومن الأمثلة على ذلك:

(أ) ابن بطال وآراؤه الكلامية في شرح صحيح البخاري، إعداد: عبدالله عبد المطلب عبدالحميد، رسالة دكتوراه ، نوقشت عام ١٤٢٦هـ، بكلية أصول الدين ، الجامعة الإسلامية ، بغداد ، العراق

(ب) أقوال ابن بطال في التفسير من خلال كتابه شرح صحيح البخاري، إعداد: سيف بن منصر الحارثي، رسالة ماجستير ، نوقشت عام ٢٠٠٥م ، بكلية أصول الدين ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ، السعودية

خامسا: الملحوظات على الكتاب.

إن شرح الإمام ابن بطال على صحيح البخاري عمل بشري لا يخلو من هفوات وزلات وقعت له أثناء الشرح، فمن الملحوظات على الكتاب:

(1) أعرض المؤلف عن الكلام على أسانيد البخاري ورجاله، وعن الكلام على المعلقات في صحيح البخاري فلم يتعرض لها البتة، بل قام بحذف الأسانيد.

(2) ترك المؤلف كتبا وأبوابا من صحيح البخاري برمتها ولم يتعرض لها بالشرح.
(3) انتقد على الإمام ابن بطال في شرحه واستدرك عليه في مواضع عدة بعض الشراح، وممن أكثر من هذا الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري.

الخاتمة والنتائج:

توصلت – بعون الله تعالى- من خلال هذا البحث إلى النتائج الآتية:

(1) أفادت الدراسة أن ابن بطال من كبار علماء المالكية، وأنه من أهل العناية التامة بالحديث.
(2) تلمذ ابن بطال لعدد من كبار العلماء في الفقه والحديث واللغة، مما ترك أثراً واضحا عليه في شرحه للصحيح.
(3) أبرزت الدراسة شرحا من الشروح المتقدمة لصحيح البخاري، وظهرت فائدة ذلك أنه حفظ لنا عدداً من المصادر المهمة اقتبس منها، فقدت أو لم تطبع بعد، وأيضا استفاد منه من جاء بعده من الشراح، واهتموا بأقواله، وكثرت اقتباساتهم منه.
(4) يغلب على كتاب ابن بطال الشرح الفقهي، ونقل أقوال المذاهب الفقهية وبخاصة الأربعة المشهورة، مما يجعله من المصادر الهامة في الفقه المقارن، وهذا مع اشتماله على كثير من المسائل اللغوية والحديثية، من أقواله وأقوال غيره، مما أظهر عدم دقة ما ادعاه الكرماني أن غالب شرحه في فقه مالك، دون التعرض لما هو مصنوع له.
(5) عني ابن بطال في كتابه بإزالة التعارض الظاهري بين الأحاديث، سواء أثير ذلك قبله أو توقعه، وسلك في إزالته مسلك :الجمع وان تعذر لجأ إلى الترجيح إذا لم يكن نسخ وهو مذهب جمهور العلماء .ولذا فأنه يعد مصدراً مهما في علم مختلف الحديث.
(6) كشفت الدراسة عن أهمية إحاطة شارح الحديث بمذاهب العلماء، وقرائن الأحكام، وأصول الاستنباط عند الفقهاء، وكثيراً ما نبه ابن بطال إلى ذلك وبخاصة عند تعرضه للمذهب الظاهري.
(7) زخر كتاب ابن بطال - في أغلب الأبواب - بكثير من فوائد الأحاديث الفقهية والحديثية والتربوية والزهدية، وعادة ما يعبر عن الفوائد بقوله " :فيه من الفقه " أو يكتفي بقوله : "فيه ."وهذا أغرى شراح الحديث بعده للاقتباس منها وبخاصة ابن حجر.

التوصيات:

(1) يوصي الباحث بإعادة تحقيق الكتاب تحقيقا علميا، يقوم على تخريج النصوص التي يوردها ابن بطال في أثناء الشرح، وتوثيق النصوص التي ينقلها عن العلماء وينسبها إليهم، إذ أن ابن حجر العسقلاني تتبعه في بعضها فوجد عدم دقته في ذلك.

(2) يوصي الباحث بتجريد كلام ابن بطال في الزهد والرقائق في كتاب مستقل، وذلك لأن شرحه للجامع الصحيح ضمّ في ثناياه كثيرا من أقوال الزهد والوعظ والحكم من أقواله، ومن أقوال غيره من العلماء، وبخاصة في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح، ولقد كان ابن بطال متميزا في هذا المجال، فكما سبق في ذكر مصنفاته أنه أفرد كتابا في الزهد والرقائق.

الحواشي والمصادر:

[1]- يراجع للتوسع في ترجمة الإمام ابن بطال المراجع التالية:

(أ) القاضي، عياض بن موسي (ت544هـ)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، بحقيق سعيد أحمد أعراب، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب، 1403، ج2 ص828.

(ب) ابن بشكوال، أبي القاسم خلف بن عبد الملك(ت578)، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، الدار المصرية للترجمة والأليف، القاهرة بدون تاريخ، ص 132

(ج) ابن فرحون ، إبرهيم بن نور الدين المالكي (ت799هـ)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب تحقيق: مأمون الجنان، دار الكتب العمية، بيروت، 1415هـ، ج18 ص35.

(د) الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1415، ج18 ص 45.

(هـ) ابن العماد، عبد الحي الحنبلي (ت1089هـ) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، 1414، ج2 ص438.

(و) كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1414هـ، ج2 ص348.

[2]- القاضي، عياض بن موسي اليحصبي، ترتيب المدارك، ج2 ص827.

[3]- ابن بشكوال، المصدر السابق، ص 132

[4]- ابن بشكوال، المصدر السابق، ص 78 31

[5]- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، طبقات المفسرين، تحقيق: على محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، 1317هـ، ص 54

[6]- ابن بشكوال، المصدر السابق ص 81

[7]- ابن بشكوال، المصدر السابق، ص 12

[8]- الذهبي، محمد بن أحمد، تذكرة الحفاظ، دائر المعارف العثمانية، الهند، 1970م، ج3 ص1098

[9]- الذهبي، محمد ابن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق دكتور عمر عبد السلام، دار العربي، بيروت، وفيات سنة تسع وعشرين ومائة، ج1ص 3070.

[10]- ابن فرحون، إبراهيم بن نور الدين المالكي، الديباج المذهب، ج1، ص 698.

[11]- ابن بشكوال، المصدر السابق، ص 203.

[12]- القاضي، عياض بن موسى، المصدر السابق، ج2، ص 827.

[13]- هو أبو داود سليمان بن ابي القاسم نجاح مولى امير المؤمنين هشام المؤيد بالله، كان من جلة المقرئين وعلمائهم له تواليف كثيرة في معاني القرآن، مات 496هـ

[14]- لم اقف على ترجمته.

[15]- أخرجه : البخاري، محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، ط ١٩٨٩م ، كتاب اللباس باب خاتم الفضة، ج٤ ص٦٨. ومسلم، مسلم بن الحجاج ، صحيح مسلم، دار الفكر، بيروت، ط ١٩٩٠م، كتاب اللباس والزينة باب: تحريم خاتم الذهب على الرجال ونسخ ما كان من إباحته، ج٢ ص١٠٠٥.

[16]- أخرجه: الإمام، أحمد بن حنبل، مسند احمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢٠١٠م، ج٢٠ ص٧٨ برقم ١٢٦٣١

[17]- ابن بطال، علي بن خلف، شرح صحيح البخاري، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ط ٢٠٠٠م، ج٩ ص١٣٠

[18]- أخرجه: مسلم، صحيح مسلم ، كتاب الطهارة، باب حكم ولوغ الكلب، ج١ ص١٤٣.

[19]- أخرجه : الإمام ، أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج٣٤ ص١٨١ برقم ٢٠٥٧١

[20]- ابن بطال، علي بن خلف، شرح صحيح البخاري، ج١ ص٢٧٠-٢٧١

[21]- أخرجه: البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب الحيض باب الطيب للمرأة عند غُسلها من المحيض، ج١ص١١٧ برقم ٣١٣. ومسلم، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الطلاق باب وجوب الإحداد في عدة الوفاة وتحريمه في غير ذلك إلا ثلاثة أيام، ج٢ ص٦٩٤ برقم: ٩٣٨.

[22]- ابن بطال ، علي بن خلف ، شرح صحيح البخاري، ج١ ص٤٣٨

[23]- أخرجه: ابن ماجه ، محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، دار المعرفة، بيروت، ط ١٩٩٤م، كتاب الزهد باب في المكثرين، ج٢ ص١٣٨٥ برقم ٤١٣٣

[24]- ابن بطال، علي بن خلف، شرح صحيح البخاري، ج١٠ ص١٧١.

[25]- أخرجه : أبو داود، سليمان بن الاشعث، سنن ابي داود، دار الفكر، بيروت، ط ١٩٨٧م، كتاب الطهارة باب في الوضوء من النوم، ج١ ص١٤٥ برقم: ٢٠٢وقال: منكر.

[26]- ابن بطال ، علي بن خلف ، شرح صحيح البخاري، ج١ ص٣٢٠.

[27]- أخرجه: البيهقي، السنن الكبرى، دار الفكر، بيروت ، ط١٩٩٧م، كتاب الطهارة باب فضل التكرار في الوضوء، ج١ ص ٨٠-٨١

[28]- ابن بطال، علي بن خلف، شرح صحيح البخاري، ج١ ص٢٢١

[29]-القاضي، عياض بن موسى، المصدر السابق، ج2 ص 867.

[30]- ابن بشكوال، المصدر السابق، ص 414.

[31]- الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلاء النبلاء، ج18 ص 45.

[32]- ابن قاسم مخلوف، محمد بن محمد بن عمر، شجرة النور الذكية في طبقات المالكية، دار كتب العمية، بيروت، 1417هـ.

[33]- القاضي، عياض بن موسي، المصدر السابق، ج2 ص 827.

[34]- أنظر: (أ) الصفدي، صلاح الدين أبيك، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفي، دار إحياء التراث العربي، لبنان، 200م، ج1 ص56.

(ب) الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الاسلام، ج1، 3070.

[35]- الذهبي ، محمد بن احمد ، تاريخ الاسلام ،ج٣٠ ص١٦٩ و ج٩ ص٧٤١

[36]- ابن بطال ، شرح صحيح البخاري ، ج٢ ص٤٢٥

[37]- ابن بطال ، المصدر السابق، ج٧ ص٣٥٠-٣٤٩

[38]- ابن بطال ، نفس المصدر السابق، ج١٠ ص٤٠٣

[39]- ابن بطال ، المصدر السابق نفسه ، ج٦ص١٢٠

[40]- ابن بطال ، نفس المصدر السابق ، ج١٠ ص٤٦٤-٤٦٣

[41]- انظر: (أ) حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون، دار الكتب العلمية، بيرون، ط1985م، ج1 ص 81.

(ب) القاضي، عياض بن موسى، ترتيب المدارك، ج4 ص 827.

[42]- ابن حجر العسقلاني، احمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، ط١٩٨٣م، ج٢ ص٣٣٢

[43]- ابن حجر العسقلاني، احمد بن علي، المصدر السابق، ج١٠ ص٥٠١

[44]- للوقوف على منهج ابن بطال في تأليف كتابه، ينظر:

(أ) عبد الله المحمد، الدكتور محمد زهير، ابن بطال ومعالم منهجه في شرح صحيح البخاري، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، 2009، المجلد 24، العدد 76.

(ب) أبو تميم، ياسر بن إبراهيم، مقدمة التحقيق، لكتاب شرح صحيح البخاري لأبي الحسن على بن خلف بن بطال، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، طبعة 1420هـ2000م، ج1ص32.

[45]- ابن بطال ، علي بن خلف ، المصدر السابق ، ج١ ص٢١٨

[46]-ابن بطال ، علي بن خلف ، المصدر السابق ، ج١ ص٢٢٣

[47]-ابن بطال ، علي بن خلف ، المصدر السابق ، ج١ ص٣٩١

[48]- ابن بطال ، علي بن خلف ، المصدر السابق ، ج١ ص٣٠١

[49]- ابن بطال ، علي بن خلف ، المصدر السابق ، ج١ ص١٦٧

[50]-ابن بطال ، علي بن خلف ، المصدر السابق ، ج١ ص٢٦٢

[51]- ابن بطال ، علي بن خلف ، نفس المصدر السابق ، ج٥ ص٦٦

[52]- ابن بطال ، علي بن خلف ، نفس المصدر السابق ، ج١ ص٣٧٩

[53]- ابن بطال ، علي بن خلف ، نفس المصدر السابق ، ج٦ ص٣٦٧

[54]- ابن بطال ، علي بن خلف ، نفس المصدر السابق ، ج١ ص٣١٦

[55]- ابن بطال ، علي بن خلف ، نفس المصدر السابق ، ج٨ ص٢٦٢

[56]- ابن بطال ، علي بن خلف ، نفس المصدر السابق ، ج٨ ص٢٦٢

[57]- ابن بطال ، علي بن خلف ، نفس المصدر السابق ، ج٢ ص١٢٧

[58]- ابن بطال ، علي بن خلف ، نفس المصدر السابق ، ج١٠ ص١٥٧

[59]- الكرماني، محمد بن يوسف، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة 1401هـ، ج1 ص 3.

[60]- هو محمد بن يوسف بن على الكرماني الإمام المحدث، الفقيه الزاهد، ذوالرحلات الكثيرة في طلب العلم، وله شرح على صحيح البخاري، وهو المسمى: الكواكب الدراكي في شرح صحيح البخاري، ولد سنة 717هـ، وتوفي سنة 786هـ، ينظر: ابن حجر، أحمد بن على بن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج2، ص186

[61]-ابن حجر العسقلاني، أحمد بن على، تهذيب التهذيب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط (1) 1996م، حرف الخاء، ج1، ص 552

[62]- انظر: عبد الله المحمدي، الدكتور محمد زهير، ابن بطال ومعالم منهجه في شرح صحيح البخاري، ص 213

[63]- الذهبي، محمد بن أحمد، تذكرة الحفاظ، ج م ص 710

[64]- الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، ج 1 ص 96

[65]-الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، 37ج 17 ص 107

[66]- الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، ج 7ص 579

[67] - للوقوف على أهمية كتاب ابن بطال وميزته على باقي الشروح، ينظر:

(أ) عبد الله المحمد، الدكتور محمد زهير، ابن بطال ومعالم منهجه في شرح صحيح البخاري، ص:109 – 213.

(ب) أبو تميم، ياسر بن إبراهيم، مقدمة التحقيق، لكتاب شرح صحيح البخاري لأبي الحسن على بن خلف بن بطال، ج1ص: 9 – 10

[68]- حاجى خليفة، مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة 1985م، ج1ص 531